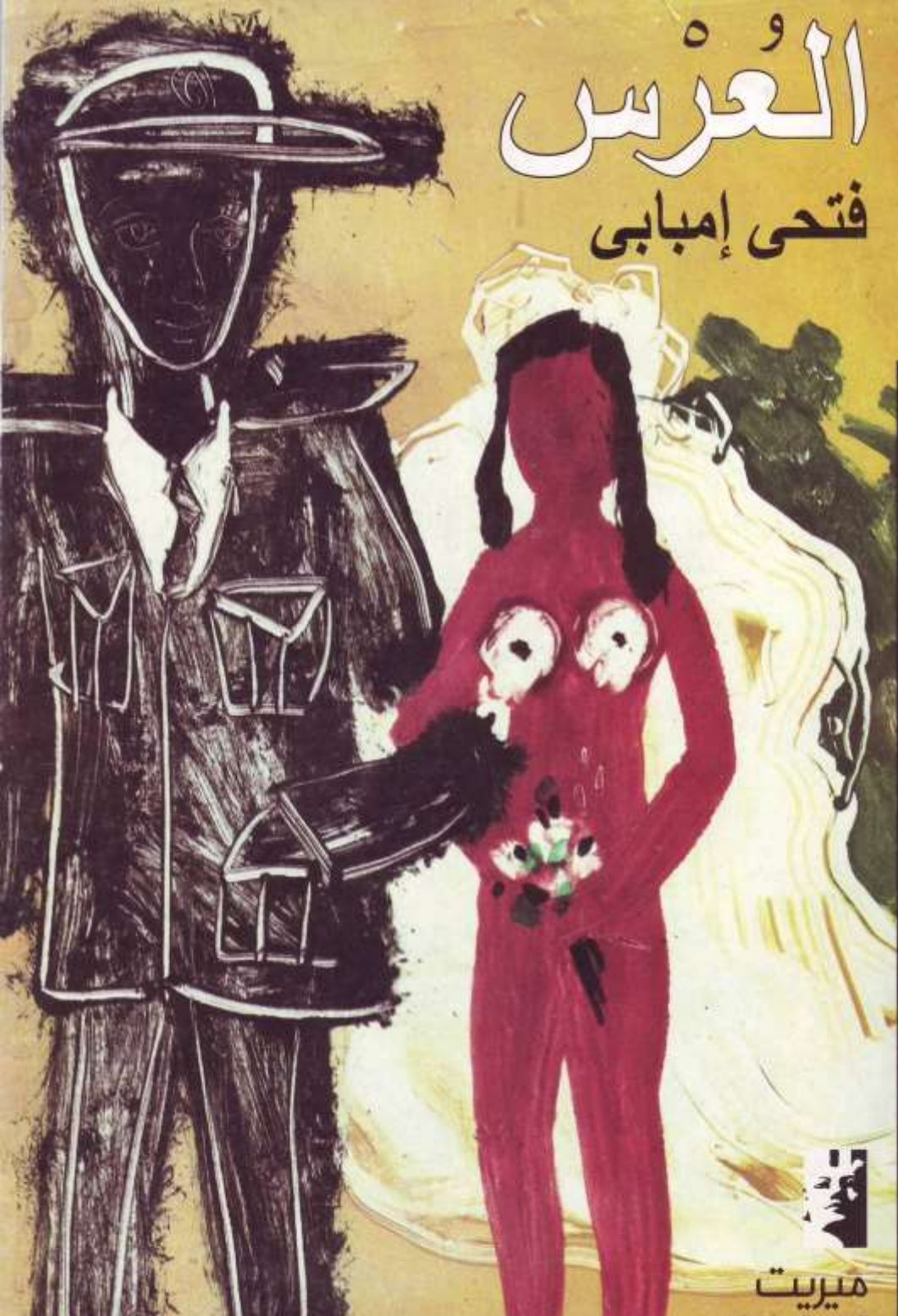


العرس

فتحي إمبابي



رواية



ميريت

فتحي إمبابي

العرس

رواية

الطبعة الإلكترونية

[1]

إهداء

إلى الصديق مصطفى شيحة الذي استلهمت
منه واحدة من أهم شخصيات الرواية، وعشقت
منه سوريا ومدينة التل، خطفه الموت في ريعان
الشباب، وعندما سألتني ابنه أن أخبره عن أبيه
شكني الصمت والوجوم

الآن أستطيع القول إنه كان النبيل في زمن
الوضاعة والفرس في زمن السفهاء. إليه وإلى
أبنائه... أهدى هذه الرواية

فتحيه إمبرابي

الفصل الأول

يقع الحي الراقي بمدينة بنغازي، والذي يضم العائلات الثرية والنخبة الممتازة من كبار رجال المال والتجارة والمقاولات ومديري ووكلاء الشركات الأجنبية؛ وطنيين وأجناس مختلفة بالفويهات.

على الطريق الدائري المتجه إلى المصايف، امتد ركب من العربات الفارحة الحديثة المزدانة بشبكة من الزهور الطبيعية والصناعية وعشرات البالونات والأعلام الملونة، مطلقاً نفيها في أنغام متتالية بابتهاج. انعطف الركب شرقاً محاذياً البحر، عائداً إلى منتصف المدينة عبر الجسر-الحديث المشيد على البحيرات، ملتقياً مرة أخرى بطريق جمال عبد الناصر، وقد أطلقت سيارات الركب لإشاراتها الضوئية العنان؛ كي تفسح لها السيارات الطريق.

ضمت العربة الأولى من الركب العروسين تتقدمهم الدراجات النارية، في حين اجتمع عليه القوم في العربات

التالية، وقد ازدحمت بالرجال والعجائز والنسوة والأطفال... الكبار من الجنسين ارتدوا الأزياء الوطنية الجرد والرداء والشنة، السيدات الصغيرات والفتيات ارتدّين أحدث ملابس السهرة، وأكثرها أناقة والتي جاءت خصيصاً من عواصم الغرب؛ باريس ولندن وروما، وتوجت رؤوسهن بأحدث التسريحات الأوروبية وأكثرها جمالاً، في جاذبية قلّ أن يخلو منها أي مجتمع راق، وعلى صدورهن تحلت جیدهن وسواعدهن العارية بأرتال من المجوهرات والنفائس باهظة الثمن، كان الذهب بينها سيداً وأميراً مطاعاً.

على الأرصفة وقف المارة، وفي النوافذ أطل سكان العمارات على عاداتهم كلما مرت مواكب العرس، وقد ارتسمت على وجوههم ابتسامات عابرة لتلك الأغنيات المتصاعدة من أفواه هذا الخليط العجيب من جمهور العرس، وفرح طفولي لرؤية العبث المتهور من سائقي السيارات صغار العمر، في حين بقي الكبار يبتسمون بهدوء مصطنع إزاء تلك الحماقات....

في السيارة الأولى خيم قلق غامض على ناصر إزاء الساعات القادمة المجهولة، هذه هي المرة الثانية التي يلتقي فيها وعروسه، تتحاشى الالتصاق به مخمشة الأظافر كهرة نافرة، وقد بدت باهتة الملامح يعلو وجهها الصفرة والامتقاع، رغم الأصباغ التي تفننت في وضعها عاملات الكوافير.... لم يكن

قلقه مثل القلق الذي يداهم الشبان ليلة زفافهم... كان خوفًا من المجهول...

وناصر هو الابن الثاني للحاج مفتاح بوزوي، في السابعة والعشرين من العمر، أكمل دراسته بتفوق، وعُيِّن مديرًا لإحدى شركات التأمين الليبية، تميز في عمله بالاستقامة، وقوة الشخصية، والذكاء، فملك الشركة في عقله الواعي وخاصة موظفيها، مع قوته في معاملتهم. حاز منهم الرهبة الممتزجة بالاحترام والتقدير، الأمر الذي كان ربما أحد الأسباب التي لم تمكنه من الارتباط بإحدى موظفاتِه، وعندما رحل إلى أمريكا ضمن منهج البعثات الحكومية ظلَّ هناك عامين، ثم عاد وقد عاف أن يستسلم لنزوة عابرة أو هوى يدفعه بالزواج من أمريكية، فما كان لينوي أن يتخطى الإطار الأسري والاجتماعي الذي يتعين عليه أن يشق طريقه من خلاله، فترك للأسرة تنتفي له زوجته الجالسة الآن بجواره، والتي لم يتعرف عليها قبل ذلك.

كانت تنتمي لإحدى الأسر العريقة والثرية التي تحمل في داخلها الدم اليوناني للتجار الذين أتوا من خلف البحار بغية التجارة، فاستوطنوا الشواطئ، ثم أسلموا وحملوا الأسماء العربية، واختلطوا بالسكان الأصليين المتمسكين بالعادات والتقاليد، فلما امتزجوا بالدم العربي، جاءت نساؤهم أسطورة في الجمال.

كان لعمر الباع الأكبر في الاختيار، ففضلاً عن مكانة عائلتها المالية، كانت طالبة بكلية الآداب، الأمر الذي رآه مناسباً لأخيه الذي استكمل دراساته العليا بأمريكا، وفي ثلاثة أشهر تمت مراسيم الخطبة والزواج، وعندما مد أصابعه ليمسك يدها في غفلة من الجميع متذرعاً بالصبر إزاء نفورها، ارتد مندهشاً بكبرياء، فقد جذبت يدها بعصبية، وعلى وجهها ارتسمت ملامح النفور والنظر في الفراغ...

تساءل في صمت، وقد ازدادت دوافع قلقه إبهاماً... هل هناك ثمة خطأ ما؟

في العربة الثانية جلس الأب، عجوزاً جاوز الستين، بنية طويلة قوية خلفها لأبنائه، وخلفه جلست امرأته وأحفاده، وطفلة صغيرة هي وحيدة ابنه عمر، فإذا تجشأ فعن رضا واطمئنان فهذا هو الزواج الثالث لأبنائه، ولم يبق سوى ونيس الذي أنهى دراسته الطبية بألمانيا، وحميدة الذي ما زال طالباً بكلية الهندسة، وصديقة التي لم تنه دراستها الثانوية بعد، والأيام تجري... فزيجات أبنائه جاءت موفقة ناجحة، وهو إذا تنهد فعلى هذه المدينة العجيبة التي يزرع بها كل أسبوع عمارة شاهقة أو طريق إسفلتي مثل نبات شيطاني... وعندما بلغ به الركب الميناء ابتسم، هنا منذ خمسة وعشرين عاماً، وعلى وجه التحديد سنة 1951 اشترى أول سيارة نقل له، وحين قادها لأول مرة بعد أن ظل يقود سيارات الآخرين من الميناء إلى معسكرات الإنجليز،

وحقول النفط فيما بعد، بدأ وكأنه قد امتلك عشرين امرأة بعد أن ظل محروماً حتى من أمه التي ماتت وهو صغير، كانت الحياة شاقة، يبدأ ليقف على قدميه ثم ينهار، فلا يلبث أن يقوم ثانية، تحدوه رغبة مجنونة في ألا يظل وسط النفايات التي ألقته إليها امرأة أبيه الشابة بعد أن وشت به؛ الفتى الصغير يراودها عن نفسها وكان لم يبلغ الرابعة عشرة، صرخ أبوه والزبد يتناثر من فمه: عدي غادي... لست ابني ولست أبك... يومها ترك دار أبيه إلى غير رجعة، ولم يكن يشعر بالكراهية لأحد حتى لامرأة أبيه، سبب بلواه وتشرده، ورحل من القبة إلى درنة، حيث وقف في حانوت صغير ظل يتسع وتتسع معه تجارته حتى صار معروفاً في السوق بالدرناوي، وبعد ست سنوات عرض عليه أحد المستوطنين اليونانيين من مدينة سوسة أن يشاركه تجارته، لحظتها أحس بالفخر والعزة، وعندها قال له: لا أستطيع شيئاً دون مشاورة أبي، وحمل هداياه إلى أبيه ورحل إليه. عندما طرق الباب لم يدعه للدخول، استمع إليه بنفور، ثم ولاه ظهره عائداً إلى داخل الحوش:

- شنو دخلي بيك. افعل كيف ما تبي!

في هذا اليوم عاد كسيراً حزين النفس، فكر أن بمقدوره الاستفادة من الرجل الأبيض فشاركه، ولما جاءت تلك الأيام الرغيدة، بعد الحرب العالمية الثانية، وحل الإنجليز محل الطليان أغلق دكانه، واشترى هو واليوناني عربة لنقل

البضائع والعمال، وظل ملازمًا لها طيلة أربع سنوات، يعمل ليل نهار على بوابات الميناء منطلقًا إلى الصحراء، لا يغادر سيارته بل ينام بها طوال الليل أمام الميناء، كي يكون الأول، وبهذا يستطيع أن يحصل على دورتين، الأولى بالصباح الباكر والثانية بعد منتصف الظهيرة، أيام طويلة قضاهَا متسخًا لا يرى امرأته التي تركها وراءه بالقبعة، تعودت بشرته النحاسية أملاح عرقه، وتلون بها سرواله الوحيد، تسلخ جسده عدة مرات، حتى صارت له علامة مميزة، وصارت الحشرات والقاذورات لا تسبب له الحك، حتى أصبحت مؤخرته مثل جلد الإطارات الكاوتشوكية، وتعلم الصبر من قيظ الصحراء اللاهب، واللامبالاة من غبارها الذي لا ينفك يلتصق ببشرته ويسد خياشيمه، فلما نوى اليوناني حل الشركة، وكان قد أسلم وحج إلى بيت الله الحرام، قال الدرناوي: "يا حاج، أنت مثل والدي، وثقتي بك كاملة ومثلما تقرر نصيبي فإنني موافق"... وقد كان اليوناني العائد لتوه من بيت الله الحرام مثل والده بالفعل، فبعد أن جمع وطرح (وكان الدرناوي لا يعرف القراءة والكتابة) وأعاد الجمع والطرح، أخرجته اليوناني مدينًا بأربعمائة وخمسة وسبعين دينارًا، وكان يومًا أسود لم ير مثله، وراح طيلة ليلة يفكر، وفي الصباح قال:

وافقت ولكن لي أجرة عملي عن هذه السنوات الأربع...

كانت هذه هي القشة التي تعلق بها، فأعاد المستوطن جمعه وطرحه، ووضع القلم عدة مرات في فمه، وحك به

مؤخرة رأسه، فكانت النتيجة أن أصبح مديناً لليوناني بتسعين ديناراً. ترك العمل خالي الوفاض مديوناً، يرتدي أسماله البالية، وحذاءه الذي طالما رتق نعله بإطارات السيارات يكشف عن إصبع قدميه الكبرى.

في صباح اليوم التالي انتشر- في الميناء نبأ تركه العمل، تدافع عليه أصحاب الشاحنات، كان نادراً في جلده على العمل، وعرض الجميع على الدرناوي أن يعمل لديهم ولم يأت عام 1951 حتى امتلك شاحنته، وبعدها اتسع العالم أمامه حقاً؛ المعسكرات الأمريكية وشركات النفط، بنغازي بناها قطعة قطعة، وحمل إلى أرجائها أطنان الأسمنت والأحجار والرمل الحصى-، وفي عام 1962 قرر ترشيح نفسه للبرلمان ولو فعل - حقا - لكان مقضياً عليه اليوم، عرض عليه القصر- المال مقابل أن يتنازل لصالح مرشحه، ففعل ولم يكن الأمر يستحق التفكير أمام رغبة الملك، لكن الجميع أشاع أنه ارتشى- لقاء انسحابه، إلا أنه لم يفعل، فلما قامت الثورة انسحب إلى داره، وجمع نقوده واشترى بها قطعاً من الأراضي التي تقع على الطرق الرئيسية، فلم تمض سنوات حتى تضاعف سعرها، وأصبح الآن عشرات الأضعاف... وها هو اليوم يقضي- من ريع مبانيها أيامه الباقية.

* * * *

بينما كان ركب العرس يتهادى في أرجاء المدينة، جلس عمر بوزوي الأخ الأكبر للعريس في الثامنة والعشرين من العمر على رأس طاولة الاجتماعات، يحيط به سبعة من مهندسي الأعمال المدنية والعمارة، واثنان آخران أحدهما مهندس ميكانيكا والآخر كهرباء، بالإضافة إلى الحاج حميدة كبير ملاحظي موقع معسكر المدفعية؛ ضبع تلمع أنيابه في وضح النهار، يدور بعد غروب الشمس يتابع ضحاياه الذين سيسقيهم عذاب الليل، وبجوار المهدي عمران جلست سكرتيرته المصرية أنثى في الثلاثين تفوح منها رائحة الشبق، وأمامها جلست مهندسة سورية تدعى مريم، وهي زوجة المهندس زياد كبير المهندسين ورأسها منكس إلى الطاولة وهي صامتة لا تريم.

انهال رنين الهاتف على عمر يطالبه بالحضور، فقد أقبل ضيوفه، لم يستجب، وراح يتصايح مع مهندسيه وكبير الملاحظين، وقد جلس بجواره مدير مؤسسته المهدي عمران يجيل بصره بين الحضور، وجميعهم مهندسون جدد، في مطلع حياتهم العملية، يتسلى بعلامات الخوف والقلق المبهم والترقب الحذر من الإهانات التي سيلقى بها جزافاً صاحب المؤسسة ورئيس مجلس إدارتها، قط يتلاعب بفئران منزله.

من بين هؤلاء جميعاً كان هناك ثلاثة فقط: مدير المؤسسة، سكرتيرته الشبقة التكوين، الحاج حميدة كبير

الملاحظين، جلسوا على كراسيهم في بحر من الاسترخاء الذي تمتلئ به الكواسر بعد التهام الفرائس من أولئك المازجرية⁽¹⁾. البقية منهم بدا عليهم قلق الحمائم قبل انقضاء الثعابين عليها، كيف تتسع الأعمال لديه بهذه الدرجة الهائلة، كيف يقفز رقم الاثني عشر- مليوناً من الدولارات إلى عشرين بين عشية وضحاها؟ وعند أي حد تنتهي هذه القوة التي تبدو بلا حدود؟ وكيف تم هذا ولم يمض من عمر المؤسسة خمس سنوات، لماذا تمتد الأعمال من الغرب إلى طبرق حيث أقصى- الشرق؟ وإذا كانت الأعمال بهذه الدرجة من السوء، فلنصبح نحن الضحية، وكباش الفداء لهذا الخنزير المدعو حميدة، الذي يصلح لأن يكون رقيباً من نوع خنزير في صفوف الجساتبو...

- وين ضمائركم؟ قالها عمر بوزوي وهو يطرق بقبضته طاولة الاجتماع بعنف ويقف مهتاجاً:

- «أنا المهندس بتاعي لازم يحافظ على مصالحتي أنا... لازم يعطيني بيش نعطيه وإلا نحصل كلب من الطريق بيش يصبي على الخرسانات»

تحرك المهندسون على مقاعدهم، وتساءل بعضهم، لماذا يجب أن نبقى جالسين وأعصابنا مشدودة، نرتعد بين الوشاية والإهانة، لأن المرتبات هنا مرتفعة، ولكن ألا تدفع

¹ (مازجرية: لقب يطلقه الليبيون على الأجانب ومن غير الوطنيين.

شركات المقاولات التي تنافسه؟ نعم وأكثر مما نأخذ هنا، ولكنها قد تلقى بنا بعد فترة إلى الشارع كالكلاب؟ ولم لا... هذا طبيعي. فمن يتحمل مسئولية كل هذه الأموال الضخمة. الحاج حميدة؟ هتف كبير المهندسين السوري زياد موجهاً خطابه إلى رئيس مجلس الإدارة:

- يا أخ عمر، كل شيء تمام. «نحن جربنا محطة خلط الخرسانة المركزية وها الوقت بتشتغل عال، منطقة مخازن التموين بتخلص بيها الخرسانات في شهرين، عنابر نوم الجنود والمطعم بيها شوية أعطال بسبب التشطيب، لكن أنا بنسويها».

صرخ به عمر: «هاذي المفروض تسلم من ستة أشهر».

- «إيه أدري؟ لكن ما زلنا نتابع الهبوط اللي بيصير بمبنى الإدارة، هاذي المبنى أساساته انصبت على أرض تربتها تنتفخ، من شان هيك بدنا نعلم إيش يصير فيه بعدين».

- كاذب... نطق بها عمر بقوة.

تغضن وجه زياد وابتسم ابتسامة صفراء، فتغيرت ملامح الجالسين بين مشاعر الاحتقار والرثاء، خفضت المهندسة مريم زوجة زياد من رأسها إلى الأرض، وقد تصلد وجهها، وراحت أصابعها تتلاعب بما في يدها وكأنها لم تسمع شيئاً.

استطرد عمر قائلاً: «كاذب يا باشمهندس... أنا نبي المهندس بتاعي يقول الحقيقة... يضيع من المال إيش ما يضيع ولكن ما يكذب».

قال زياد متجاهلاً الإهانة التي لحقت به: «إيه أنا نقصد كيف إيلي بتقوله أخ عمر، إيه. فيه أخطاء في التنفيذ، تصميم القواعد والرباطات هادا صحيح، لكن أنا نقول التربة بتنتفخ بيش أحافظ على سمعة المؤسسة، ما بيخفي عليك كثير أخ عمر المهم المنطقة المركزية بالمعسكر، ثلاث مناطق بدا بيها الشغل وأربع جديدة، إضافة لمنطقة الساحات بيتولى كل مهندس الإشراف على منطقة، ويصير مسئولاً عنها مسئولية كاملة، ويصير تحت مسئوليته قيمة أعمال تتراوح بين اثنين وثلاثة ملايين دولار، حتى يصير بدء العمل بالمنطقة الجديدة بنكون سلمنا المرحلة الأولى وينتقل جزء منها للمرحلة الجديدة».

توتر المهندسون، فالآن حان ميعاد تقسيم العمل. المناطق القديمة. أخطاء وأخطاء باهظة، الكل يريد التخلص منها، ساحة مساحتها خمسة وسبعين ألف متر مربع من الخرسانة العادية، من يستطيع أن يصلح الخطأ الذي بدأه المهندس زياد، حين جعل ميولها تصرف مياه المطر نحو منتصفها فجعل منها بركة للأمطار. مبنى القيادة الذي صبت قواعده دون الحديد المطلوب فانتشرت الشروخ على طولها، بهو الضباط الذي بدأ سلمه في التساقط، بعد أن انتشرت

الشروخ على كمراته الرئيسية، من يتحمل مسئولية المنطقة القديمة سوى الذي بدأها... لكن هذا لم يكن منطقيًا لدى البعض، فالمناطق الجديدة للمهندسين عمولات ورشاوى وسمسرة، الذي يفوز بها يفوز بالثراء.

قال زياد مشيرًا لزميليه السوريين: أنا نعمل والمهندس ياسر وكمال بالمنطقة الجديدة، هادي تحتاج شغل كثير وخبرة، المهندس موسى وحسين يكملوا المنطقة القديمة.

امتعض الفلسطينيون للمؤامرة، وانبعث صوت المهندس المصري الوحيد في هدوء يقول: إنه يرفض هذا التوزيع العشوائي، فالمواقع في حاجة أولاً لبرنامج عمل...

أصيب الجميع بهياج. قال المهندس زياد:

- «إيه طبعًا لازم خطة عمل ولكن هادي يسويها كل مهندس لحاله».

وهمس المهندس ياسر لزميله: «إيش يريد هذا الصعلوك. برنامج عمل على إيش؟ هادا الذي بيجري هون كباريه... ملهى ليلى... مو عمارة وإنشاءات... المسكين يتصرف وكأنه بقاعة المحاضرات بالجامعة».

كان يقلق صدر المهندس المصري تساؤلات وشكوكًا عديدة... لماذا لا تطيح المؤسسة بكبير مهندسيها؟ بعد أن أثبت عجزه وفشله الذريع في إدارة المواقع والسيطرة عليها، سيكون من المضحك أن يعتقد بنزاهة كبير مهندسيه. وهذا

الخنزير الملامح، الضبعي السلوك الذي يستطيع أن يكتب اسمه بالكاد، ولا يفهم في المعمار إلا كما يفهم سائق الحنطور عن السيارات، كيف تعطيه المؤسسة كل هذه السلطة على مهندسيها؟ ولم أهداه صاحبها لوري منذ ثلاثة أسابيع لكونه عين مراقبًا على كل هؤلاء المازجرية بالموقع؟ كيف يصبح سائق الشاحنة القديم المهدي بن عمران مديرًا لكل هذه المؤسسة الضخمة؟ ما علاقة هذه العاهرة كي تصبح سكرتيرته؟

نظر إلى عمر وفد خامره شعور بأن حديثه سيكسبه عداوة الجميع بما فيهم عمر بوزوي، قال المصري الشاب وقد أيقن أنه يبدو طالبًا خجولًا وسط مجموعة من عصابات السرقة والمتشردين:

- مشكلتنا الإدارة، كي نخطط العمل إضافة إلى الإشراف الفني هناك ثلاث مسئوليات في حاجة لمن يديرها، أو يكون مسئولًا عنها؛ الأولى: حركة الآليات حيث توجد بالإضافة إلى الخلاطة المركزية عشر- عربات خلط سعة خمسة وعشرة أمتار مكعبة من الخرسانة قيمتها حوالي ربع مليون دينار، ولدينا جرارات وبلدوزرات وأوناش وحفارات وعربات مياه عديدة يبلغ إنتاج الواحدة منها يوميًا مائتي دينار، هذه مسئولية، والمسئولية الثانية هي التشوينات، بالموقع أكثر من نصف مليون دينار مواد، والثالثة هي العمال والعقود، لا يمكن بالمسئولية الفنية فقط إدارة المشروع.

صرخ الجميع واهتاج، وجلس عمر بوزوي يفكر في الإدارة والتخطيط، لقد استطاع أن ينجز مشاريعه الصغيرة بقوة وحماسة، فلماذا يتعثر الآن؟ كان يعمل دون مهندسين، فيعطي للمشروع عملاً جباراً طيلة نهاره وليله. أما الآن فلم يعد يملك الوقت الكافي، صاح المهندس زياد في صخب وقد تدلت خلفه خصلات شعره الأشقر الطويل مبرزاً صلماً خفيفاً بدأ يتزايد وينمو إلى الخلف.

أنا مسئول عن كل هذا، أنا والحاج حميدة.

أجابه المصري بنبرة يشوبها استهزاء: «أنت يا مهندس زياد لا تأتي الموقع كثيراً، هناك مشاريع سرت والرجمة وطبرق، والحاج حميدة يعطل العمل لا ينظمه»، تغضن وجه الحاج حميدة الخنزيري وحلت عليه ملامح دهشة من أصيب بطعنة غادرة، قال:

«نشهد الله أخ عمر، تواد نستقيل، تقبلها أو تنقلني مشروع آخر».

قال المهندس المصري لنفسه... على العكس سوف تتحين الوقت المناسب للانتقام، كان الهياج قد ساد المكان، قطعه عمر بوزوي وعيناه الناريتين تحدد بالمهندس المصري حديث السن.

أنا نثق بالمهندس زياد... أنا نثق فيه، تواد ينزل غادي المشروع وتواد نشوف كيف تحل المشاكل.

قال المهندس الفلسطيني: تبقى مشكلة.

تساءل عمر: شنو؟

مشرف شركة الإنشاءات العسكرية.

قال عمر بكبرياء: إيش يسوي "الزامل" (2).

أجاب الحاج حميدة: يعاكس فينا، يوجع عقولنا يطلب
مياها لرش الخرسانات.

خاطب عمر حميدة مهتاجًا: طقه... طقه يا حاج...

أجاب مبتهجًا: والله أنا نطقه... هادي سهلة، أنا كنت
نرش الخرسانة، درت التبو عليه.

تدخل المهدي عمران مهدئًا: أنا نفضل نكلم مدير
الإنشاءات العسكرية ينقلوه من الموقع، يكفيننا ضربنا
مهندس من عام.

رن هاتف التليفون... أعطت ميرفت السماعة لعمر الذي
صاغ السمع بانتباه... قال بعد فترة وجيزة: وصل؟ بعد
ساعة... باهي توا نجبي.

وقف عمر بقامته المديدة منهيًا الاجتماع وتبعه المهدي
عمران من فوره، مال يهمس في أذنه مشيرًا إلى مهندس

(2) الزامل... لهجة ليبية، تعني سبابًا بالشذوذ الجنسي.

مصري تجاوز الخمسين، ربعة القوام يتقدمه كرش سمين
منتفخ: يدير بيزنس مع المؤسسة العربية للمقاولات.

تصلبت ملامح عمر بوزوي، ألقى إليه بنظرات تأرية لم
يلمحها الرجل لحسن حظه. فكر لوهلة ثم قال: يمارس
السمسرة والعمولات في موقعنا؟

المستخلص... هادا غير صفقة كابلات معسكر الإشارة...
مائة ألف دينار.

مع منو؟

صديق لنا... على الزوواي.

تجهم وجه عمر: انصبوا له كمين.

ضيق المهدي من عينيه: تبي شرطة...

مشيراً بإصبعه إلى الأرض وقال بقوة: نعم وفي قلب
الموقع.

* * * *

حاذي الركب الشاطئ الغربي، عبر الميناء، فعمارة كانون،
فكلية الهندسة، فالمستشفى الجامعي، منعطفًا يسارًا إلى
شارع جمال عبد الناصر، عند بناية على اللنجي أنعطف ثانية،
يسارًا إلى ميدان الشجرة، فالمنطقة التجارية بوسط المدينة،
وقد اتخذ أقصى اليسار معطلاً حركة المرور، مشيراً الضجيج
والصخب مثل كل مواكب الأفراح، في ميدان الشجرة حيث

مبنى إدارة المرور، الذي طالما أخضع حركة الطريق والسيارات على طول المدينة تحت قبضته، ثبت رقيب من شرطة المرور خوذته وأخفض نظارته الواقعية للهواء على عينيه، انطلق على دراجته النارية الحديثة من طراز B.M.W وخلفه آخر، وقد انتفخا زهوًا وخيلاء، فيما انعقد على وجهيهما إيمان راسخ بقدرتهم على استتباب الأمن وفرض هيبة المرور، قرب مؤخرة الركب أطلقا صفارات الإنذار، تاركين مصابيح التحذير الحمراء تفسح لهما الطريق بين التلال المتراكمة من السيارات، التي راحت تنزاح يمينًا بسرعة ورهبة.

عندما بلغ الشرطي الأول مقدمة الموكب وضع دراجته البخارية أمام سيارة العريس مباشرة، وأشار لها بالوقوف، وقد نزل في هدوء متعجرف وصلف، واتجه إلى قائدها الذي أطل من النافذة في عصبية بالغة على هذا الثقيل. طلب الشرطي من «أخو العروس» رخصة القيادة وكتيب السيارة، توجه زميله الآخر إلى السيارة الثانية بعد أن وضع دراجته على يسار الركب، تبادل الشبان النظر وكلاهما يضحك في رعونة من الشرطيين، صاح ابن أخت العريس وقائد السيارة الثانية لأخو العروس:

- الشرطي هذا إيش "بيي" (3)؟

³ (بيي: يريد (لهجة ليبية).

التفت إليه بعصبية وقال بصوت جهوري: يبى الرخصة
والكتيب...

قوله يعدي (.....) الزامل.

في اللحظة التي انتوى فيها الشرطيان أمرًا صارمًا، تصاعد
من مؤخرة الرتل صرير حاد لإحدى السيارات الأمريكية
الفاخرة الأسبور من أحدث طراز، وفي تلك المنطقة الضيقة
بين السيارات وبواكي شركة الطيران الليلية وفندق عمر
الخيام، انطلقت السيارة إلى مقدمة الركب نظرها الشرطي
مبهوتًا، يراها تعبر المنطقة الضيقة نحوه في سرعة، صرت
فراملها في عنف، لتقف أمامه مباشرة، كادت أن تلامس
مقدمتها دراجته، انفتح بابها وصفق في عنف بعد أن نزل
منها شاب مغال في أنافته صاح في الشرطي: «كنك... إيش
تي... يا أخي عرس هذا وليس مأثم...»

حاول الشرطي الإجابة لكنه لم يعطه الفرصة:

تبيش الزامور... باهي... ما عدتش تزمريا علي... هيا
عدي...

اندفع الشرطي الآخر تجاهه، لكنه قبل أن ينطق لمح
الشخصية الجالسة على المقعد الأمامي للسيارة الأسبور،
انعقد لسانه وأدى التحية بعنف وقال: سامحنا يا أخي...

أجاب الشاب: باهي... ما في شيء، هذا أنت تؤدي
واجبك... ني أنت تسامحنا.

لم ينتظر الشرطي الحديث فقد أراح للدراجة عن الركب
مسرعة، وعاد علي جمعة لسيارته ومال إلى أمر فرع
المخابرات الحربية والجالس بجانبه قائلاً: ها دول التيوس
يبوا يحكموا العالم... اندفع بسيارته إلى مقدمة الرتل يفسح
له الطريق بعد أن عاد إليه ضجيجهِ وصخبهِ، انطلق نفيِر
السيارات وأضواء الخطر الرباعية الصفراء مرة أخرى تتخللها
الأغاني وتعليقات المارة.

* * * *

الفصل الثاني

علي جمعة هو المسئول عن أعمال المؤسسة بطبرق
ودرنة، وهو المتحكم في أمرها بلا منازع، يبلغ من العمر
خمسة وعشرين عامًا، أبيض البشرة متناسق الجسد، تميل
قامته إلى الطول، ينسدل شعره الدهني لامعًا طويلًا إلى
الخلف، بينما تقل كثافته عند المفرك من الأمام، ومن فتحة
قمصانه الملونة كان يبرز شعر صدره خفيفًا، يهاجمك وجهه

الذي لا يتسم بالدمامة ولا الوسامة بريق من اللمعان
الدهني، مُغالٍ في أناقته، يرتدي دومًا أحدث الموديلات
والقمصان المشجرة، وأربطة العنق العريضة الزاهية
الألوان، فخرانة ملابسه مليئة بمختلف الأنواع الحديثة
والنافرة، معروف بنظارته الشمسية العريضة، والساعة
الرولكس الذهبية، وأنواع السيارات الفارهة والأسبور، تخفي
مظاهر الخشونة رجلًا مخنثًا، ورجل أعمال ومدير تنفيذ من
طراز رفيع، طاقته المخيفة في الأعمال والترويج عن النفس،
العلاقات الوثيقة والمتشابكة بمختلف الشخصيات المؤثرة
داخل السلطة والجيش والمخابرات، الطرق المفتوحة أمامه
باستمرار. عادة ما يخصص لعمله بطرق أربعة أيام، أما بقية
أيام الأسبوع، فهي للقاهرة والإسكندرية حيث لا يستلزم
الأمر أكثر من خمس ساعات بإحدى سياراته الاسبور القوية،
هناك ينفق ببذخ على الهوايات المفضلة لدى أصحاب
النفط بشرق المتوسط، اجترع الخمر حتى الثمالة، وقضاء
الليل مع بنات الهوى، ينتقيهم من ذوات الثمن المرتفع،
وخاصة فاتنات الوسط الفني، وقد نشرت صورته في إحدى
أعداد مجلة الكواكب المصرية بجانب إحدى ممثلات
الجنس الشهيرات بمصر، وهي تنفي نيتها بالارتباط بثري
عربي لبي، وأن علاقتها به لا تتعدى حدود الصداقة، ورغمًا
عن هذه الحفاوة الجنسية كان يشاع بأنه شاذ جنسيًا، وعلى
علاقة بأحد سائقي الآليات السود الذين يكونون بكنية عبد...

قرب ميدان البركة تنحت سيارتان عن الركب، إحداهما بيان فيو 520، جلس بها أربعة ضباط، تتبعها الثانية أمريكية الطراز، تخب بين الأزقة والحواري المحيطة بالميدان، عند أحد الأبنية القديمة نزل علي جمعة، وخلفه رجل في الأربعين، طرقا باب المنزل، عادا حاملين صندوقين من الويسكي المهرب، ولفافة ضخمة في حجم اليد تلقاها أحد الملازمين متهلل الوجه، فتح غطاءها المصنوع من الورق المفضض بحذر، تشمها متصنعا الحنكة، قرب شارع جمال عبد الناصر لحقت السيارتان بالركب، هز رأسه موجها حديثه للآخرين: نشهد الله صنف ممتاز.

* * * *

بينما كان العرس لا يزال يخترق شوارع المدينة وصل عمر بوزوي فيلته بالفويهات، بادر أحد الموجودين بالسؤال إذا ما كان "الرائد" قد حضر. أجيب بالنفي، دخل القاعة التي رزحت ببقايا ظلال الغروب منتصبا، تنم قامته عن مهابة وسلطة شابة وسيماء القوة، تتدلى خصلات شعره الغزيرة على جبينه، تماوجت النسوة في اضطراب بهيج، شرعن يعدلن من أرديتهن اللائي اختفين خلفها من قمة الرأس حتى أخصم القدم، امتلأ الفضاء للحظات بعبق نظرات لامعة، وابتسامات عجولة، نعاج فاجأهن كبش قوي في موسم الخصاب، ألقى بالتحية واستدار يمد يده لكل من قريباته اللائي بقيت سافرات، سألهن عن أطفالهن وأزواجهن، بينما

عيناه تعانين أجسادهن بشهوة سافرة، عبر القاعة إلى طرقات
الفيلا المعتمة يبحث عن بعض أوراقه، وهو يهتف بأمه أن
تضيء النور، وبينما كانت تخبره أن المصريين يمدون الأضواء
لواجهة الفيلا والحديقة، بوغت بأرداف أنثوية تحتك به،
فانتصب مهتاجًا واستدار ليجد امرأة تنحي خلفه على
الأرض تتشاغل بمل حشية صغيرة، همس: منو؟

هتف صوت نسائي باسمه: عمر.

- نور.

أجابته المرأة الريانة التي تكبره بعشرة أعوام: نعم.

سأل وتساؤل يهتف **داخلة**: إيش جابك؟

أجابت في ضجر: العرس يا أخي... العرس.

فاستدرك وقد برق ذهنه فجأة: هيا... نبيك بالطابق
الأعلى.

غمغمت: النسوة بالقاعة.

قال بنفاد صبر: هيا بسرعة، قبل النور ما يجي.

بقيت صامته، قبض بكفه على ساعدها اللدن، ازداد
جفاف حلقه، دفعها إلى سلم مجاور للردهة: من هنا: ألقاك
غادي.

عبر القاعة؛ فتابعته النسوة بسرور، عندما توارى، أخذ ينضو ملبسه، وهو يصعد مسرعاً كي يلتقي بها في الطابق العلوي.

كان لقاءه السابق بها محض صدفة؛ فالثراء الذي حل على المجتمع الليبي بعد السبعينيات مكن عليه القوم وأثريائهم من قضاء عطلاتهم والاصطياف بالقاهرة وأوربا، وكان قد التقى مع زوجها في روما، مقاول من البيضاء، في الخامسة والستين من العمر، ومع ذئوع عادة قضاء العائلات الثرية إجازتهم في الخارج، اصطحب معه ابنتيه، مراهقتين في العشرين، وابناً في السادسة عشر، وزوجتيه الاثنتين: عجوزاً في الخامسة والخمسين وأم الفتاتين، والثانية في التاسعة والثلاثين، شهباء ممتلئة دون سمنة، لم يترهل جسدها مع رجل كف عن معاشرتها منذ زمن طويل، شعرها جدائل غزيرة تمتد خلفها طويلاً، وعيون شديدة السواد تسكن على بحر من الاضطراب العميق الذي تصنعه معاشرته رجل عجوز، وابن ينمو بسرعة، وحياة تمضي - مملّة تكتنفها البرودة.

في روما التي يزورها للمرة الأولى أصيب الشايب بالحيرة، وهمّ يحمله فوق رأسه من أربع إناث وفتى، لا يدري كيف يتصرف، وقد أحاط به الدجالون، كيف يأكل ومن أين يمكن أن تشتري النسوة بضائعهن، وكيف يمضي - وقته بمتعة، وأين يسهر، ولعابه يدفعه دفعاً مع كل آخر نهار أن يلقي بهم في

حجراتهم منذ غروب الشمس، لينطلق هو إلى حيث روما الحسنة.

وسط هذا الارتباك التقى بعمر صدفة في شوارع المدينة، فتمسك به، وقد وجد فيه ملاذه ومنفذه، وفي اليوم التالي التقت الأسرة بالضيف الذي عصفت شهرته بنغازي، استقبلوه في بهو الفندق، حضر الجميع، لم يتخلف منهم أحد، المرأتان محتشمتان، أما الفتاتان فمتبرجتان، سافراتا الوجوه والسواعد، على غير عادة أهل البلاد.

لم يكن وقته يتسع للزاهات العائلية، لكنه قدم لهم الكثير من خبرته بالمدينة، ينقلهم في سيارته المرسيديس إلى قلب الحي التجاري، ويرحل يقضي أعماله، حتى توثقت علاقته بهم، لحظتها تنبه الأب، فسارع لوضع استحكاماته حول الفتاتين، فلم يتركهم وعمر على انفراد قط، والفتى حارس لهم... شعرتا بضيق شديد، الأمر الذي جعل الرجل يشعر بالطمأنينة، فلم ينتبه، ولم يكن لينتبه إلى ما ينمو في الخفاء، وكيف والمرأة تكبره بعقد كامل، لكن عمر لم يكن ليعبأ، كان ينجذب نحوها بشدة، ولم تستطع أن تصمد أمام نظراته النفاذة التي كانت تحط عليها، تكتسحها مثل هجوم أمواج بحر عميق، ما كانت لتتيقن من رغبته فيها لولا عفته عن الفتاتين، وتحركاته التي أخفاها بشدة عن الجميع، ورسائله القليلة التي حملتها إليها كلمات عابرة ألقى بها أمام الجميع، تلك التي تهاوت أمامها دون مقاومة.

بعد ثلاثة أيام جرفها الشوق نحوه بشدة، لم يبق سوى أن يوجي لها بفكرة لقاءه، وفي صباح أحد الأيام تأخرت للحظات عنهم، ناداها قائلاً :

- راك اليوم تعبانة، وما تجيي معانا.

مرت برهة قبل أن تجيب: صحيح... رايني تعبانة واجد.

في اليوم التالي حيث اتفقوا على التنزه في حدائق حيوان روما، تخلفت ولم تأت متعلقة بالتعب الشديد، وبقيت في كنف أفكارها ومشاعرها المبهمة، تراودها أحلام اليقظة، تتلوى على الفراش، تتخيل قدومه بين الرجاء واليأس مما ظنته أوهاماً لن تتحقق، أمضت ساعتين في نوم مضطرب بين الخيبة واليأس، وكان قد اصطحبهم جميعاً في جولة طويلة، ابتاع لهم كميات ضخمة من المأكولات والمشروبات، قبل أن يتركهم على أبواب الحديقة عائداً.

وهي مستلقية على فراشها في غرفة الفندق الواسعة وظهرها للباب سمعت مقبض الباب يفتح، استدارت والنعاس يملكها ترى الطارق الذي اقتحم عليها المكان دون استئذان، وجدته هو، لحظتها تناست كل شيء وأصابتها البرودة، تجهم وجهها تسأله: إيش فيه؟

فأجاب وهو يخلع جاكته ويلقي بها إلى الفونيه الضخم: ما في شيء بوكل... توا إيش حالك؟
خير. وين راح العويلة...

قال يفك رباط عنقه: يباهتوا في الحيوانات، ما يعودون
قبل العشية، بعدك مريضة؟

قالت في إعياء واضطراب وهي تراه يستمر في خلع
ملابسه.

- نعم... لكن... لكن إيش تسوي هون... ليش ما ظليت
معاهم.

- مع من؟

- العويلة والشايب.

نامي يا حنا... راك تعبانه... هيا غمضي عينك ونامي توا.

استسلمت لحيلته أغمضت عينيها، وهي تلمحه يخلع
حذاءه ويلقي به جانبًا، مخاوف من الرعب ملأت كيائها
بالبرودة قبل أن يفعل ما كانت تعتقد أنه سوف يفعله،
سمعته يحدثها وهو ينضو عنها ملابسه :

- ليش ما عاد خير بين الناس، كيف أظل إمعاهم وأنت
هنا مريضة، نشهد الله حق علي لازم الواحد يظل هون بيش
إذا تريدي.

لم تجبه ببنت شفة، وإنما اختلج وجهها، شعرت بيده
تلامسها، ومنذ تلك اللحظة لم تردد وهي تقاومه برغبة
سوى عبارة "لا"، عندما بلغها بكت وهي تتركه يطويها
بدمائه الحارة بكاءً طويلًا قبل أن يتحول إلى فرح وضحك
خالص، عادها مرتين، وعندما رحل عن روما لم يكن يظن

بأنه سيلتقي بها ثانية، لكن ها هي «القحبة» تزحف على قدميها تريد أن تطفئ النار المشتعلة في أحشائها.

عبر ردهات وقاعات الطابق العلوي، بلغ الباب الخلفي الذي ستأتي منه، فتح الأقفال العديدة التي تعود تزك الباب مغلقاً بها، بهدوء ودون جلبه خرج إلى السلم، لم يجدها، هتف بصوت منخفض باسمها يبحث عنها، خطر له أن يصعد لأعلى، وهناك وجدها مكومة من الرعب بجوار خزان المياه العلوي، جذبها من يدها، همست ترجوه البقاء... هنا أمان يا عمر... زجرها بعنف فتبعته في صمت، وقد تداعى داخلها تحت ضغط يده، عبر الباب بحذر، أغلقه خلفه واستدار يضمها بقوة، تأوهت تهتف في الظلام :

- اتركني... لا... اتركني بالله عليك.

لعن النساء جميعاً في سره، وهو يجذبها وراءه إلى حيث غرفة مكتبه، أغلق الباب وأشعل مصباحاً صغيراً، وجّه ضوءه إلى الأرض يستكمل خلع ملابسه على عجل...

- هيا... عجلي... حلي نكة سروالك... ما في وقت بوقت بوكل...

وقفت حائرة، جذبها إليه فانصاعت، تحسسها يحاول شد تكتها، غمم في تعجب... بدونه... القحبة جاهزة إذن.

ودت لو تبكي وصدورها يعتصره فظاظته، طعنات ألفاظه، أن يكتشفوا غيابها، لكن خوفها ابتلعته الرغبة.

قامت والرعب مما قد يحدث بالطابق السفلي يطرد الخدر والنشوى والارتواء الذي امتلأت به. لحظات طويلة مرت قبل أن تتمكن من أن تلملم أعصابها، هبطت من الطريق الذي دلها إليه، وكان ركب العرس قد وصل منذ دقائق.

امرأتان فقط تنبهتا لما يحدث منذ هبوطهما، أمه التي توجه إليها هامسًا:

- مرأة بريك عيانة شوي فوق... ردي بالك عليها...

سمعتة زوجته دون أن يعلم، أجابت أمه بسذاجة: باهي يا ولدي... لم تنتبه في البداية لكن العجب أصابها... متى أصابها الإعياء، ومتى صعدت لأعلى، وكيف علم هو؟ امتلأت المرأتان بالشك، وعندما لمحاهما وهي تقف أعلى السلم، وامرأته تسألها... وين كانت؟ فهمت الأم مقصده وأسرعت إليها تستقبلها، وهي تردد على مسمع الجميع، كيف حالك؟ إنشا الله تكوني بخير.

نكست المرأة رأسها والعجوز تنقذها: عيانة شوي... بدي أرجع الحوش بتاعي.

قالت الأم وهي تأخذها إلى مكان منعزل تتفحصها: تريحي، جعمزي هنا.

كان الهياج المنبعث في المكان على أشده، والأضواء التي تلالأت بها الفيلا باهرة، وامتلأت القاعة بالأطفال والنسوة والفتيات تروح وتجيء في كل الأماكن، رويدًا رويدًا راح عنها

الخوف، وشعرت بأنها عبرت شاطئ الأمان، لقد انتهت مغامرتها دون أن يكتشفها أحد، تنفست الصعداء وهي تمني نفسها بلقاءات أخرى معه تحمل مباحج جديدة، عندما رفعت رأسها تتصفح في هدوء وجوه الحاضرين، وجدت عيوناً تحديق بها في قسوة واحتقار أفزعتها، حتى أن كلمة خير التي حاولت أن تلقي بها إليها حُبست في حلقها، حولت رأسها إلى الناحية الأخرى وهي تلهث، هتفت لنفسها... ثريا... تعلم كل شيء... عندما استدارت نحوها ثانية لم تجدها، كانت زوجة عمر بوزوي الشابة قد غادرت المكان على عجل...

جلست وحيدة لمدة دقائق قليلة، تعلت بتعبها ودعت ابنها ليقوم بتوصيلها إلى منزلها، وفي الطريق استعجلته؛ فأمامها ساعات طويلة سوف تجتر فيها أحزان أفراحها...

* * * *

الفصل الثالث

بين قاعات الفيلا الداخلية حيث اجتمعت النسوة،
وصالات الاستقبال الخارجية حيث جلس الرجال، وقف
عمر للحظة، كانت أعرق عائلات بنغازي ودرنة ضيوف
عرس أخيه، ومعهم كبار قادة وحدات الجيش بالمدينة
وكبار موظفيها بالمصالح الحكومية وشركات القطاع العام،
وأصحاب شركات التجارة والمقاولات، حيّا الجميع بترحاب،
وبينهم كان زوج المرأة التي كان يضاجعها منذ قليل، وعلى
مقعد وثير جلس وهو يعلم المكانة الاجتماعية الفائقة التي
له في شرق البلاد، والتي جعلته واحدًا من ثلاثة يسيطرون
على مقادير هذا العملاق الهائل، الذي يقوم الجيش ببنائه
من معسكرات ومنشآت عسكرية على طول الساحل الشمالي
للبلاد وامتداد عمقها الصحراوي.

كيف تم هذا؟ وكيف جاء الزمن بكل هذه التحولات، وقد
أصبحت المؤسسة التي شرع في بنائها منذ خمس سنوات
فقط عملاقًا يقدر رأس مالها بملايين الدينارات، في بعض
الأحيان يشعر بأنه لا يستطيع السيطرة عليها كما يجب، وقد
بدا له أن خللاً قد حل في الإدارة، كل الجالسين هنا تصيبهم
هذه الكلمة بالفرع... الجميع بلا استثناء، حتى موظفي
الدولة الذين يطمعون يومًا في أن يرثوا ممتلكاتنا، لمح امرأته
تحادث أبها الذي ارتسمت على وجهه ملامح التجهم، بدا
حديث الأب إلى زوجته تلوح به ملامح القسوة، ابتعد عمر
بصره عن حميه، ثم عاد بصرهما ليلتقي، كانت عينا حمية
ملغمتين بحقد سارع بإخفائه لتحل محله ابتسامة صفراء،

تبادلا التحية وانفصل بصر- كل منهما عن الآخر، لكن
تحيتهم لم تخفي ما يبطنه كل منهما للآخر، وهلة ورحلت
عن عمر مشاعر السرور وذهنه يغوص في الظلام.

منذ سبع سنوات دخل المدينة شاب يافع لم يتعد
العشرين، كان قد أمضى- حياته في القبة ودرنة بين التكسح
والدراسة التي مني فيها بالفشل عامًا بعد عام، وانتهى به
الأمر بالفصل من المدرسة، واضطربت أحواله مع أبيه الذي
ود لو يخضعه لخططه، ويجبره على العمل معه، وإدارة
الكسارة الوحيدة التي كانت تطعم درنة والبيضاء بمواد البناء
لكنه رفض، كان يطمع أن يكون طيارًا، وعندما تقدم
للاتحاق بسلاح الطيران الملكي رفض طلبه، فسافر إلى لندن
والتحق بأحد معاهد الطيران التجاري، لكنه عاد بعد ستة
أشهر دون أن يصيب من النجاح سوى غزواته الجنسية في
حانات أوروبا ومراقصها، ولفترة ليست بالقصيرة داهمه
إحباط قوي تجاه قدراته، كان يعلم أنه سوف يفعل شيئًا،
شراً... خيرًا لم يكن ليهتم، وفي أحد الأيام التقى بمدرسه
القديم الذي دعاه لشقته بدرنة، كان أحد معلمي بعثة
التدريس المصرية؛ رجلًا قوي الشخصية في الأربعين من
عمره سأله:

- قل لي... ماذا فعلت منذ تركت المدرسة؟

- والله يا أستاذي إيش نقول... كساد... والله نعيش في
كساد.

- يا عمر، عندك قدرات وطاقة، تهدرها بطيش ونزق.

- ندري والله يا أستاذ... أنا نبي نعاود للدراسة.

- في سنين قليلة بلادكم ح تكون غنية، النفط ح يفيض بالعجائب، لا تجعل هذه الأيام تأتي وأنت لا حرفة ولا شهادة ولا مهنة، أنت ذكي، لا تدع الحياة تبتلعك.

لم تمض أيام إلا والتقى بصديقه مفتاح الشهيبي، وقد أصبح ملازمًا بعد تخرجه في الكلية الحربية، ودَّ لأول مرة في حياته لو يختفي ولا يلقاه، كان يرى العالم يتقدم وهو بعد يتمسك بالأعيب المراهقة، يومها لاحظ صديقه ملامح التبرم على وجهه، قال:

لن تستطيع أن تفعل شيئًا هنا أو في درنة... تعال بنغازي، الخير واجد.

لم تكن بنغازي قد شهدت كل هذا التوسع العمراني الضخم، أو البنايات الشاهقة، التي صنعت واجهاتها من الألمونيوم والزجاج الملون السميك، لم تكن هناك تلك الطرقات المعبدة، ولا ثمة شبكات للمياه والصرف، بل أحياء من بيوت التنك تسكنها العائلات الفقيرة جنبًا إلى جنب مع حيواناتهم، لا تقيهم برد الشتاء وأمطاره الغزيرة، ولا حر الصيف وشمسه الملتهبة، وقد امتلأت الطرقات والأزقة الضيقة ببقايا مياه الصرف العفنة، تجمعت عليها جحافل الذباب والحشرات والهوام الضارة.

كانت الطرقات الضيقة الترابية تمتد في المدينة كقنوات المياه القليلة الغور، وقد تلاصقت حولها بنايات صغيرة من طابق واحد تسمى أحواش. يتكون كل حوش من مربوعة في مقدمة الدار، ثم باحة مكشوفة تغطي في الشتاء، على أحد جوانبها صنوبر مياه، أمامه حوض من الحجر القديم، وفي الخلف صف من الحجرات على ممر صغير مسقوف، مطلية بأحد اللونين، الأصفر أو الأبيض، وعندما سار عمر في شوارعها صباحاً. كانت النوافذ مغلقة بإحكام، وعلى عديد من الأبواب تدلت أقفال سميكة تقول: هنا امرأة شابة أو نساء هجالات⁽⁴⁾ أرامل ومطلقات، عانى عمر يوماً من صعوبة استئجار حوشاً يسكن به، كان عادة ما يواجهه بسؤال: اشكيلي⁽⁵⁾؟ سامحني يا أخي، لا أعطي حوشاً لاشكيلي، نبي متزوج.

وأخيراً عثر على حوش في أحد الشوارع الضيقة المتفرعة من شارع عمرو بن العاص، بعدها خرج يبحث عن عمل، وجد عملاً مكتبياً لدى أحد المقاولين الذين يعملون في خدمة شركات النفط الأمريكية، حيث كان يبقى طيلة يومه بحجرة مكتب صغيرة، يجري حسابات المقاولين ويستقبل زائريه، وفي المساء يقدم له كل أحداث يومه، من حسابات وتسديد فواتير وتعاملات مع المصارف ورواتب العمال، على

⁴ (امرأة هجالة: امرأة مطلقة أو أرمل (لهجة ليبية).

⁵ (اشكيلي: رجل أعزب (لهجة ليبية).

أنه لم يتحمس لعمله قط، بل كان يعاني من استياء و غضب شديدين، وما كان ليعتقد أنه سينتهي لحمل حقيبة آخر، وخاصة بعد أن هاله حجم الأموال التي تنتقل بين يدي المصرف والمقاول وشركة النفط، ويوم حمل في حقيبته عشرة آلاف دينار أحس بثقل شديد في ذراعه، وشعور بالسعادة العارمة لكل هذه النقود التي لم تكن له، وعاد الملل ثانية، حيث كان موقنا بتفاهة ما يقوم به، ولكنه كان يواصل عمله وهو يمني نفسه بانتظار شيء ما.

في الظهيرة يؤوب إلى حوشه ثم يعود ثانية إلى عمله في الخامسة، دون أن يتخلى عن أناقته قط، كان وسيمًا، في ملامحه جمال ورجولة، وعندما يعبر الشارع في الصباح الباكر في بزته وقمصانه التي انتقاها بدقة أثناء وجوده بلندن، كان يشعر بعيون عميقة تراقبه من خلف شراعات النوافذ المغلقة، ومن فرجات الأبواب التي أغلق عليها من الخارج، يشعر بالطريق الضيقة وقد امتلأ هواؤها بسحابات داكنة تشتعل على حوافها جمرات النار، رغبات حبيسة تنبعث من نساء سجينات لا ترى بشرتهن الشمس، فيود لو طالهن جميعًا. وعلى النواصي حيث كانت شلل المراهقين والصبية وقد حولهم الفراغ إلى وحوش صغيرة تثرثر وتتصايح، يعلو ضجيجها ساعات طويلة حتى يأتي الليل، فينطلقوا إلى الحانات ليعبوا من الخمر، ويأتي الصباح والعديد منهم بين أحضان العاهرات...

في المساء كان يذهب هو الآخر إلى كازينو الشجرة حيث يلتقي بأصدقائه فيعاقروا الخمر، حتى ينطلق الإعصار الكامن داخله من عقاله، فينطلق يسب ويصرخ ويطيح بمن يتحداه، كانت النسوة ترهب ثورته وتحن لفتوته، أما الرجال فكانوا يهرعون لخدمته، فقد كان ينفق لآخر فلس بمحفظة نقوده، الأمسيات التي كان يقضيها دون صخب وسكر، تلك التي يمضيها مع الملازم مفتاح، يتبادلان الحديث طويلا عن النساء والملك والأجانب والنفط القادم وحياة عمر التي تبعث على السأم.

لم يمض وقت طويل حتى اهتزت حياته الراكدة، ففي أحد الأيام خلت الشوارع من المارة، وتجمع المئات لرؤية الموكب الملكي، وقف يشاهد رجال الحرس في دراجاتهم النارية، ويستمتع لأصوات صفارات عربات الشرطة، لكن الملل غلب عليه ويمم عائدا شطر حوشه مخترقا الشوارع الجانبية الهادئة في يوم ربيعي خيمت فيه شمس الصباح على الطرقات، وأزاح هواء البحر المنعش عن المدينة الهادئة رياح الصحراء القاحلة، وفي أول شارعه أصابه الاضطراب، فعلى بعد مائة متر لمح وجهًا أنثويًا يطل من نافذة وورب جناحها في ميل خفيف، غذا السير حثيثا، وعندما اقترب لمح خيالها يطل من خلف الشارع، حدق بها في ابتهاج وصلافة، تبين بصعوبة عيون تحدق فيه كلبوة، ارتفع وجيب قلبه، وقبل أن يبلغ منزلها بأمتار قليلة انفتحت الشراعة عن آخرها، وبرز وجه امرأة في الثالثة والثلاثين، تتكى

بساعدتها على النافذة، وقد ارتخى حول كتفها الرداء مبرزاً صدرها مكتنزاً، عيون عميقة السواد، وجيد طويل أملس كعنق ثور قوي، تحيط به أرتال الذهب، وقد التف منديل قرمزي على رأسها تدلت منه خصلات شعر فاحم السواد، لم يرفع عينيه عنها، كلما التفت إلى الوراء وجدها لم تحد عن متابعتة، وعندما بلغ حوشه جن جنونه، خرج ثانية، وجدها ما تزال هناك، ألقى عليها بالتحية في عجلة فلم تجبه سوى نظراتها.

أصابه الجنون، كان يلمحها طوال نوبات ذهابه وإيابه إلى العمل وكأنها تنتظر ميعاده، فيبقى طوال يومه يفكر فيها، وجهها لا يبارح مخيلته، يندفع في أحلام يقظته مفتشاً عن وسيلة تمكنه من الوصول إليها، وكيف يمكنه الحديث إليها، أسئلة جهنمية طرقت أعوامه العشرين بعنف، كانت علاقاته السابقة مع فتيات الحي بالقبة لا تزيد عن نظرات هوى متيمة من عيون لا يستطيع الاقتراب منها، وصفعات وركلات ينالها وهو يطارد الفتيات في حفلات العرس، أو قبلات يخطفها أثناء التكالب على موارد المياه، أما الآن فهذه المرأة لا تجعله يعرف للنوم سبيلاً.

في ليلة خرج في الثالثة صباحاً، يسير الطريق ملتفعا بالظلمة مستترا بالحوائط الواطئة، وعند نافذتها تشجع وقذف بحصاة صغيرة، ولم يجد إجابة، فأعاد الكرة وسارع يختبئ بزقاق جانبي، وانتظر طويلاً حتى أصابه اليأس، هتف

لنفسه ساخرا... يا غبي، إنهم ينامون بالداخل، لم يستطع النوم، فصعد إلى سطح حوشه يقيس المسافة الواقعة بين حوشه وحوشها، وكان عليه أن يعبر سبعة أحواش كي يصل إليها، وود لو يفعل، ولكن ماذا لو كانت ترقد بين أحضان زوجها؟ خطر له بارق نفذه على الفور، وعند نافذتها دفع بمنديله حتى تأكد من سقوطه بالداخل، ثم عاد إلى فراشه وبه شجن من أمضى يومه مع حبيبته دون أن ينالها.

في الصباح كانت تقف خلف النافذة تعبت بمنديله، عندما لم يلمح أحد من المارة، عبر الشارع وألقى إليها بالتحية... خير... وعقب مسرعا... الليلة الساعة «ثلاثة بالليل»... عندما تركها تيقن أنها لم تسمعه، لكنه خرج في الثانية ليلاً وألقى في نافذتها بمنديل آخر، وانتظر مدة طويلة قبل أن يعود مهزوماً، ألح عليه خاطر بالخروج باكراً، وفي الخامسة والنصف صباحاً اضطرب قلبه، هاهي النافذة تفتح، وتطل المرأة سافرة الوجه، تعثرت خطواته، وود لو يعود ثانية لكنه توجه نحوها في ثبات قال في صوت متردد، لا يدري رد فعلها: خير يا حنا.

فوجئ بها تسأله هذه المرة: خير... مندليك هذا...

اعترف مثل متهم: نعم.

- شنو تبي يا ولدي؟

همس لنفسه... وماذا تظنين... قال: خير يا حنا... نبي نتحدث شوي.

- تدور في هرجه ولا تبى تدهور.

أجاب مناورا وضيق الوقت يستحثه:

تدري يا حنا أنا يتيم، أمي ماتت وأنا بعد رضيع... نبي نتريح شوي.

لمعت عيناها بالابتسام لمكره، وهي تقيسه بعينيها في جراحة وقحة، خفض رأسه في خجل، شعرته فتى يافعا: تدور في أمك؟

- وإيش فيه يا حنا، أنا نجيك اليوم بالليل.

أجابته برعب، وقد باغتتها المفاجأة: كيف تجي؟

- نعدي الأحواش هاذي من السطح.

أجابت في حسم: لا.

هتف بها: نوا كيف نجيك، دليبي أنت بالله عليك.

قالت وهي تغلق النافذة: عدي يا ولدي.

استدار ثائرا وهي تغلق النافذة في وجهه، رحل إلى أول الشارع ثم عاد ثانية ممتلئا بالسخط، أمام حوشها وقف، فتحت النافذة قليلا، وجاءه صوتها خافتا:

- شنو اسمك؟

أجابها بسخط أجمها: وإيش تسوي باسمي...

عندما لمح الصدمة على وجهها قال: عمر.

قالت وهي تغلق النافذة: مع السلامة يا عمر.

أثلجه ترديدها لاسمه، على أن أيامًا طويلة مرت دون أن يلمحها، فأصابته الدهشة، حتى لمح نافذتها تفتح ثانية، انتظر حتى مجيء الليل، وفي الرابعة صباحا قذف النافذة بحصاة، خرجت إليه فعاجلها بالتحية، همس: خير... وين كنت؟

- خير عمر. كنت بالبوادي.

- مشتاق لك. كيف نجيك؟ ابتسمت...

قال: ليش تخافي، أنا ما ندير معاك شيء.

- وين تعمل؟

- عند صالح الفرجاني... نبي نجيك؟

- وليش؟

- بيش نتحدث.

- وأنت ما تتحدث معي توا؟

نظر إليها بغضب وأطرق ساكنًا وقد حلت عليه غربة باردة. فكر أن يرحل، دق الأرض بقدميه وأعطاها ظهره، فهتمت وقبل أن تشرع في إغلاق النافذة باغتها:

- باهي أنا معدي الحوش بتاعي. تشاو. هتفت:

عمر... تدري شارع البرار... خلف شارعنا.

لمعت عيناه وهمس: أدري.

- ترى فيه حوش (مسكر)⁽⁶⁾ مهجور خلف حوشنا...

عاجلها في فرح ورعونة: الليلة نجيك... تنتظريني... باهي يا
حنا... تشاو.

في الظهيرة عاين المكان بنظراته، وأصيب بالحيرة فقد
وجد حوشين مغلقين بقفل كبير، استاء وأخذ يصب لعناته
عليها، أخذ يجهد فكره وفي المساء عرج على حانوت مجاور
صغير..:

نبي نكري حوش.

ما في حوش خال.

تردد قليلا ثم سأله: بالله الصحاب خبروني... وأشار
ناحية الحوشين.

قال الشايب: حوش مهجور والآخر أصحابه بالبوادي.

عاجله بالسؤال: وين المهجور هذكا هي... أنا نشترى فيه؟

أشار إلى البعيد، قال: تدري وين صاحبه؟

- والله ما يعيش هنا.

⁽⁶⁾ مسكر: مغلق.

- باهي يا حاج، السلام عليكم.

على الأضواء القليلة المتناثرة ترصد الطريق، وفي الواحدة ليلاً تقدم ناحية الحوش المهجور، بعثة حديدية اقتحم الباب دون ضوضاء، اندفع إلى الداخل، أشعل عود ثقاب بحثاً عن السلم، تدافعت من حوله فئران وحشرات ضالة، عبر المربوعة إلى بابها الداخلي وجده مغلقاً، جذب الترياس العلوي والسفلي وضغط عليه عنوة فانفتح على مصراعيه، كان الحوش تضيئه النجوم، جال ببصره وجد السلم خلف باب صغير مغلق، استشاط غيظاً، عاجله والعرق يغمره، على السطح كان حوشها هناك يفصل بينهما حوش جانبي وسور أطل عليه، كان الضوء ينبعث من الحجرات الجانبية، تسلل زاحفا متحاشياً أن يحدث ضوضاء، بحث عن شيء يعتلي به السور حتى وجد قطعة خشبية أسندها إلى الحائط، دفع نفسه فتعلقت يده بحافة السور فانكشف سطح حوشها أمامه، باغته خاطر أجمه من الرعب، ماذا عن زوجها... أصابه التردد، وودَّ لو يعود، ترامى إليه نباح الكلاب الضالة، وأزيز الحشرات، أطفئ نور النافذة المجاورة فتهالك، سمع وجيب قلبه، أجال بصره، كانت السماء داكنة فوق المدينة، وبيوت بنغازي غارقة في الظلام، تشجع قافزا فسَمِعَ لصوت قدميه دبيب قوي، تيقن من أنه لموظف أهل الحوش والأحواش المجاورة، وأنه هالك لا محالة، قبع على الأرض ساكناً. مدة طويلة مضت قبل أن يسمع صوتها يهمس باسمه.

- عمر. عمر. !

لم يجب فتردد الهمس ثانية، وصوته ينحبس في حلقة،
حتى كادت المرأة أن تعود يأساً، أخيراً أجاب:

- أنا هنا.

اتجهت لمصدر الصوت، كان قابلاً خلف خزان حديدي
للمياه، والعرق يغمر جسده. برز شبحها في الظلام معتماً،
كان معقود اللسان وقد هربت مشاعره بعيداً، شعرت برعبه،
همست:

- من وين جئت... من حوشك!؟.

- من الخلف.

أرتفع صوتها في دهشة عارمة: كيف دخلت؟

أبرز لها أدواته الحديدية فعنفته صارخة: كسرت الباب؟.
تنبهت لعلو صوتها، والرعب الذي أمسك بتلابيبه، همست:
كنت سأعطيك المفتاح.

- معاك المفتاح؟

نعم، لو انتظرت كنت أعطيتك إياه... راك باهت فيك
حدا؟. هيا تعال.

تنفس الصعداء وهو يتبعها لأسفل هابطاً السلم، اختفت
من أمامه، لمح في أحد الأركان أوإني نحاسية ضخمة،
وصنوبراً للمياه على يمين المربوعة ومدخل الحوش، وعلى

اليسار صف من الحجرات، وقد انبعث من أحدها ضوء كإبي لمصباح غازي صغير. توجه إليه، دفع الباب، كانت تقف في منتصف الحجرة يتراقص الضوء الباهت على وجهها، وقد أسدلت شلالات شعرها المجعد الحالك السواد، متشحة بردائها على السروال، وقف لا ينبس بكلمة. همست:

تعال... تراتي مثل أمك؟

همس: نعم... وينه زوجك؟

- بالبوادي... تمدد هنا.

جلس القرفصاء فجلست بجانبه، جذبت رأسه إليها فانصاع لها وهي تهمس: تريح هنا.

وضعت رأسه على فخذها، كاد أن ينام، تمددت بجواره، تنبه فالتصق بها، اندفعت الدماء الحارة في عروقه فأخذ يهاجمها وقاومته، وكلما قاومته ازداد شراسة، ألقت إليه بسهمها الأخير، كان على وشك أن يلجها عندما همست بغنج:

تفعل هيك بالعجوز؟!

طعنته الكلمة بقسوة، لم يأبه بها واستمر يضاجعها، ولكن هذه الكلمة ظلت تؤرقه طويلا فيما بعد، لم لم يصفعها وبعنف؟ لقد استجابت مثل داعرة، كلبة ضالة، وظلت تدعوه بعدها طويلا، وهو عاف عنها حتى قرر الرحيل من المكان، يقاوم رغبة في الثأر لإهانتها له.

* * * *

الفصل الرابع

بلغت الساعة السابعة، رحل رجال المال المهمون، فلم يكن وقتهم يتسع لأكثر من التحايا، أما موظفو الحكومة ورجال الجيش وأصدقاء وأقارب الأسرتين فقد توجهوا لتناول العشاء... عبر عمر الساحة الأمامية للفيلا متجهًا إلى حيث جلس أخوه ناصر، بدا تائها حيث استقبله بفتور، هتف به مشجعًا في فظاظة تألم لها أخوه: تشجع يا رجل... ليش لونك أصفر هك، تحارب في إسرائيل؟ مره هي مو وحش.

أجاب ناصر في خفوت وهو يتمنى لو يرحل عنه: ما في شيء.

في هذه الآونة تهادت عربة شيفرولية بيضاء أثارت في الحاضرين موجة من الحركة، اندفع حميدة نحو أخيه هاتفًا: الرائد مفتاح حضر...

قال عمر في اهتمام بالغ: حضر؟

- نعم.

- وینه توال(7)؟

- بالخارج.

اندفع عمر وخلفه حميدة، تابعهما ونيس بدهشة يشوبها
ازدراء... ها هي قوتك يا عمر تجد من يخضعها. حيا عمر
ضيفه في ترحاب شديد، تلقاه الرائد الذي جاء مرتديا
ملابسه المدنية بألفة ومودة بسيطة... صعدا غرفة مكتبه
ومعهم قليل من الخاصة، وقف علي جمعة يخدمهم: مبروك
العرس.

- إيه، الله يبارك فيك شنو يفيدنا، توال القواد يخيط
القبحة وإحنا نعوم في المرق.

ضحك الرائد بشدة: تبي(8) كل شيء يا عمر... كل شيء
تبيه...

- شنو...؟ التيس متهيب، وجهه أحمر كيف العذراء،
إيش كان يدير في أمريكا، والله أنا ظليت في لندن كل يوم
بمرة. وكل واحدة كيف البدر المصبي في السما... حتى

(7) توال: الآن. (لهجة ليبية).

(8) تبي: نريد. (لهجة ليبية).

عروسته القردة تصبي على كراعيها، وجها مثل اللي داخل جهنم.

نظر حميدة إلى أخيه الأكبر في سخط، وقد عصفت به الاستهانة والقحة وكمية الإهانات التي يوجهها إلى أخيه وعروسه التي سوف تصبح عما قليل واحدة من الأسرة، لمحہ الرائد، قال مخففا عن حميدة وموجها حديثه إلى عمر: متهيئين يا عمر... هذا شباب صغير.

- أيوه... باهي... يا سيادة الرائد. لكن أولاد هادي الأيام ما يديروا كيف ما درنا، أنا والله كنا ننام مع المرة والتيس جوزها يشخر كيف البغل...

ألقي حميدة بما في يده ساخطًا، ترك القاعة باستياء لم يلحظه عمر.

مضى- الحديث على هذه الشاكلة، وجرى تجهيز الأدبة، انتقلوا إليها، صعد حميدة ثانية لخدمة الضيوف الذين أكلوا بشهية، في بار صغير أخرج علي جمعة زجاجات الويسكي، فأنهى الرجلان طعامهما، تركوا المائدة وعليها الرائد وعمر، سأل الرائد: أخبارك شنو.

أجاب عمر بحبور: كنت في روما الشهر الماضي، تعاقدت على مصنع آلي حديث لصنع الكاشيك؟

- متى ستحضره؟

- ثلاثة أشهر.

- أنهيت العقد؟

- توا نساfer بعد أسبوعين.

- اديش ثمنه؟

- ربع مليون دينار، مصنع مركزي، إذا بنيته بجوار محاجر
المرج على الطريق الساحلي قرب الشاطيء، ما تكلفنا المواد
نقل بوكل، نغرق السوق في الأول، وين ما يعلن الأوغاد
إفلاسهم. نحتكر السوق كله.

تغضن وجه الرائد في ضيق وحقق في وجه بوزوي، شعر
بذلك فتوقف عن الحديث... سأله:

- في شيء؟

- ما تهتم بهذه الصفقة.

أخذ عمر وظهرت عليه الصدمة، شعر الآخرون بالجو
الذي خيم على الرجلين، فران الصمت على القاعة كلها،
وتوجهت إليهم أنظار الرجال، قام الرائد محدثاً ضجيجا
يكسر به الصمت، تبادل النكات مع الآخرين، ثم تناول قليلاً
من الفاكهة، هتف صوت من أسفل وكان جمعة قريباً من
الباب. أطل من فرجة الباب، كانت صديقة تنادي حميدة،
استدار يهتف به:

- حميدة... بيوك غادي.

- منو؟

- أختك.

تساءل عمر: إيش تريد؟ أجاب علي جمعه: ونيس يي حميدة...

قال عمر غاضبًا: وليس ما ييجي؟ سارع حميدة قائلاً: أنا نعدي غادي.

خرج من فوره وعمر يشيعه بنظراته، جرع كأسه مرة واحدة: حميدة متعلق بونيس وشهادات أوربا... عيناه تضيء بهما... كم تساوي شهادة ونيس يا حميدة... لا شيء... حتى ولو كانت من أمريكا... مائتي دينار راتب الشهر... حتى ناصر أعطيته أنا كيلو جراما من الذهب ثمننا للبن أم عروسه... لم تسعفه شهادته التي أحضرها معه من أمريكا كي يدفع لكنته ثمن إطعامها لبقرتها التي سيتزوج بها اليوم... والتي ستبكي الليلة بيش تنزف دم... حدق في الفراغ يتساءل، ليش يحب حميدة ونيس، ليش يبعد عني هو وونيس، يواجهوني كيف حرب القطوس؟ بيش إحنا أشقاء من الأب فقط! مستحيل... هذا مستحيل... إنه النجاح الذي أملكه الآن... بالماضي كان الشايب يدعوني أفضل أبنائه، ولو بقيت معه لتحقق ظنه، ولكنك أقف على عتبة شهادة كل منهم النظيفة، أطرق الباب قبل أن أدخل، حتى لا تتسخ الأرضية بحذائي المملوء بتراب كسارته... اليوم يتضح كل شيء... ها هو كل منا يستقيم ويستقر... وييجي ناصر كي يخطب ويتزوج وأسمى يسبقه عند أهل عروسه... حتى عروسه

تأكلها الغيرة والتعاسة، تتمنى لو أكون أنا... أنا عمر بوزوي عريستها... وسوف يطرق ونيس باب مكتبي في رقة وأدب، وقد تخلى عن غلوائه وانطفأ بريق عينيه، جامعا يديه على صدره راجيا أن أتقدم لأخطب له فحبة أخرى من أكبر عائلات الشرق، تماما كما كان يفعل وهو صغير... وحميدة ترك القبة ويسكن عندي الآن... وحتى الشايب والعجوز لم يعودا يفعلان شيئا دون رأيي... الآن تستقيم الأمور... أليس كذلك يا ونيس ؟

ضع حجرا على هذه الفوهة... عجل... والأخرى... هذه... لا... لا تلك التي بجوار الشجرة... عجل يا تيس... والآن أحضر- عود الحطب من النيران... أطفئه... وجه الدخان للمدخل المجاور لك... هيا أسرع يا قواد.

- لا تسب وإلا ألقيته بوجهك...

- سأكسر- أنفك يوما... توا هيا... أخرج من جحرك لحما شهيا. هيا... ها هو.

ألقي عمر بحجر ثقيل على رأس الأرنب البري، فأصابه بكسر- في قدمه الخلفية، جرى الأرنب مرتعدا، وعمر خلفه، اتجه أخوه الأصغر ونيس ناحية الطريق الساحلية الرئيسية يجمع بعض الأغنام التي تفرقت بحثا عن الكلاء، تمدد على حافة الطريق بعيدا عن الحطب الذي أشعلاه لتناول طعام الغداء، غط في نوم عميق، عاد عمر وقد تدلى الأرنب من

أذنيه بين يديه، أخرج سكينًا، وضع جسده بين قدميه
يذبجه، سلخه، دقائق حتى تصاعدت رائحة اللحم المشوي.

- هيا ما تريد الطعام؟

- اترك لي نصفه.

- ما أترك شيئًا... تعال وخذ نصيبك تـو... كـنـك مـو جـائـع؟

اقترب ونيس متأففا وهو يمني بطنه بالطعام، وجد عمر قد التهم
نصف الأرنب ووضع النصف الآخر بين ثنيتي الخبز يواصل التهامه،
دفعه بعنف فانزاح عمر جانبا وسقط اللحم على الأرض، مال
مسرعا لكن عمر قذف اللحم بقدميه بعيدا، وهو يضحك في
هستيريا، أسرع ناحيته يدوس عليه ثم عاد سعيدا يسأل ونيس
الذي جلس القرفصاء يحدق في النيران صامتا:

نبي الشاي، مو شبعت بعد... كان لحما طيبا.

لم يجبه... قام مبتعدا نحو الطريق في غضب، بقي عمر
يصنع الشاي في علبة مستعملة للأكل المحفوظ. عبرت
الطريق سيارة شرطة تطلق صفارة الإنذار، تنبه لها الأخوان،
تبعتها أخرى، ودوي هدير محركات الدراجات الآلية، برزت
في الملكي... الموكب الملكي... عمر... الملك إدريس.

أشاح عمر وجهه معطيا ظهره للطريق والموكب الملكي،
متشاغلا بالتحديق في طابور من النمل يسد عليه الطريق
بعضا صغيرة، كلما اقترب الركب قتل أعدادا متزايدة من
النمل، اضطرب طابور النمل وأصابه الهرج، وونيس يقف

على الطريق يهلهل بساعديه، لمح الملك العجوز جالسا في إحدى السيارات الفارهة، ينظر الجبل من فرجة الستائر المسدلة، تابع عمر خفوت أصوات الركب، عاد لهضاب الجبل الأخضر- المترامية الأطراف السكون، تمطى وحقق في السماء قائلا لنفسه... كم هي بعيدة...

عبرت من أمامه كلبة، وخلفها كلاب تعوي، بحث عن شيء يشعل به سيجارته اللف، مدَّ يده إلى كتاب ونيس الذي يدرس فيه الألمانية، قطعه دون مبالاة مشعلا فيه النيران، قام بتثاقل يتابع أصوات الصبية الصغار تأتي من بيوت التنك القريبة، وجدهم متحلقين حول كلب امتطى كلبة، يطاردونهم ويلقونهم بالحجارة، تصاعد عواء الكلبين من شدة الألم والرعب، لا يستطيع أن يتخلص أحدهم من الآخر... دفع عمر الصبية بعيدا، اقترب وئيدا، وفي يده عود من الحطب المشتعل، دفعه إلى مؤخراتيهما، عوى الكلبان ورائحة الشواء تنبعث منهما، كسرا عن أنيابهما وقد تخلص كل منهم من الآخر... هاجمه الكلب ينهش ساقه، لولا ونيس عاجله بحجر دفعه بعيدا، تراجع عمر ليسقط على ظهره، قام ينفض الغبار والأوحال التي علقت به، وقد تمزق سرواله، ابتعد ونيس ساخطا يهمس في سره.... الحيوان.

مالت الشمس إلى المغيب، قاد ونيس قافلة الأغنام عائدا إلى القبة، وعمر يتشاغل من حوله، يجذب غصن شجرة

ينظفه عن أوراقه ثم يضرب به ما يقابله، داهسا في طريقه زهورا وحشرات الطبيعة الصغيرة.

* * * *

بين غلائل الليل ترقد القبة بين التلال الوسطى للجبل الأخضر، أكواخ وأعشاش من الزنك والصفيح وبيوت حجرية قليلة، يتصاعد من دروبها نباح الكلاب، وعلى الأطراف تناثرت خيام البدو وقبائل الرعاة.

امتلأت الأراضي والطرق بأحوال الشتاء، وانتشر البرد القارس، تضرب التنك شدة الرياح، تخبو بخجل الأضواء الخافتة لمصابيح الغاز، وأمام الدور تحلق الرجال حول النار، يشربون الشاي الأسود والقهوة العربية ويدخنون السجائر اللف.

دلف القطيع إلى القرية، خرجت عائشة والمرأتان العجوزان يستقبلن العائدين من رحلة الرعي اليومية، تتفحص المرأتان بأيدي خبيرة كل عنزة حامل، تجسها وتعددها عائشة لتتأكد من عودتها سليمة، اندفع عمر إلى الداخل يلتهم المكرونة، ناوأه أخوه الأصغر حميدة، دفعه بكوعه على ظهره، فسقط يبكي في صراخ وعويل.

جلس الأب الحاج مفتاح صامتا، ينظر إلى أبنائه، يفكر في المشاجرات التي يبثها عمر حوله، وذهنه مشغول بالمخاطر التي تحيق باللوري الذي يملكه، والقادم من كسارته بدرنة،

والتي قد تحول دون وصوله، وكلما مضى الوقت قام إلى الخارج ينظر الأمطار والأحوال والسماء الملبدة بالغيوم، يخترق الظلام ويطلق أذنيه، عله يلمح مصابيح السيارة، أو يسمع صوت محركها، وعندما لا يجد شيئاً يعود مجهداً إلى الداخل.

قالت العجوز: كبدي يا ناصر يا ولدي... إيش تسوي في البرد هذا؟

قال الأب: تركته مع علي غادي يحملان اللوري في الظهيرة... إيش أخرهم؟

- ما تصبر لباكر، بيش يخرجوا في الصباح.

- لا تنوحي كيف القطوس... هسه يجن بإذن الله.

تظن العجوز أن قلب الرجل قد من الحجر، تظن أنه لا يجزع على ابنه أو السائق، قدر لهفته على وصول اللوري سليماً، توكأ على عصاه وخرج، عاد ثانية خائب الرجاء، غفي مرتين قبل أن يسود الهرج الحوش، والشاحنة تقف بالباب، فقام مسرعاً يسألهم سبب التأخير، أجب علي:

قتلنا حماراً بالطريق، كاد أصحابه يقتلوننا.

صاح: وليش ما تفتح عينيك على الطريق... سكران ولا شارب حشيشة؟!

- لا هيك ولا هيك. خرج علينا يجري ونحن بمنحني، لو تفاديته خسرت سيارتك وابنك، وخسرت روجي.

- باهي باهي... هيا عدوا فرغوا السيارة.

- باكر يا حاج.

- توا فرغ السيارة بيش تعدي بنغازي باكر نجيب عمال
بيش يساعدوكم.

تسلل عمر مبتعدا عبر الطرقات الموحلة، ميمّمًا شطر
أصدقائه تاركًا العائلة تفرغ الشاحنة دون مساعدته، بلغ
حوش الحاج إدريس الطشاني حيث الرجال تحلقوا
بالمربوعة حول مصباح غاز شديد الإضاءة، بينهم شباب،
حيّ عمر المجلس وأخذ مكانا بجوارهم... قال لصاحبه
مفتاح:

- اليوم رأيت موكب الملك.

تصلد وجه صاحبه. استطرد عمر... عطيته ظهري... بقي
وجه الملازم الشهبي عابسا... سأله:

- متى تصبح قائدا للجيش؟

أدار الشهبي وجهه وقد عقد جبهته، همس: سنوات
قليلة.

ضم عمر عينيه هامسا: تفعلوها.

أشاح عنه بوجهه ثم عاد ليقول:

- وأنت شنو تفعل؟

- ما أعرف...

- تستكمل الثانوية العامة

- لن أفعل.

- يتفوق عليك العويلة... هز عمر رأسه في احتقار؟

- تبي في سوق المقاولات.

- أنا نستني الفرصة.

- وإذا أعطيتها لك؟

- وحق الله يصير لك نصيب... مشاركة... نصير شركاء يا أخي.

عبر الغموض وجهه الملازم. استطرد: لبنغازي بخطة الحكومة نصيب كبير، نبيك غادي...

- وأنا تحت أمرك

- ارحل... تعال بنغازي...

- متى؟

- مين ما تريد... من توا...

- باهي...

- عجل... وين ما تصل بنغازي مر على معسكر قار

يونس... تخبر باتك؟

غمغم عمر بإجابة لم يسمعها الملازم إدريس، تصاعد من وسط المربوعة صوت أحد الرجال ينشد أشعارا شعبية، استمع الجميع في طرب واستحسان. قبل أن ينفذ الجمع ترك عمر المربوعة يتبعه فتى يصغره بعامين، أبيض البشرة تميل قامته إلى الطول قليلا، أطال شعره من تحت الشنة، يعتني بهندامه وملابسه، بعدما عبروا التنك وبلغوا الخلاء استدار عمر إلى الخلف، سبقه علي جمعه، هاجمه عمر من الخلف: تشعر بالبرد، تعال بيث ادفيك.

ابتعد الفتى مسرعًا في خطواته قائلاً بسخط واندهاش:
توا!!

التصق به هامسا غير عابئ به: توقف. استمر الفتى في سيره كأنه لا يسمع شيئًا... نظر عمر إلى الدور تقرب، أسرع يقبض بساعديه على الفتى، جذبه نحوه يهمس:

- تتدلل عليّ يا زامل...

- الأرض وحلة.

- الرابعة.

ساقه خارج القرية، وتحت شجرة عالية أوقفه بين الأوحال والبرد... وحل لهاث حار...

* * * *

في مساء أحد الأيام اجتمعت الأسرة حول العشاء، انتحي عمر جانبا يكسر- عودا، يرسم به في الأرض الرملية الصلدة

دوائر وشخوصا ليس لها معالم واضحة... قال ونيس لأبيه
مشيرا لأخيه الأكبر:

- التيس مزق كتابي بيش يشعل دخانه.

همست صديقة في خوف وهي تلتصق بأمها: مزق لي
حقيبة كتي.

عقب حميدة: قتل الكلب الصغير، رماه تحت سيارة نقل،
تعلق قيده بعجلاتها تحطمت رأسه، ومات مخنوقا.

بقي عمر ساكنا لا يريم. بينما نظر الأب في وجوه أولاده
واستقر عند ناصر قائلا:

- وأنت ألم يجده هذا التيس أنفك؟

- لا يجده أنفي ولا أفتح بطنه، وليس لأحد منا دخل
بالآخر.

- فأنت نفدت منه إذا... باهي.

مسك الأب ذقنه، وضع رأسه بين كفيه مستغرقا في
التفكير... إيش أفعل مع الملعون هذا... فشل في دراسته،
والغنم تتناقص منه... يبيعه أو يهديها للهاجلات، إيش
أسوي بهاك الزامل:

تبى تكمل دراستك العام القادم؟

حدق في أبيه وهلة، أجاب بعد فترة صمت: نعم.

- كيف يا زامل... ما ريتك تقرأ في كتاب.

- ما نبيش نذاكر.

- وإمتي كنت تذاكر، تأكل وتشرب، تسمن كيف البغل،
وتطيح في خوتك كيف الذئب، تدور وتعف حول جمعة
كيف الذباب، تطارد الهجالات كيف ديك أجرب، تعيش في
كساد وتنام في كساد، بالله هذه نهايتك!! أنا وين كنت في
سنك...

قاطع عمر وهو يشير إليه بعود صغير: لا تفتح لي في
أسطوانة جديدة، نويت أعمل. سارع أبوه قائلاً: انزل
للكسارة.

هز رأسه باستهزاء: ما نبيش نعمل معك.
انتفض الأب غاضباً يلوح بعصاه، ابتعد أبناؤه عن طريقه،
بقي عمر لا يحرك ساكناً، انهال عليه بعصاه، غطى رأسه
بساعديه، يستمع إلى سباب أبيه، فلما انتهى نظر إليه في
عناد ساخط:

- ارحل باكر بنغازي.

صرخ الأب غاضباً: ارحل ما نبيك هون.

- باهي بارحل.

ساد صمت قطعه الأب بعد فترة: وإيش تفعل؟

- أحصل مشروع حفر مواسير البترول...

هز الحاج مفتاح رأسه قائلاً: باهي ما فعلت... لكن ما

تطلب مساعدتي.

- وأنا منبيش منك شيء.

* * * *

لو أن أحدا تنبأ لهم أيام كانوا يمضون سهراتهم في كازينو الشجرة، بما هم عليه الآن، لأمطروه بوابل من السخرية والتقريع، فالهزيمة الساحقة التي منيت بها مصر- في 1967، شدت من قبضة الملك على البلاد، رغم مشاعر السخط والغضب التي عمت جموع الناس، بعد أن علم الشعب بالدور الذي لعبته القواعد الأجنبية في مساندة العدوان، فخرجت المظاهرات صاخبة تندد بالقواعد، وتتلقى الرصاص بصدورها، إلا أن تلك القواعد أخذت في الاتساع وبنيت المنشآت الجديدة، خاصة قاعدة "هويلس" الأمريكية، وقد أصبحت منطقة تدريب وقصف لقوات طيران حلف الأطلنطي، ولكن هل يكفي السخط الذي امتلأ به صديقه الملازم كي يعرف واقع الأمور؟

لم يشعر عمر بفداحة الأمر، إلا عندما أرسله صاحب عمله الجديد إلى مواقع العمل في إجدابيا، حيث حملته طائرة خاصة إلى حقول النفط، كان شيئا باهرا حقا. الفيلات المكيفة الأنيقة التي يسكنها عمال وموظفو ومهندسو شركات النفط من الأجانب، قاعات المسرح والسينما الصغيرة الفخمة، ملاعب التنس النظيفة، المكتبة التي تصلها جرائد ومجلات العالم يوم صدورها، كل هذا أصابه بالذهول، وقد دغدغت حواسه الأمريكيات اللاتي جلسن حول حمامات السباحة الصغيرة، وفي ملاعب التنس،

يغدون جيئة وذهابا وهم يرتدون البكيني والشورت الساخن تحت بلوزات قصيرة، وقد لوحت بشرتهم البيضاء حمرة خفيفة من شمس الصحراء.

باهي... هتف لنفسه: هذا حقكم، نحن لا نستطيع أن نستخرج النفط بذواتنا، لكن كيف يدخل جيب هذا الإيطالي اللعين كل تلك الآلاف المؤلفة من الدينارات، وهو ليس سوى وكيل معتمد لدى شركات النفط، لا يفعل شيئا سوى تنفيذ عمليات صيانة الحقول والخطوط وتوزيعها على الآخرين... أدهشته الأرقام وكثرة الأصفار بها، والفتات الذي يعود على صاحب عمله سالم الفرجاني، ولو أنه عاد في ذات الليلة ما برح حياته السأم الذي يعيشه، ولكن كان عليه أن يعطي للعمال رواتبهم في مناطق العمل، في الصباح ركب لاند روفر حيث توغل في الصحراء سبعين كيلو مترا، وهناك وجد مستعمرة من العمال، تشغي كمملكة النحل، وبعد أن انتهى من عمله لم يعد، إذ امتد اليومان إلى أسبوع، استهوته بشدة جماعات العمل التي تستيقظ مبكرا، تعمل حتى الغروب، وتوثب في صدره نمر يريد أن ينطلق من عقاله، تابع بعينيه كبير الملاحظين، كان قصير القامة، يرتكز كتفه العريض وبنيته القوية على ساقين غليظتين تبدو عليهما أعراض كساح الطفولة.

في قيظ الصحراء وجفاف الطقس والقلوب تعرف على الحاج حميدة، طبرقي ينتسب إلى قبائل أولاد علي، كانت

قسوته مع العمال تفوق الحدود، يسوقهم بعصاه مثل قطع من الأغنام، لم يفهم منه لسانه المقذع، بل طاردتهم ألفاظه القذرة وركلات قدميه الغليظتين، فإن ابتعدوا تابعتهم بقذائف من قطع الحجارة، لم يكن ليأبه أن تشج رأس أحدهم، ولم يكن ليهتم بأحد قط، حتى للإشاعات التي تدور حول شذوذه الجنسي.

كان الحاج حميدة مستاء لتدخل هذا الموظف الساذج ناعم اليدين، الجالس في مكتبه الحقير مثل صنم مرفه في بنغازي، والذي أصبح بقاؤه مثار إزعاج شديد له، ودافع كي يطلق براكين غضبه عليه، وأخذ يصب على العمال اللعنات، يزداد هياجه كلما لمحّه في مكان ما يسأل ويستفسر عن كل شيء.

شعر عمر بأنه ضيف ثقيل على الرجل، حتى جاء وقت اختبار كل منهما للآخر، هبط الحاج حميدة فجأة عليه وهو واقف ينظر صامتا إلى عامل قابع أسفل خط الأنايب، يقوم على لحامها، صرخ يعنفه: كلك تسوي هون؟

استدار عمر وعلى وجهه ملامح غضب شديد. استترد الحاج حميدة: هيا عدي.

امتلات عينا عمر بالشر وسأل: كلك تدوي معاي؟

- حق الله الفرجاني يعطي فلوس حرام لموظفين تيوس.

لطمه عمر بقبضته في فكه بعنف، وعاجله بالثانية والثالثة في بطنه دون رحمة، سقط حميدة على الأرض، تابعه يركله بحذائه في بطنه دون توقف، لم تخالجه لحظة شفقة، كان يعلم أن عليه إذا أراد الحصول على طاعته أن يقهره كترويض عبد وضيع، وقف وحذاؤه فوق رأسه: تدوي بصوت أقتلك هون أنا نلعب ملاكمة، نشهد بالله حتى ربنا ما نخاف منه... فهمت ولا لا.

تراجع حميدة بخبيء ذيله في مؤخرته مثل كلب مهزوم، ورحل عمر عائدا إلى بنغازي وقد انطبعت ذاكرته بالعبد الشرس، على هذا النوع من البشر- يعتمد المرء في أعماله، ويوم بدأ الاستقلال بأعماله، دعاها، وجاءه حميدة مسارعا، وكأنه يتنبأ لرب عمله الجديد بالنجاح والتحليق عاليا في سماء بنغازي.

لم يقض عمر لدى الفرجاني أكثر من شهر آخر. فقد قدمه صديقه إدريس للحاج رمضان، وعندما تعرف عليه الحاج مال إلى الملازم الشهيبي: أبين يدي هذا الفتى أستأمن أموالى...؟؟

أجابه إدريس في ثقة واعتداد: أنا الضامن.

- يبي كم من الأرباح؟

- الشراكة بإدارة الأعمال والأرباح بالنصف.

- قبلت.

قال الثلاثة: على بركة الله.

ومنذ عصر- ذلك اليوم بدأ عمر يبني حياته العملية في مدينة بنغازي. يبكر في النهوض صباحًا. فيكون أول من يبلغ العمل، يوزع عماله، يسوقهم على العمل... يستقبل مندوبي البلدية بترحاب شديد، يحاورهم ويلتف حولهم، يشعل لهم السجائر، ويقدم الشاي والخمر والحشيش، والكل أصدقاءه، الأهمية القصوى أن تنتهي الأعمال بسرعة الريح، يعمل حتى غروب الشمس، ثم يعود إلى الحوش، ويأخذ حمامًا ويتناول عشاءه، ويسارع مغادرا الحوش إلى حانوت الحاج رمضان، ليحكي له ما دار طيلة يومه. في إحدى الأمسيات دعاه الملازم الشهيبي لاستخدام آلات الحفر فأجابه:

- لا أملك أثمانها.

- تستطيع استئجارها... باهي يا أخي؟

- باهي.

في اليوم التالي مر عليه الشهيبي في سيارته العسكرية، أخذه إلى أحد المعسكرات حيث كانت تعمل شركة المقاولين العرب، التقى عمر بالمهندس المصري، اتفق معه على استئجار أربعة حفارات، في طريق العودة وجه سؤالاً إلى رفيقه: وإيش بسوي عثمان أحمد عثمان هنا؟

- منشآت... يقيم منشآت وطرقًا.

- ليش ما في وطنيين؟

مرت فترة صمت قبل أن يتحدث صديقه: المصرية
أفضل من الغرب... استدار يسأله:

بتقدر تحل محله؟

أجاب عمر في قوة: ليش لأ؟ دعني أبدأ وتوا تشوف.

وقد حدث، فلم يمض عام بعد قيام الثورة حتى تم
استدعاء عمر ومقاولين آخرين لدى أحد المسؤولين
العسكريين، الذي بادريهم بالسؤال: لدينا خطة لاستكمال
منشآتنا العسكرية... من يستطيع العمل معنا؟

لم يتحدث أحد، كانوا مترددين في التعامل مع العهد
الجديد، الخوف على أموالهم والشك الذي يملأ صدورهم
من الثورة... قال الرجل: نحن نبغيكم... نفضلكم بالطبع،
لكن والحال هيك، لا توجد أماننا سوى الشركات المصرية.
تجراً أحدهم، سأل: إيش حجم الأعمال؟

لا نعرف على وجه التحديد، مائة ألف، وقد تبلغ نصف
المليون دينار.

وجموا جميعاً، وظهر على وجوههم الشك والخوف، قال
باشمراز:

تشعرون بالرعب على أموالكم... باهي ما عاد لدينا خيار.

لكن اجتماعاً مصغراً اقتصر على عمر وثلاثة آخرين من
المقاولين الصغار، قال فيه أحدهم:

يعطينا البنك دفعة أولى، نسبة من القيمة الكلية للأعمال.

أجابه الملازم: أديش تبوا 10% 15%؟

أجابوا: هذا مناسب...

عقب أحدهم: لكن نأخذ كيف المصرية كل فترة قيمة ما أنجزناه من عمل، هيكي نحافظ على دورة العمل.

أمّنوا جميعا على قول زميلهم... أجاب النقيب: نعطيكم 25% دفعة مقدمة. وتصير تأخذوا كل فترة ما أنجزتموه من أعمال... باهي؟

تهلّوا مؤمّنين على قول النقيب: باهي يا سيادة النقيب... باهي يا سيدنا.

قال وهم يغادرون مكتبه: ما عاد فيه سيد ولا عبد... باهي كلنا إخوة... باهي...

وهكذا نشأ ارتباط وثيق بين عمر والجيش، ارتباط نما وازداد قوة وصلابة بالغة.

* * * *

هنا الرائد العريس وحماه، واتجه خارجا يتبعه عمر بوزوي. دعا عمر أخاه ونيس وقدمه إلى الرائد.

- أخي ونيس سبع سنوات يدرس الطب بألمانيا وعاد هذه السنة.

حيّاه الرائد وشد على يده مهنئا: نبيك تخدم البلد...
استدار إلى أحد صغار مقاولي الباطن وكان يخدم معه جنديا
بالجيش، وتركه مع نمو أعمال المقاولات، بادره بسؤال:

- أخبرك شنو يا سالم؟

- باهي يا سيادة الرائد.

- اديش عندك توا من آلات الحفر؟

ضحك الشاب الصغير للدعاية: تسألني أنا يا سيادة
الرائد؟!

ابتسم الرائد وسلط عليه عينين باسنتين: تقول ولا تتركنا
نستقصي عنك؟

ضحك الجميع: ليش نتعب فيك؟

- أنا ما نتعب.

- باهي ليش نتعب في المساكين الصغار إلى يعملوا
بالأجهزة السرية... أنا نقولك... سبعة حفارات إيطالية، كل
حفار به أربعة فؤوس وكاشيك تعبان.

أشار له الرائد بإصبعه مؤكدا على مخارج ألفاظه: توا نأمم
فيك.

التأميم... هزته الكلمة بقوة لكن وجهه لم يحمل سوى
ضحكة سعيدة خانقة وسط ضحكات الجميع... رحل
الرائد... وعاد عمر وهو مشغول الذهن... حسنا هو التأميم

وعبر الصالة الداخلية فكر في غضب... متى تستقر الأوضاع
وأين نذهب... متى وأين؟

* * * *

الفصل الخامس

عندما انعطف رتل السيارة بميدان البركة ليستعيد طريق جمال عبد الناصر مرة أخرى أوقفته السيارات القادمة من الامتداد المعاكس فانطلق نفير الرتل يدوي تاركين للعناتهم العنان يصبونها على قائد سيارة العرس ولم يكن هو بحاجة لكل هذه الضجة، فرجة صغيرة بين السيارات المعاكسة لا تتجاوز عرض سيارته، اندفع بقوة فاتحا الطريق أمام بقية السيارات، وعبرت السيارة الثانية من خلفه بسرعة السهم، مخلفة صهيرا حادا وراءها وهي تلتف بشدة لتستعيد يسار الطريق، حين اندفعت الثالثة مسافة مترين لتتهتز بعنف ثم تقف وقد انطفأ محركها، حاول قائدها إشعال المحرك دون جدوى، وفي لحظات كانت السيارات الأخرى تندفع من خلفه عن يمينه وعن يساره وقد ركبت رصيف الطريق المجاور، تصاعدت الضحكات وانهالت تعابير السخرية عليه

من كل جانب، وعلى من معه من أهل العريس، صاحت به
خيرية بصوت مغناج ممطوط:

أخص عليّ، كسفتنا يا ونيس، ككك تركبنا بالرابش هذي، تمشي- متر
وتقف عشرة.

أجابتها المرأة الجالسة إلى جواره وهي تبتسم: ردي بالك
السيارة هذه بصحابها... موش كيف السيارات الأخرى،
استطرد صوت رخيم ضاحك قائلا بلكنة مصرية:

- اصبري علينا يا آنسة، هذي سيارة صاحبة مزاج تبي
الملاينة مو القوة... والا إيه... هو ما في غير المرسيدس؟

اشتعل المحرك وكان قد تخلف عن الركب، قالت خيرية:
- باهي يا سيدي نبي تشوف كيف سيارتك العتيقة هذه تروح
بيننا وين مكان والا نضيع معاك؟

أجابها بضحكته الواثقة: أوعدك توا نكون أول سيارة.

أزاح بيده خصلة شعره المتناثرة، ضغط على معجل
البنزين، فاندفعت السيارة وسط الطريق المزدحم
بالسيارات، وهلة يضغط على مكبحها، يرتفع صرير
العجلات، ثم يعود إلى معجل البنزين فينطلق، ويندفع
الجالسون معه إلى الخلف ثم يعود يكبح سيارته، فيندفعون
إلى الأمام وقد سمروا قبضاتهم على المقاعد، فلا يلبثون أن
يعودوا إلى الاندفاع إلى الخلف حين يضغط على معجل
البنزين، وقد تصاعد صراخهم وضحكاتهم في آن واحد، فلما

بلغ مؤخرة الركب وجده وقد أوقفته إشارات مرور تقاطع شارع جمال عبد الناصر والطريق المؤدي إلى إستاد بنغازي، مال ونيس بسيارته إلى أقصى- اليسار، وعلى الاتجاه المعاكس تماما الخالي من السيارات القادمة واصل سيره مضيئا أنواره العالية وإشارات الإنذار الأربع، أمسك الخوف بتلابيب النساء فتعالى صراخهم من الخوف أمام السيارات المنعطفة من الاتجاه العمودي، وحتى أن بلغ التقاطع كان الضوء الأخضر- قد فتح له الطريق، أخذ ميلا خفيفا ليعود إلى طريقه، وقد أصبح في أول الركب كما وعدّها، وعندما اعتدل جالسا، وقد استعاد سرعته الطبيعية استدار لخيرية قائلا: إيش رأيك بالسيارة الرابش هادي.

أجابته وهي تشهق: والله مو السيارة الي رابش.

ضحك من أعماقه، وعلى وجهه الوسيم انطبعت ابتسامة مشرقة، عينان لامعتان، قال ضاحكا: قصدك إيه يا آنسة... هه... قصدك إيه؟ واستطرد يحدث امرأة أخيه الجالسة بجواره:

- إيش تقصد أختك؟

أجابته ثريا بالضحك وتصاعد ضحك الجميع، في الوقت الذي كان فيه استياء قائد سيارة العرس من بقاء سيارة ونيس في المقدمة قد بلغ أشده، صرخ يلوح له بيده كي يعود إلى الخلف، سألهم ونيس وهو يمنعه من التقدم إن كان يسمح له بعبوره أم لا، وكانت رغبة الفتيات أن تبقي سيارتهم في

المقدمة، أما امرأة أخيه ثريا فقد ذكرت أن هذا لا يصح، وأن عليه أن يترك الطريق لسيارة العرس، فامتثل لها، وترك سيارة العروسين تعبره، بعد أن أخرج راكبوها الأماميون نصف أجسادهم من نوافذها مصحوبة بقذائف من الشتائم والصراخ.

* * * *

يبلغ ونيس من العمر خمسة وعشرين عاماً، وهو شقيق عمر بوزوي الثالث من أبيه، وبطوله المعتدل وقامته الممتلئة المتناسقة يكون أقصر - إخوته، على وجهه الأسمر ينسدل شعر ناعم أطاله قليلاً... رحل إلى ألمانيا في إحدى البعثات لدراسة الطب، ثم عاد بعد سبع سنوات من الدراسة، يحمل شهادة التخرج، في داخله نبت مشاعر وأحاسيس إنسانية عميقة مشوبة بتلك التأملات الرومانسية التي كثيراً ما ترك الألم لأصحابها، وقد حمل معه عقلية قادرة على أن تعي البؤس الاجتماعي الذي يعيشه مجتمعه، فضحك وظلت ضحكته الصافية لا تفارقه، وعندما يأتي الحديث عن الزواج بالأجنبيات كان يجيب بالرفض، وهو يهز كتفه مفسراً الأمر ليس لكونه متمسكاً بالتقاليد والعادات الدينية، بل خوفاً من الفراغ الذي سيحل بهن في مثل هذا المجتمع المغلق، مثل هذه التضحية ستنعكس على الزواج نفسه، الأمر الوحيد الذي يعاني منه هو البطالة، ورغبته الحارة في بدء عمله بالمستشفى التي عين بها في درنة... وإزاء

كل الأشياء الأخرى كان دوّمًا يجيب بهز كتفيه لا مبالياً،
فبنفسه يحمل اعتزازاً وثقة شديدين.

قبل بدء تحرك ركب السيارات في طرقات المدينة، كان
الهرج والمرج يسود فيلا عمر بوزوي من جراء مراسيم
العرس، وقد اختلقت النسوة بالأطفال والعجائز، والكل في
شاغل عن غيره، النساء يخرجن أرديتهن الجديدة يستكملن
زينتهن، وقد انتابتهن الحيرة: أي أنواع المجوهرات سيرصن
بها جيدهن وسواعدهن البضة المثيرة... في ذلك الوقت كان
الابتسام يغمر وجه ونيس وهو يعلم بالمنافسة الحامية التي
ستحل بين نساء بنغازي هذه الليلة، عندما زجرته امرأة أبيه
كي يخرج قائلة: عدي برة... إيش لك هون بين الحريم.

أجابها ضاحكاً: حاضر... حاضر... ردي بالك علينا شوي يا
حنا.

وعندما وقف بالخارج عاجلته امرأة شابة باسمه تهتف
بتلك اللهجة الخاصة بنساء بنغازي والتي تحمل في ثناياها...
الود والشوق والعتاب والنهي والأمر:

ونيس... ونيس... تعال... كنك معدي؟

استدار مصطنعاً التأفف، توجه لامرأة أخيه الأكبر، وكأنه
يستسلم لقدره وهو يلوح بعينيه وحاجبيه لامرأة أبيه قائلاً:

هي اللي تبي، نبي نعي وهي تبي أظل.

استدارت عنه متأففة وثرىا تثبت قرطها الماسي في أذنها
اليسرى، وتسأله؟

- منو يركب معك بالسيارة؟

ضحك: ومنو يرضى يركب معي بهذه السيارة.

- أنا.

ارتفعت ضحكته حتى ملأت فضاء الفيلا، وأخوه حميدة
يصرخ فيه:

كنك ما تبطل ضحك، تموت وأنت تضحك!

استدار يجيبها: هذا شرف كبير لا تستحقه سيارتي.

- كنك تهزر... أنا بنتكم جد.

- أنا وسيارتي تحت أمرك يا ستي.

- باهي... رد بالك... أنا وخيرية أختي و بنت خالي خديجة
نركب معاك.

- الطف يا رب... أنا نعدي نغسل السيارة.

- كنك... ما غسلتها لحد تو...؟!

- حالا... حالا... خمس دقائق تكون جاهزة.

خرج ونيس مسرعا، ينعي المصائب التي تنزل بالمرء دون
انتظار، واستدارت ثريا لغرفة نومها تستكمل زينتها.

* * * *

ذلك هو العام الرابع على زواجها من عمر مفتاح بوزوي،
وفي رأسها اشتعلت نوبة من الصداع تحت تلك البشرة التي
ظلت مختفية دوما داخل الإزار المسدل حتى الأرض، لا
يترك منه سوى عين واحدة تطل منه المرأة اللببية على
العالم الخارجي، والذي لم تخرج منه بشكل متسارع إلا في
النصف الأول من السبعينيات.

وتحت قناع امرأة أوربية المظهر كانت تختفي امرأة بدوية
تموج بالانفعال، قوية الساعد عنيدة الأحاسيس متصلبة
الرأس ومسيطرة، أحيانا تملك المشاعر والعواطف الصريحة
لبنات البادية، اللاتي نافسن الرجال فصاحة، وقارعوهم على
بساط الشعر والبلاغة، وفي المراعي الخصبة وقلب الصحراء
والتي ما كانت تعطي قلبها قط إلا لذلك الذي يبرزها ويستطيع
أن يصمد أمام عنفوان شبابها.

في تلك الدور الواطئة القديمة والعمارات الحديثة تتوهج
المشاعر والأحاسيس، وتتقد الأفئدة وتسري النيران الغامضة
تحرق الأجساد الفتية على مهل، فإذا انفرجت الأبواب
والنوافذ المغلقة دوما باسم الدين والتقاليد لصدفة عابرة،
انطلقت براكين العواطف الفجة التي كثيرا ما تخطئ
أعشاشها، ولا تبلغ النهر.

* * * *

الفصل السادس

كل الذي كانت تعرفه ثريا عن عمر بوزوي، وهي بعد فتاة لم تتعد الثامنة عشر- من عمرها، أنه شاب يعي جيدا الطرق والوسائل الكفيلة للنجاح، وأنه يملك من الشجاعة القدر الذي يسمى بالتهور، وأن طاقته على العمل لا تنضب، وإن كان أحد لم يتبين بعد طموحه غير المحدود، وكان قد بدأ العمل مع والدها الحاج رمضان مقاولًا من الباطن لأعمال الحفر، وما أن انتهى من العملية الأولى حتى كان شريكًا له بعد أن ربحا معًا عشرين ألفًا من الدينارات، يوم تصفية الحساب جاءه عمر، ومعه عرض للعمل مباشرة مع وزارة الإسكان، وأخذ يزين له الفكرة، حدثه عن فتح مكتب للمقاولات، ألحَّ عليه حتى رضخ الرجل أخيرًا، وفي مخيلة الفتاة لم يكن لديها عن هذا الشاب الذي أصبح شريكًا لأبيها سوى أنه قصير القامة دبق، على وجهه يرتسم القبح وملامح الخبث والتذلل، يرتدي الرداء الوطني الممتلئ بالبقع والوسخ، لا

يخلعه عن جسده بالأسابيع، لم تكن ترى فيه إلا محتالا، لا يلبث أن يكتشف أبيها خبثه فيفترقان وينفض ما بينهما.

في إحدى الأمسيات الباردة لشتاء 1971، جلست الفتيات الثلاثة يتبادلن الصياح والعراك حول قصعة المكرونة الساخنة، وقد زادتها الهريسة لهيبا، كان المطر يهطل بالخارج، عندما سمعن طرقات على الباب الخارجي، اختلفن كثيرا على من التي ستترك الحجرة الدافئة، وتعبّر صحن الحوش البارد كي تفتح للطارق، مدت كل منهن تسحب عود القش، كان القصير من نصيب ثريا، فقامت وهي تسب الجميع، وعندما صاحت وهي تلتف بالجرد الملون بخطوطه العريضة الزاهية المقشبالقصب:

- منو؟. أجابها الصوت العميق:

- أنا عمر.

- تبي منو؟

- الحاج رمضان موجود؟

- أيوه.

- نبيه بالله عليك.

غابت دقائق وأعضاؤه توشك أن تتصلب من البرد، عادت لتفتح الباب وقد أخفت وجهها كله عدا عينيها اليسرى بقيت تطلع نحو الطارق، لتراه لأول مرة من فرجة الباب المفتوح،

أصابها بالارتباك وهو يمد يده لها بالسلام: خير... كيف حالك... الحاج موجود؟

وقت مضى- قبل أن تتمكن من تخليص يدها من داخل الجرد لتمدها إليه، قالت في صوت خفيض متلعثم: خير... اتفضل.

لعمر انطباع قوي لمن يراه مثل الذي تبدو عليه أشجار الحور الضخمة، القوة والارتكاز، ذلك الشيء الذي تحس على سفوحه النساء بالاضطراب والاطمئنان والحماية، ولوجهه مرأي الباشق، سمرة تنم عن القوة والوسامة، الأنف المعتدل الحاد، والفك القوي الشكيمة، العينان النفاذتان، الشعر المنقوش كمعرفة قرس كميتي، أنيقاً، تنم ملابسه عن ذوق حديث يتسم برجولة لا تنتمي للخلاعة بصلة.

في ذاك المساء ظلت ثريا مستيقظة، تقوم على خدمة أبيها وضعيفه اللذين جلسا بالمربوعة، تطرق الباب وتواريه فلا يرى منها سوى ساعد بض ممتلئ يزدان بأساور الذهب، يمتد بصينية من الفضة رصت عليها أقداح الشاي أو القهوة، وبشرة من الحليب الناصع لامرأة تحيا في قصور العباسين، ساعة خروجه بعد منتصف الليل بقليل عبرت باحة الحوش أمامه كاشفة عن وجهها البيضاوي، وصدورها الناهد المرتكز على جيد معشوق، كتفين ناصعين تحيطهما هالة من شعرها المجعد الحالك السواد، وقد كلل هذا الجمال عينان

واسعتان شديدا الحور، وأنف دقيق فوق ثغر في حمرة الكرز، ولم تمر شهور قليلة حتى كانت زوجته.

عندما طلب منها عمر أن تخلع الجرد، وتأخذ سنة المجتمع الجديد، تفتقت عن البهاء والحسن؛ تلك الملاحظة التي تفتحت وأبرزت عمق جمالها، عندما أخذت البرجوازية الليبية تنمو، وتبني القصور والفيلات الحديثة، وتلحق عليها الحدائق وحمامات السباحة، ونساؤها تخلعن العباءات، ترتدين أحدث الأزياء التي بلغتها الموضة من فساتين الصباح والسهرة بلندن وباريس وروما، لحظتها ضوت ثريا بجمال نادر بين بنات جنسها، رغم إنهن جميعًا وبلا استثناء يمتلكن قدرًا عظيمًا من الجمال الأثنوي الحار.

نحن في لحظة قد تدوم ساعة أو عدة سنوات، قد نشعر بالصفاء، إن جاز وجود هذا التعبير عن معنى السعادة، ورغم أن الجميع أفنى عمره في حرث حديقة صفائه الخاصة، التي يندر أن تؤتي ثمرًا قط، كان الأديم الحقيقي لطبيعة تحولاتنا، النسيج الذي استلبناه من الخارج، الألياف السرطانية التي تشكل عقلنا الداخلي لنمونا المستحدث، هي غير ذلك على الإطلاق، وإنما باطن صوفي من الاكتئاب النفسي- يحكم الجميع بلا استثناء.

إن ثريا تلك المرأة التي عاشت ثمانية عشر- عاما من عمرها داخل مجتمع التنك، تسيطر عليه علاقات قبلية، لا هو في عرف البدو ولا المدني المتحضر-، لا ترى منه إلا ما يتيحه لها

ثقب باب خارجي، أو فرجة شباك، وجدت نفسها تستبدل بمعدل مرة كل عام، حوش بوسط المدينة، فيلا بالصابري، ثم أخرى بالفويهات الشرقية، تغير ملابسها وأطقم غرفة نومها وتأثت منزلها بالكامل بوفرة، مرة من الحي التجاري بالمدينة، وأخرى مستورد من إيطاليا، غالبا باهظ الثمن، متراكما حتى تعج به الدار، أو ان وتحف وثریات ضخمة، ولوح زيتية لرسوم دينية وحيوانات بالغابات، أو رسوم تجريدية ليس لها معنى، ومنافض وطنافس، وبار يستخدمه زوجها يدار بالكهرباء، ممتلئ بأنواع الخمور، فوتيهات عديدة الأنواع، الجلدي والشمواه، والمصنوع من المعدن، وستائر مخملية ثقيلة متنافرة الألوان، ولم تلبث أن تعلمت قيادة السيارات لتمضي- عصر- كل يوم رحلة تجوب بها وسط المدينة وأطرافها مصطحبة طفلتها، وأخيرا استقر بها المقام بهذه الفيلا التي هي أشبه بالقصر، ابتناها زوجها على أطراف الفويهات الغربية، حديقة واسعة ومطبخ كامل حديث، وأثاث وديكور أشرف عليه مهندس مصري يعمل بالجيش، وقد استوردت كل قطعة من إيطاليا خصيصا لزوجها، وأخيرا حمام السباحة الصغير الذي لا يستخدمه أحد لا في السباحة ولا في حفلات المجتمع الليلية؛ تسكن هي الطابق العلوي بكامله ويسكن الدور الأرضي أهل زوجها جميعا، أما ناصر وعروسه فسيحلون بجوارها، أربع سنوات مضت تحولت في أثنائها ثريا من مجرد فتاة بدوية، يتحرك عقلها بين المربوعة والبئر، إلى امرأة برجوازية حقيقية، تعيش رغدها

وهمومها النفسية العميقة، وزوجة لرجل من ثلاثة هم أصحاب أكبر مؤسسات المقاولات والتجارة في شرق ليبيا، فكيف يصير الله عندها.

الزهو، الغرور، الخيلاء الذي يصنعه وجه يرتفع بسرعة البرق في سماء بنغازي، قوامه شبكة من العلاقات والاتصالات الحديدية، السلطة والجبروت، إذا فهو الأمن والترفل والدعة والاسترخاء الذي يستوطن أحشائها بين قاعدتي اللذة والألم التي يخلق إياها الشهوانية التي يملكها رجل وافر النشاط والحيوية، حتى ليصيبها الإعياء والرعب من ساعات اللقاء الليلية، لا تجد مهربا سوى المشاغل والأعباء الضخمة التي تبعده عنها، ولولاه لتفجرت أحشاؤها هلعاً، بدلاً من أن تعض ناجزيها كل صباح مرهقة بهذا الشبق المتقطع الذي تستطعمه من زوجها.

الفائض الضخم والمتنامي الذي يولد لديها رغبة محمومة في امتلاك تلك اللائحة التي لا تنتهي من السلع الاستهلاكية... الملابس الحريرية الداخلية النسائية، كسرات ومشدات الصدر، قمصان النوم وبيجاماته، الجوارب والفساتين التي تكشف عن الظهر، بنطلونات الجينز الضيقة، البلوزة التي تكشف عن نهر الصدر، أنواع الأحذية والعطور وأدوات الزينة والشعر الاصطناعي، وزيوت البشرة وطلاء الأظافر، الأجهزة الكهربائية، تكديس الحبوب والزيوت والسكر، التحف المستوردة الباهظة الثمن، وأنواع

السيارات الفارحة التي تتغير قبل نهاية العام، والتجوال بها داخل بنغازي، وأخيرا النزول إلى شاطئ بنغازي المخصص للعائلات برداء البحر.

والبرجوازية هي الوحيدة التي عرفت الله ونفضت عنه يدها وهي فتية قوية مسيطرة، وهي التي تعيه وتستعين به وهي ضعيفة متهالكة، شرهة بليدة هامشية، لكنها تسقطه تماما من حسابها عندما تخوض صراعها المكشوف ضد خصومها من علاقات قديمة، ساعتها تقتني تلك الأفكار الجديدة الذي تحل فيه محل أي قوى غيبية، والبرجوازي عندما يصعد يخوض صراعاً ليس فيه شفقة أو وجدان، صراعاً لعالم خالٍ من العواطف الإنسانية النبيلة، صراعاً كان هو أحد الذين حددوا ملامحه، لحظتها عليه أن يقتني النمط الجديد الذي صنعه محل كل القيم الفوقية السائدة التي لاثم حياته الجديدة.

في مثل هذه المدة القصيرة استقت ثريا سعادتها وارتواءها، نافضة بأعجاز يستدعي الإعجاب عن دائرة الوعي كل ما يمت بصلة لماضيها القريب، واصطنعت لنفسها عالماً عاشته بقوة من مجموعة المظاهر السلوكية لبرجوازيات أكثر عراقية، وهلة عابرة استمرت أربع سنوات، أصبحت تعيش على قمة عالية لجبل من الفراغ، تخلّى عنها زوجها لكثرة مشاغله وأسفاره الطويلة، وذاع صيت علاقاته

النسائية بنساء وعاهرات وفتيات صغيرات السن، وأصبحت وسط عائلته وحيدة، عدا من طفلتها وسيارة البيان فيو.

كيف تغير المواسم ثيابها؟! ولماذا يدهمنا الخريف قبل موعده؟ لماذا تجهل القلاع أن الرياح مخادعة؟ أسئلة عسيرة قد لا ترد على عقلها الواعي، ولكنها تدوي في باطنها بقسوة، فقط تذكر كيف دمر عمر رواس السفن وسلاسلها التي ترتكن بها على مرافئها، علاقتها بأهلها لتصبح أمامه وحيدة: حمامة وديعة تمضي حياتها في وكر الشيطان.

كان قد فاجأها ذات ليلة متأخرا، أيقظها من نومها بخشونة، وجذبها من فراش النوم إلى غرفة الاستقبال، سارت وراءه في ملابس نومها، وبطنها الذي يحمل جنينها يتقدمها، أجلسها قبالتها، تفرك عينها مندهشة، تسأله بصراحة:

بالله عليك اتركني أنام يا أخي... إيش تبي يا عمر.

لم يجبها، قام وهو صامت، وعاد بحقيبته السمسونيات، أخرج عشرة آلاف دينار، ووضعها كاملة أمامها فوق المنضدة، تحدث وفي نبرات صوته تهديد واضح، سرعان ما رحل عنها النوم، لتحل محله اليقظة التامة.

- أنا نبي نقول لك كلمتين بيش تفهمي اللي بعدهم، من سنة تجوزنا، وباقى ثلاث شهور وتولدي ابني... ابني أنا... فهمت ولا لا... باهي.

قاطعته: كل هذه أدريه، لكن إيش فيه؟

استطرد دون أن يبالي بمقاطعتها: من سنة تجوزنا، لا تركتك محتاجة لخبز ولا لشربة ماء، والذهب اللي بالصندوق هذا يشهد على كلامي، تركنا الحوش بعد ما حصلت الفيلا هادي، وتركتك تخلعي الجرد وتلبسي- القمصان والبنطونات الضيقة بيش بزازينك تبان، كشفت وجهك كيف المصريات، مش من شان أنا تيس ولا قواد... لا... عشان أنا نبيك هيك... صح ولا لا...

اصفرت واتسع فمها ولاحظ ذلك، لكنه استطرد: أنا نقدر نزوج عليك مره وتنين وثلاث... صح ولا لا... أنا أرجع وش الفجر، ندور ونشقي من شاني أنا؟ لا من شأن الوليد اللي في بطنك.

قاطعته في إصرار: كنك... إيش فيه... ليش تقول هيك؟

- توا نقول لك إيش فيه... واستطرد: أنا نعرف أن المرة القحبة لما تبي هيك، يدير لها أبيها وأمها الأسطوانة، تسمح في كلامهم طول، وتدور كيف اللبوة في حوشها تنتظر في التيس جوزها، بيش تدير معاه هرجه وتعدي لبيت بوها، والاقحاب هادول حتى إذا كان عندها عويله يكون في رأسها حاجتين، أما تبي التيس يعدي بيت بوها بيش يردھا، وساعتها يتحكم فيه أهلها، يشرطوا عليه ألف.. ألفين دينار، أو كيلو ذهب يدفعه كيف الكلب وذيله بين رجله، أو أنه يطلقها، وليش ما بعرف، تقعد في حوش باتها جنب العجوز

فاتحه أفخاذه كيف كلبة الهايجة، تدور في الشوارع خلفها
عشرين كلب أجرب.

صرخت ثريا وقد امتقع وجهها لبذائه: أنا ما نسمح لك.

طرق المنضدة بقبضته بعنف أذهلها، وكأنه ينتظر
اعتراضها، انكملت في مقعدها وهو يصرخ بها: أنا نقول
الحقيقة... هيك بتعمل القحاب... صح ولا لا... قولي...
صح ولا لا.

أجابته بتحد: أنا ما نعرفش أقحاب بيش نقول لك...
والمرأة اللي تروح لباتها بتعدي حوش أهلها.

- لا... أنا نعرف للمرة حوش واحد... حوش واحد ما في
غيره، هو حوش زوجها... القحبة التي تعدي حوش بوها من
شان الذهب والدنانير (ورفع يده ملوحا)، هذه قحبه... صح
ولا لا... ردي علي... وقام يمسك رسخها بقوة يردد: قولي...
هيا... صح ولا لا... هك تعمل القحاب.

ردت وهي تقف في مواجهته: أنا ما نعرف إقحاب.

- لا... مو أنك تعرفي أو ما تعرفي... جذبها من رسخها
يجلسها ثانية منحنيا عليها... المرة بتاعي لها حوش واحد هو
حوشي أنا... هيا... ردي علي... حوشك... حوش من؟

هزت رأسها موافقة في انكسار، لكنه لم يأبه بموافقتها
الصامتة، وأصر على أن تجيبه، قالت مستسلمة: باهي يا
عمر... حوش زوجها.

تركها وعاد لمقعده... ران الصمت، قطعه بحديث هادئ :

- باهي أنا كنت نبي نسمع منك الكلمة هادي.

قالت في خوف: لكن عlish كل هادا؟

- توا نقول لك، بكره أنا نعدي غادي للحاج رمضان بوك،
نفض الشركة اللي بينا بشروطي أنا... أنا نتركك تعدي غادي
لكن بيش ترددي... الخلافات هادي ما لها علاقة بيك... لكن
ردي بالك تعدي حوش بوك وتردي لحوشك... أنا بكره
نعدي البنك ونحط العشرة آلاف دينار هاذي باسمك، بيش
نختصر- الإسطوانات... أنا نفهم في كل شيء والفيلم هذا ما
يصير معاي... فهمت ولا لا...

أنهى كلامه وهو يتهاياً للخروج وقد أشرق الصباح: وأقسم
بشرفي... أنا ما نقسم كذب... تعدي يا ثريا بيت باتك وما
تردي حوشي أنا بيش نعدي نجيب فيك... لا... أنا نطلقك
وندور فيك وفي بوك كل اللي ما رأيتة بنغازي، ثم خرج وهو
يصف الباب خلفه بعنف.

* * * *

في صباح اليوم التالي ذهب عمر إلى دار حميه، فالمكتب
لا يحتمل مثل هذه الأمور، واصطحب صديقين، أحدهما
وكيل نيابة والآخر صديقه الملازم أول البرغثي، بعد أن تناول
الجميع القهوة، بدأ عمر الحديث: أنا يا حاج نجيك وما

نعرف كيف ندبر نفسي، أنا أقبل أتضرر ولا يصير لك ضرر، ليش لأنك (أشار بكفه ناحية صدره)، والدي وأنا متزوج بنتك... هادي ما بيها سر... واللي يضرك قيراط يضرني عشرين... صح ولا لا (هز الرجال رؤوسهم موافقين)، أمس استلمت الرسالة هادي من الإسكان، التيوس شطبوا شركتنا من عندهم، وأنت كيف ما حاولت مع الكلاب ها دول، ما تحصل شيء منهم.

تناول الحاج الرسالة وقد تغير لونه، قرأها ثم ثناها مثلما كانت عليه وهو يهمهم:

- هذا آخر التهور... أنا نضل ننصح فيك، ونقول لك هادي الإسكان، وأنت ما تعتبر... ما سمعت كلامي...

قاطع عمر وهو يبطن حديثه بالقوة ويفهم الحاج أنه على استعداد للعراك إن أراد:

- أنت كنعك يا حاج... تقعد بالحوش وأنا ندور نخدم كيف الحمار، وما نشوف فيك إلا لما تب تفتوفة⁽⁹⁾، وتوا تقول في نصايح... والمكتب هذا ليش تركته وليش بقيت بالحوش.

- زعمك ليش... ظنيت به راجل. - تقصد
إيش؟

⁹ (تفتوفة: مبلغ من النقود (لهجة ليبية).

نشب عراقك حام، تم فيه تبادل اتهامات قاسية بين الرجلين، والرجال صامتون حتى توجه الحاج إليهما كي يوافقاه على رأيه، جذبه وكيل النيابة إلى الشرك بادعاء الحياد:

- أنا يا حاج منبيش نتدخل بيناتكو... ما يدوم المال... يدوم الأهل والدم، هذا ابنك وأنت أبوه، افعل فيه كيف ما تريد، ما حد له الحق يتدخل بيناتكو.

أجاب الحاج منفعلًا: أن كان يبي يفض الشراكة الي بينا، أنا موافق، وكيف ما دخلنا بالمعروف نخرج بالمعروف.

نطق الحاج بعبارته، معتقدا أنه انتهز حديث عمري كي يحقق رغبته هو، على حين كانوا يدفعونه لذلك دفعا، فوجئ بعمر يوافقه: ما عندي مانع... أن كنت تبغي شيء قوله للرجال هادول شاهدين بيناتنا.

بوغت الحاج، لم يكن مستعدًا لاتخاذ قرار سريع كهذا: وأنا ما عندي شيء الي تبغيه أنا أسويه...

- كيف ما قولت في الأول... المال ما يهمني في شيء... أنت الي تهمني... ها دول الرجال يشهدوا... واستدار نحوهم... صح ولا لا... كيف ما قلت لكم من قبل... هزوا رؤوسهم بالموافقة... أنا نعرض عليك وأنت كيف ما تريد أنا ننفذ.

- وإيش تبغي؟

- أنا ننسحب من العقد بيش تكمله أنت... باهي... ونترك لك اسم الشركة، ومن شان ما نضر- بيك، ما نأخذ من رأس المال غير نصف حقي في رأس المال ونترك لك الباقي، وحتى ما أريده نقدي... أنا نأخذه من المعدات الهالكة... إيش رأيك يا حاج.

هرش رأسه وهو يزيح الشنة إلى الخلف يفكر في هذا العرض، وقبل أن يهم بالكلام، قال عمر:

- قبل ما ترفض أو توافق، أنا لي شرط... من حقي هذا ولا لا... قالها متسائلا... أجاب الحاج رمضان وهو يشعر بالفخ: وإيش شرطك؟

نعدي لموثق العقود غادي ن فك الشراكة، تكتب لي تعهد بأنني خالي المسؤولية من كل ما يتعلق بالشركة من ارتباطات مالية، وأي ارتباطات أخرى خاصة سواء بعقود الشركة أو بغرامات وزارة الإسكان، حتى شطب الشركة من العمل.

- وإيش قصدك من هذا؟

- أنا ما نبيش نخدعك، أنت مثل أبوي... أنا نترك لك رأس المال والأرباح بيش أستطيع العمل مع الإسكان من شان بنتك، وابنها اللي مازال في بطنها.

كان وقحا ويعني وقاحته ويقصدها، استفز الحاج فورا ورفض العرض قائلا: لا... أنا نفض الشراكة وتتحمل أنت المسؤولية... كيف ما ديرتها كيف ما تنهيهها، ليش أنا ما إلى أولاد بعد!

لكن عمر الذي كان يتوقع رفض الحاج، أجاب بحسم: لا يا حاج... نبي الموضوع ينتهي اليوم، كلك ما تبيش أترك... أترك أنت، وأنا نعطيك نصيبك عيني، أنا نتحمل الخسارة، نكتب لك تعهد ووكيلى الله.

- شنو قصدك؟

- توا نعدي نعطيك الفلوس بيش تسوي اللي هاداك، ونكتب لك في تعهد اللي بيش تبيه من شان ابني يجي الدنيا لجد ما يكرهه.

أجاب الحاج وكأنه يلتقط غير مصدق لطوق نجاته: توا!!.

- أقسم بشر في توا

- باهي وأنا موافق.

أمام موثق العقود تراجع الحاج يطلب 10% زيادة، وأرغى عمر وأزبد، وعندما تدخل صديقه للضغط عليه، يمثلون دور المقرب لوجهات النظر، أجاب بأنه موافق على أن يدفعهما هذه المرة معدات مستخدمة بقيمتها الأصلية، لكن الحاج رفض وهو يقول: حتى الشيك ما نقبلوش.

خرج عمر غاضبا من مكتب موثق العقود على أن لا يعود، وبقي صديقه حتى انتهت كتابة العقود، كي لا يترك للحاج فرصة للمراوغة، لاحقا بعمر وعادا به، عندما أخذ كل منهما نسخته، ارتسمت الابتسامة على وجوه الرجال الثلاثة، لم

يلحظها سوى موثق العقود، لكنه وقد تعود ذلك، وحصل على نقوده لم يأبه بشيء، ما دام أن كل شيء قد تم قانونيًا.

بعد ثلاثة أيام جاءت ثريا رسالة من المصرف تنبئها بأنه تم إيداع عشرة آلاف دينار في حساب جديد باسمها، ولما كان فض الشركة قد تم، والجميع يعلم أن أبها حصل من عمر على أفضل الشروط، وأن الخلافات لم تتطور إلى الحد الذي يسبب إحراجا لها، وأن زوجها قد وفي بوعدده لها، وأن الأمر سيبقى رغم ذلك سرًّا حتى عن أهلها، وبعد أن قلبت الأمر من جميع الوجوه، مالت كفة زوجها وشعرت بحكمته رغم انفعاله عليها في تلك الليلة لحد الأذى، لقد ظلم نفسه أمام أبيها... ولم؟ أليس من أجلها؟

راق لها زوجها واستكانت لسيطرته، أما التخيلات التي حلمت بها وهي عذراء قبل زفافها إليه، شاب تحلم به أي فتاة فارسًا لأحلامها، وترقص طربا وسرورا لفحولته، فقد روعت كانهيار مفاجئ لبناء شامخ ضخم، عندما باغتها على فراش الزوجية بصفعة كراهية لم تتح لها حتى أن تتساءل عن السبب، ولم يكن قد مضى- على زواجها أسبوع، اعتبرت ما جرى لها سرًّا كآلاف الأسرار غير المفهومة في حياتها، سر ليلي لا يجب أن تفهمه، فقط تقبله كما تقبل آلاف الأسرار القابعة خلف هذا الليل العريض، ولهذا انكمشت وسكنت بلا حراك، وأصابتها برودة ألقّت بركام من الثلج فوق رغباتها الحسية البسيطة، والتي تراجعت عميقا إلى قاع اللاشعور،

لم تعد تذكر من ساعات الليل القليلة التي تلتقي فيها وعمر
إلا الألم القدري الذي كان يصيبها من أفعاله معها، والذي
نتج عنه في النهاية ابنتاهما صباح...

وعندما ارتفع صوت أختها الصغرى خيرية، في وجهها
صارخة بمقت وكلاهما على باب حوش أبيها، والجميع
يحاول إقناعها بهجر زوجها تأديبا له: كلك أنت يا ثريا
(ورفعت يديها تصفق في حنق) أنا نبي نعرف، كيف يخرج
عمر هذا من طوع باتك؟ وبعدهك معاه، والله، والله... المرة
أن ما كانت تجعل من التيس بتاعها كيف الأرض التي تمشي-
عليها ما تصير مره.

وسألته ثريا وهي تقف أمام باب سيارتها ضاحكة: وكيف
تصير.

- تصير عبده، أنا نبي نعرف، إيش يدير إمعاك؟

أجابته ثريا بغنج وهي تجلس خلف مقود السيارة: بيدير
كيف ما يدير... أنت بعدك صغيرة...

وانطلقت وخلفها صرخة غيظ من أختها، ولما ابتعدت
عن حوش أبيها أصابها اكتئاب.

مر وقت طويل قبل أن تعي الحقيقة التي ما كانت
لتصدقها، لم تسعى لذلك، لكن الأحداث توالى بعد فض
الشركة، وكانت قد قدمت لزوجها شتى الأعذار، واختبأت
خلف غلالات سعادتها الوهمية، وتغابت كثيرا أمام أسرته

وأمام الضغط الشديد الذي مورس ضدها، والذي لم تقف إزاءه سلبا، بل دافعت عن زوجها بحرارة، رغم السحب السوداء التي أخذت تطل من هنا وهناك، ولم تمضِ شهور قليلة حتى خرج إلى السطح ما كان مخيفا، ففي أحد الأيام رحلت كي تزور بيت أبيها، فاستقبلها سيئ المزاج، يصب عليها جام غضبه دون أن تدري سببا، وعندما سألت أختها خيرية، أجابت في نبرة يشوبها الاحتقار:

- أيوه... تو اتديري نفسك ما تعرفي شيء، خلاص موال الهبل هداكاهي ما ينطلي علينا.

أجابتها بخشونة، احترمي نفسك، ردي بالك تكويني مؤدبة، ما يعلموك الأدب بالمدارس؟

عادت إليها خيرية تنوي عراكا حقيقيا: الأدب هدا اللي تتكلمي عنه، ما نتعلمه في المدارس غادي، أنا نتعلمه في حوش باتي.

جذبتها أختها الكبرى سلمى إلى الخارج، وكان زوجها على علاقة قوية بعمر، فاتخذت موقف الحياد، حكّت لها ما لم تكن ثريا تعرفه وجرى في بيتها وأمام زوجها: باتك جاء عندي ووجد عمر مع زوجي، لم يحبه وسأله غاضبا: ككك أخذت عمل بطرق؟ أجاب عمر بالإيجاب، فسأله بوك ليش ما خبره. فتعلل عمر بأنه لم يبدأ العمل بعد، باتك قال له: أخذت عملاً من الجيش من وراء ظهري، وفي وقت كنت أنا وأنت شركاء، ليش ما خبرتني؟ ولم ينكر عمر شيئاً سوى أنه

وقع العقد حديثاً، لكن باتك قال له. كذك تكذب؟ العقد اللى وقعته مع الجيش وقيمتة نصف مليون دينار، أنا وأنت شركاء فيه، ضحك زوجك وقام تارك بوك يرغى ويزبد بعد أن خسر عقداً بنصف مليون دينار.

قالت ثريا: عمر ما يدير هك.

صاحت أختها مندهشة: تكذبينى يا ثريا... أنا كذابة.

قالت ثريا منزعجة: يا سلمى، هادي الشركة انفضت، ليش يخرج القديم.

دخل أبها كالصاعقة: إيش يخرج القديم يا قحبة، فلوسى أنا، فلوسى اللى سرقها جوزك.

أجابته فى تحد: عمر ما سرق شىء، اللى تم بينكم تم بالقانون، كان فيه محام ووكيل نيابة.

صار هيك، وبتردى على. وانهاى عليها صفعاً.

صاحت: ليش تضربنى يا باقى؟

أجابها: ونقتلك...

قاطعته خيرية بحقد: وإيش فيه؟ أنت ما تستحقى حتى القتل.

- ليش... أنا كنت سرقتمكم... قتلت حد منكم؟

- لا... زوجك يا ناصحة... زوجك سرقنا، ونبى ناخذ فلوسنا.

- زوجي ما سرق حد.

صرخ أبيها وأختها تقف شامطة: وكم ان تكذبيني يا
موسخة... ما تخرجي من الحوش حتى يجي التيس اللص
زوجك، بيش نتحاسب أنا وياه.

صاحت بتحد وهي توشك على البكاء: لا... ما بظل هنا
دقيقة واحدة... أنا نبي نروح حوشي.

بهت الرجل للحظة، ثم انهال عليها ضربا بقبضتيه
وقدميه، يشفي غليله من زوجها حتى وقعت على الأرض،
وأختها سليمة تصرخ به أن يتوقف خوفا على الجنين، دون
جدوى وهو يفح في وجهها:

- حوشك هنا... عرفت ولا لا... هنا حوشك.

خرج تاركا إياها تبكي في حرقة، وسليمة تطيب خاطرها،
صعدت خيرية تجمع الملابس من السطح، سوت من
هندامها، تسللت عبر صحن الدار، شاهدتها خيرية
فصاحت بها، وهي تنزل مسرعة تحاول اللحاق بها ألا تفعل،
لكنها كانت قد عبرت الباب الخارجي إلى عرض الطريق.

* * * *

دار الحاج رمضان يستشير أصدقاءه من ذوي الخبرة
والمتخصصين، يسعى بشتى الطرق كي يجد وسيلة لاستعادة
وجوده بالشركة، أو إعادة حل الشركة على أسس جديدة
يضمن بها له نسبة من أرباح العقد الجديد دون جدوى، فقد

صاغه أصدقاء عمر صريحاً جازماً في كل بنوده، فقد توقع عمر تصرف حميه، وكلما راجع الحاج أسعار العقد الجديد، والذي سيتولى أمره المنطقة بها الملازم أول البرغثي أحد أصدقاء عمر القدامى، وأحد الذين زينوا له فض الشركة، استثير وهاج واحمرّ وجهه من شدة الانفعال، كان يريد على الأقل بقية رأس ماله، فلما فشلت كل الطرق والأساليب لجأ إلى المجالس العرفية، عندها خيم على عمر الارتياح وتيقن أن معركته الأولى قد انتهت، في النهاية خرج الحاج بعد عناء بعشرة في المائة من رأس ماله في مشروع الإسكان، بعدها قفل غاضباً وقد أصابته الخديعة في الصميم، وهو يلوم نفسه، لو تروى قليلاً لكان الآن يفرض شروطه وهو هادئ مطمئن البال، كي يقوم على مشروع يبلغ رأس ماله نصف مليون دينار، فأخذ يسأل نفسه، ويقلب رأسه يميناً وشمالاً، وأدار كل ما في جعبته من فكر، فلم يخلص إلا بنتيجة واحدة، سرق بوزوي وزارة الإسكان وسرقه.

* * * *

مع مرور الأيام التّأمت جراحه قليلاً، وفي صباح يوم مشرق مر صدفة على مكتبه القديم، وجده وقد أعيد طلاؤه، فبدأ جديداً، تحيط به حركة شديدة لم يعهدها من قبل، وقد برزت من نوافذ الحجرات مكاتب ودواليب ودوسيهات، على أن ما لفت انتباهه حقاً «اليافطة» العريضة الضخمة

التي صنعت من النيون، خلع نظارته كي يتأكد مما قرأه فلما أعادها إلى عينيه قرأ بوضوح.

” مؤسسة النصر ”

” لصاحبها ومديرها عمر بوزوي ”

وأسفلها وجد رسمًا ملونًا لنسر- فرد جناحيه لأعلى، وقد أمسك بمخالبه كرة صغيرة لخارطة العالم، وأمام المكتب وجد السيارتين الوحيدتين اللتين كانتا يمتلكهما، وقد رقت الأولى برقم 2 والثانية 12، ولم يكن عمر يملك شيئاً آخر عداهما، وقد طبع على جانبيهما علامة الشركة: النسر- المجنح فوق اسمه واسم الشركة.

ولو أن العالم اجتمع على إثارته، ما أثاره مثل هذه اللوحة فعاد إلى حوشه وعفاريت العالم قد تجمعت حول رأسه، حتى قرر أمراً.

رن الهاتف بدار عمر بوزوي، ردت ثريا، سألتها خيرية بصوت ناعم إن كانت لا تزال غاضبة، فنفت ثريا الأمر، سألتها أن تعودهم، وتعلت بصحة أبيهم، فلما ذهب إلى دار أبيها استقبلتها خيرية ببرودة، الأمر الذي أدهشها، ولم تمض ساعتان حتى حضرت عماتها وخالاتها وثمانى نساء أخريات، كل منهن تملك بوضعها في العائلة حقوقاً عرفية ذات اعتبار قوي، حتى داخل القضاء الشرعي، تلك الحقوق الأبوية التي تطول المرأة حتى داخل منزل الزوجية.

جلست النساء في المربوعة يرتدن الجرد، ولم تكن سواها من بينهن سافرة ترتدي الملابس الإفريقية، شعرت بعيونهن تخترقها، تلملت والحرج يملؤها، عندما عاد أبوها سألهن سؤالاً عابراً متجاهلاً إياها إن كانت أحضرت ثيابها معها، جاوبته خيرية بسرعة بعدم أهمية ذلك، فبإمكانها أن تستعمل ثيابها هي، وتساءلت ثريا على الفور: وليش أحضر- ثيابي؟

فلم يلتفت إليها أبيها وخرج على الفور، جاءها حديث النسوة وفي مقدمتهن خيرية: ليش زعمك تردي حوش عمر... ردي بالك تخرجي من هنا إلا لما يجي ياخذك، هيك قال الشايب باتك.

- يا بنيتي... بوك راجل كبير وتحترمه الحضر- والبوادي، وما يصير أن الوليد هذا يضحك الناس على باتك.

قاطعتها ثريا: الوليد منو؟

- عمر.

- عمر منو؟

- عمر زوجك.

- أنا زوجي مو وليد... أنا زوجي راجل وسيد الرجال.

- اخرسي...

- أيوه... عيب يا ثريا يا بنيتي هادا كلام!!... باتك هو اللي سيد الرجال.

- مو عيب إلا العيب... وانتو تبو تخربوا بيتي.

- حوشك حوش باتك.

- حوشي حوش زوجي.

قالت كبرى عماتها: لها الحق الفاجرة، ليش ما تلحس كراعيه... كاشف لحمها وطالقها بالشوارع وحدها بالسيارة كيف المصريات القحاب...

أكدت أخرى: باتك له حقوق ولازم ترجعي له.

- دخلي إيش... أنا ما لي دخل، بوي وعمر يديروا كيف ما يديروا، باتي هو باتي وزوجي هو زوجي.

- كيف مالك دخل يا بنيتي؟

ردت تحادث خالتها التي نطقت توا:

- إن ظليت يوم واحد، عمر حالف يمين بالطلاق ما يجي، وإن ما روحت حوشي يطلقني يا حنا، عرفت يطلقني... حتى ربنا ما يرضي بهذا.

أجابتها خيرية: عشان هيك خيفة.

وقالت العجوز: وإيش بيه لما يطلقك... تظلي بحوش باتك، وتتجوزي أحسن منه.

- والوليد هذا اللي ببطني، أولع فيه، أحرقه... أقسمه نصين، نص لبوه، ونص يظل عندي.

ردت النسوة جميعهن بطبيعة وتلقائية وصدق اجتماعي:

- يطلقك يا بنيتي... ليش تخافي.

- باتك يربي وليدك كيف ما رباك.

- نشهد الله الطلاق خير لك... الطلاق مو عيب... أنا تزوجت أربع مرات، وكل تريس ما يدخل من الباب هذا، موش كيف الولد هادكاهي هزيل، وما كان يمر شهر وشهرين إلا أكون في حوش باتي، كان الرجل منهم يجي ورأسه تحت كراعيه، وما نعود معاه إلا بعد ما يدبح عشرين حولي وبهيم، ويوزعهم كرامة لأهلي ولباتي، وما أعود إلا لما يدفع لباتي التفتوفه الذهب، وأنت تظلي عام ما تردي حوش باتك، ليش إيش يدير فيك؟! والله وعزة نبينا محمد، إن ما تديري كيف هك يتجوز عليك ويرميك كيف الكلاب، أنا بنيتي نعرف الرجال، إن ما كانش الراجل يدفع الألف دينار وراء الألف دينار بيش يظل مداين ومستلف يعدي يجوز المرة بعد المرة، أنا نقولك مرحبا، وإن كان ما يريد؟ يعدي يطلقك عشرين تريس⁽¹⁰⁾ يبوا نسب بوك.

⁽¹⁰⁾ تريس: رجل (لهجة ليبية)

تحلقن حولها مثل آلهة الشر، ووجه زوجها المتوعد
يخبرها بمصيرها، سقطت في بئر الحيرة المظلم، كل هؤلاء
النسوة لا تستطيع أن تعصي- لهن أمراً، كانت بين فكي رحي
أبيها وزوجها، كلاهما يضغط بكل ثقله، يطحنها دونما ذنب
اقترفته، ولكن من هي الفتاة التي تعصي- أباهـا... بكت تسأل
نفسها: سوف تتركه خيرية بعد عام، فهل يريدني؟ انتفضت
مذعورة تصرخ... لا... لا... أنا نعدي لحوشي.

سدت خيرية الباب أمامها وهي تقول: هذا حوشك.

هزت ثريا رأسها وتصرفات أختها مستعصية على الفهم،
وأمسكت النسوة بتلابيبها يمنعنها من الخروج، قالت لأختها
بصوت خفيض:

- أنت تكرهيني.

- أنا نحب باتي.

- تكرهيني...

صاحت خديجة والنسوة يجذبونها لأسفل: أنا نحب
باتي.

وثرىا ترد عليها: وأنا نحبه...

أجابتها برود الجلادين: أنا نعرف... وأذ كنت بتدفعي
الثلث.

- وعمر...؟!!

- شنو عمر هذا؟

- عمر زوجي... استدارت للجميع ترجوهن... أنا ما لي دخل... أنا نروح حوش زوجي ويدير التين كيف ما يبو. ردت خيرية ولسانها حاد كالسم: لا... أنت لك دخل... أنت كذابة.

لا أنا ما لي دخل.

بكت ثريا بشدة، ورفعت رأسها لخيرية وقد هالها أن تشتمها أختها الصغرى، صرخت بها من خلال دموعها، وشعرها المنسدل على وجهها: أنا ما لي دخل... عيب خيرية. أجابتها بإصرار وهي تنحي عليها بغلّ: أنت كذابة.

شعرت ثريا بالهلع وقد ظنت أن أختها تنوي ضربها، ارتعدت وهي تخلص يدها من إحدى النساء لتندفع في وجه أختها وهي تصرخ بها: اخسي... أنا مو كذابة.

ارتدت خيرية إلى الورا لقوة الضربة، ولكنها عادت وهي تجز بأسنانها، وفي عينيها يفح بريق الحقد والدموع، قالت: أنت كذابة وعمر عطاك عشرة آلاف دينار بيش تبيعي باتك.

صرخت ثريا: مو حصل.

- حصل.

- وكيف عرفت؟

- هذا ما يهم وباتك يدري كيف خدتيه.

- ما حصل بكل.

- حصل وأنت كذابة... اضربي لو عندك الشجاعة...

قومي.

أمسكت النسوة بكتيهما يحاولن أن يفكوا ما بين الأختين من اشتباك، دخل الأب وأخذ يصفع ثريا بعنف، ويركلها بغل وحقد شديدين، وهو يصيح رداً على سليمة التي كانت تذكره بالجنين، تحمي جسد أختها بجسدها من ضربات أبيها العشوائية:

- أنا ما أريد هذا الجنين، اقتله، ما يترك لهذا السافل أثر في بيتي، لا أريد صغاراً منه في بيتي.

تذكرت ثريا كل هذه الأحداث، وهي تعيش صخب الأعداد للعرس الجديد، تمشط لابنتها شعرها، وتلقي عليها النظرة الأخيرة قبل أن يذهباً للركوب في سيارة ونيس كما تخطر الأحلام وترحل، في تلك الليلة استيقظت بعد منتصف الليل بساعات، وجسدها يؤلمها، والكدمات التي خلفها حذاء أبيها بقع حمراء من الدماء تنتشر على جسدها، نهضت بصعوبة ولما استوت شعرت بجنينها يطرق بقدميه بطنها، تأوهت من الألم، وابتسمت، شعرت به يقول لها إنه بخير، فنامت مطمئنة البال رغم الألم الذي ينتشر على طول جسدها.

في صباح اليوم التالي خرج أبيها وبعده خيرية التي رحلت إلى المدرسة، وقد أغلقت الباب وراءها بالمفتاح والقفل،

يومان ظلت ثريا بحوش أبيها تبحث عن مخرج لورطتها، وعينا أختها تتابعها تمشي- الهويى مرفوعة الرأس مثل شهيدة متوجة، وقد ارتفع بطنها أمامها، تصنع طعامها بنفسها وتتناول الشاي وحيدة، لا تستجيب إلى الإهانات الموجهة لها من الآخرين، لم تضحك إلا عندما أظهرت لها سليمة في اليوم الثالث الكدمات التي امتلأ بها ظهرها من جراء حذاء أبيها وهي تدافع عنها، حتى إنها عافت زوجها خوفاً من أن تستلقي تحته، وما زالت ثريا تحتفظ لأختها سليمة بالجميل ليس لكونها حمتها من ضربات أبيها، ولكن لأنها أنقذت حياة ابنتها التي لم تولد بعد، ولم طلبت منها أن تعينها على الخروج والعودة لزوجها، فكرت سليمة، وذكرت أنها ستأخذ خيرية لمنزلها حيث تظل عندها حتى يوم الجمعة، وستسرق منها المفتاح، وثرىا تستحلفها أن تفعل وهي تبكي.

في الرابعة من ظهر اليوم التالي، وثرىا وحيدة بالحوش تدور فيه مثل لبؤة محبوسة في شرك، طرق الباب وسمعت صوت غلام صغير، فأسرعت إليه وهي تتعثر، سألتها قائلاً:

- الحاج رمضان موجود؟

- لا.

- هذا منزله.

- نعم.

- وهل أنت ثرىا؟

- نعم، راك جيت ومعاك المفتاح؟
- هاك، تحت عقب الباب.
- مدت يدها تأخذه، لكنها صرخت قائلة:
- انتظر وإيش أعمل بيه... افتح القفل من عندك.
- لا... خاله سليمة أعطني المفتاح، وقالت لي أعطيه لثريا فقط، ما قالت لي أفتح الباب.
- ترى أفتح الباب، أنا نعطيك في دراهم.
- كم؟
- مائة درهم.
- دينار باهي.
- باهي افتح الباب.
- دخلت مسرعة، تخطف جردا لخيرية، وتلقي به على جسدها وعادت تظن الباب مفتوحا، هزته فبقي مغلقا، نظرت من ثقب الباب، صاحت بالغلام وهي ترتعد:
- ليش ما فتحت؟
- وين الدينار.
- كادت تهوي من الهلع وقد حان ميعاد عودة أبيها، وددت لو تقلع عيني الغلام، وأسرعت إلى الداخل تبحث عن نقود، وجدت نصف دينار، ألقته له.

- لا يا حنا... أنا شبعت من الوعود، كل من في رأسه
ينفذه.

دارت على عقبها تفتش في كل ركن من الحوش، في
النهاية وجدت دينارين، ألقت بواحد منهما له وهي تصرخ به
أن يفتح، تعلق الغلام بالباب بعد أن وضع الدينار ونصف في
جيبه بهمة ونشاط، يحاول فتح القفل، كاد أن يسقط قلبها
عندما سمعت صوت سيارة بالخارج، فتح الباب وظهر ضوء
الطريق وقد ظنته أباهاء، ظلت تنظر إلى الباب لحظات، فلما
لم يبدو أحد، انطلقت إلى الخارج، أعطت الصبي المفتاح كي
يعطيه لسليمة، ولم تمض لحظات حتى غابت في الطريق
عائدة لمنزلها.

* * * *

لم تمض سنة حتى عادت العلاقات بينها وبين أسرتها كما
كانت عليه من قبل، على الأقل بشكلها الظاهري، أما
المشاعر فقد تغذت بسموم الحقد، فأبوها وأختها كانوا
يرون في زوجها مخادعا كبيرا، وأن ما هو عليه الآن هو لأبيها
مناصفة، على حين كانت خيرية ترى في عمر بوضوح رجلاً
نشأ من كتفي أبيها ومن ماله، ثم ألقى به غدراً.

ولكن للزمن أحكامه، فالقوة التي كانت تصعد دون توقف
في سماء العلاقات السياسية والقلبية، كانت عاملاً رئيسياً في
تقليص مساحة خصومه، وزيادة رقعة نفوذه، كان متمتعاً
بكافة الامتيازات المادية والعينية والاستثناءات القانونية

التي يتمتع بها من كان محميًا بالحماية التي يحصل عليها من
يتعامل مباشرة مع العسكر وأصدقائهم المقربين، لذا كان من
الضروري أن تعود تلك العلاقات بين الأسرتين، فاسم بوزوي
ما لبث يرتفع في سماء بنغازي حتى صار واحدًا من اثنين، كان
من الضروري أن يوغل الجميع في مشاعرهم الباطنية
المؤلمة دون وعي أو بوعي، بمبررات عقلانية، أو بدونها،
فقط كانت الأمور يُدفع بها إلى مصير محتوم.

* * * *

الفصل السابع

لم يهدأ حميدة للحظة، فما أن انتهى الركب وبلغ الفيلا حتى انهمك في إجابة الطلبات التي انهالت عليه من كل صوب، يسارع إلى وسط المدينة بسيارته، يشتري عشرات الأشياء الخاصة بالطعام والكهرباء والعطور واحتياجات العرس، يتأكد من وفرة المشروبات المثلجة وكميات الحلوى والمشهيات، فالحفل قد بدأ لتوه، ولا يزال أمامه الكثير، استقبال الضيوف نسوةً ورجالاً وفتيات، قاعة الاستقبال الخاصة بكل منهم، دعوة الضيوف لتناول الطعام، يدور في الأتحاء مثل النحلة، يتأكد من نظافة وتوفير الأواني والشوك والملاعق، وترتيب المائدة وتوزيع الأصناف بالتساوي ووفرة كمياتها، في كل ركن من أركان الموائد، والضيوف يتناولون الطعام مجموعة تلو مجموعة.

في البداية جلس شيوخ درنة وكبار عائلاتهما، ثم أصدقاء عمر ومعارفه، أدهشته القوة والعلاقات التي بلغها أخوه، كان

يسمع بها قبل ذلك، أما الآن فإنه يرى كبار أعمدة المجتمع الليبي الحديث يجلسون على مائدته، ولم يكن يستطيع أن يقنع نفسه بأنها مائدة ناصر العريس، فكيف لناصر أن يتعرف على رجال ينتمون لأعلى مراكز السلطة في الحكومة والجيش والشرطة والمال والمقاولات والبنوك في آن واحد.

تلا ذلك أصدقاء العريس من الذين يعملون تحت إدارته في شركة التأمين، المهنيين من شركات التأمين الأخرى، أقاربه الذين أصروا أن يكونوا آخر من يجلس على المائدة، هم أهل الدار، ونيس فقط الذي لم يكن له أصدقاء في كل هذا الجمع، فعودته من ألمانيا لم يمض عليها شهران بعد، وإن فعل لكنا وجدنا مستشفيات بنغازي كلها هنا، وحمدًا لله أنه لم يفعل.

عندما شارفت موائد الرجال على الانتهاء، تهيأ للخروج من المطبخ، وذهب ليرتدي جاكته السوداء الطويلة، المزدانة بصفين من الأزرار النحاسية الصفراء، على أنه لمح ارتباكا شديدا بالمطبخ إذ بدأ إعداد الموائد للسيدات، وكانت هذه منطقة محرمة عليه، فكر أن يساعدهم دون دخول حجرة الطعام، لمحت أخته عائشة تردده فنادته: كنك تنكسف، عدي بالصحون غادي ما في وقت.

أطاعها دون تردد، لم تعترضه أخته المشاكسة صديقة، انهمك معهم، عندما انتهت المجموعة الأولى من تناول

الطعام، وكن من العجائز اللاتي تلفحن بالجرد والذهب،
أزيلت الأطباق وجهزت المائدة من جديد.

عندما صفت المجموعة الثانية، نادى عليه عائشة من
الداخل تدعوه للإسراع بإحضار السلطات، اندفع حاملا
مجموعة منها على صينية كبيرة، وعلى باب حجرة الطعام
وقف مذهولا، هتف: هذا ظلم... مشهد الله هذا ظلم...
والله هادول أميرات ياربي... حتى مائدة الملك إدريس ما رأيت
هيك... أنا نعدي نرجي في ونيس...

وضع الأطباق على المائدة وقد اعتلى وجهه حمرة خجل
شديد، يرد على النساء تحياتهن، وقد اصطف على المائدة ما
يقرب من ثلاثين امرأة وفتاة تراوحت أعمارهن بين العقد
الثالث والرابع من العمر، أجساد ممشوقة ترتدي أجمل
فساتين السهرة التي صنعت بباريس وروما، وظهور غطت
بشالات من الفرو والحريير، وجيد حسان وصدور وسواعد
بضبة، اختفت تحت أرتال من الذهب وعقود الماس، وعلى
رؤوس كل منهن تاج من أجمل التسريجات التي انصاع لها
الشعر الأجد الطويل الفاحم السواد. لمحتة عائشة يخرج
مسرعا، نادته في غضب: وين رايح؟.

مال عليها في اهتمام: أنا نعدي نجيب في ونيس.

- وليش تدور في ونيس؟

- بيش يجيء يدور في عروسة.

شهقت: عروسة!!

- أيوه عروسة، وإيش فيها، ما في مناسبة يشوف بنات
بنغازي كيف اليوم.

أصابتها نوبة من الضحك، مالت على ثريا وقالت: حميدة
يعدي لونيس بيش يجي يدور في عروسة. استدارت له قائلة:
ها دول كلهن متزوجات... صبي شوي، توا الصبايا يجن.

استدار في حرج، على أنها عاجلته قائلة في خبت:

- وعليش تهتم في ونيس... اهتم بنفسك يا أخي.

هز رأسه وهو يهتف لنفسه... معقول... كلامك معقول،
هذه فرصة لا تعوض... لكن أتأكد ونيس يحصل فرصته
الأول.

أسرع للخارج، خاض وسط الحشود الضخمة من
الضيوف، حيث تجمع الشباب للرقص في صفين طويلين،
وفي الوسط وقفت الحجالة، اشدد التصفيق وعلا،
وتصاعدت أغاني (العلم)⁽¹¹⁾، عدل هندامه يود لو يبقى، لكن
البدور اللائي سيجتمعن لتناول الطعام بعد قليل، أطاح
بفكرة البقاء وأسرع يبحث عن ونيس، وجده جالسا بين عمر
وناصر والحاج بوشناف والد العروس، وأبوه الحاج مفتاح،
ووالد ثريا زوجة أخيه الأكبر عمر الحاج حمد بن رمضان،

¹¹ (أغاني (العلم): نوع من الشعر الوطني للبادية الليبية، يتكون من بيت واحد.

يجلسون على أطراف حمام السباحة، فكر... ها قد اجتمع آل بوزوي وأصهارهم.

كان ناصر مكتئبًا، تذكر الهمسات التي ترددت في الأيام الأخيرة عن عدم قبول العروس الزواج، وأنها مرغمة على الاقتران بأخيه، تكدر وامتلأ قلبه بالهم، لاحظ أن عمر لم يكن يأبه بما يحدث حوله، لاهو ولا أبيه، دفع تلك الخواطر عن نفسه، صديقة هي الوحيدة التي عبست في وجهه، رغم أنها لم تنبت بينت شفة، وهي تساعد في تجهيز المائدة... باهي ليتحمل باي وعمر مغبة اختيار عروس ناصر، ولأتفرغ أنا لاختيار عروس ونيس.

- ونيس... ونيس... التفتوا جميعا نحوه فاستطرد محييا إياهم: خير... نبي ونيس.

قال أبوه: تعال سلم على الضيوف.

تقدم محييا، قال أحدهم: مرحبا بالمهندس حميدة.

- بعد ما زال. أنا بالسنة الأولى.

عقب الحاج حمد والد العروس: باهي... أربع سنين وتصير مهندس، بيث تدير أعمال عمر وما يحتاج لمازجرية، وخمس سنين آخر وتصير مثله.

أجاب حميدة بعجلة: باهي... أشكرك... مال علي ونيس هامسا... أنا نبيك في المطبخ غادي، تعال تواء، ما توخر.

ابتسم ونيس: إيش فيه؟

- تڃي وٻس... باهي.

هز وٺيس رأسه موافقا: باهي.

وابتعد حميدة تلاحقه خواتره.

* * * *

الفصل الثامن

تعجبني ابتسامة ونيس... لكن أنا حميدة ما أصير كيف
عمر ولا أدير له شغل بوكل، أنا أصير حميدة... حتى بنغازي
كلها ما نبيها... نظر إلى أسرته لم يكن قد اكتمل جمعهم مثل
اليوم، مضي- على ذلك زمنا طويلاً... أيام كانوا جميعاً في
القبّة... عائشة لم تتزوج بعد، عمر، ناصر، ونيس مازالوا
طلاباً، وأنت لم تتعد العاشرة من عمرك... تلك الأيام كانت
بهيجة، أبهج ما فيها الأفكار الصغيرة، التي نمت وأينعت بين
هضاب الجبل الأخضر- وقممه السامقة... يتشكل الجسد
والروح منه، وعلى مروجه ينمو العقل ويمتلئ بتلك الأسرار
الصغيرة التي يتوجب حلها، مثل كيف تكسب الأسرة رزقها؟
هذه التي يدعونها الكسارة؟ شيء مجهول يقع أبعد مما يصل
إليه النظر، لا يحاول أحد من إخوته أن يطلعه عليه... تأتي
الشاحنتان من حين لآخر بقيادة بريك السائق العجوز،

لطالما ربت على رأسه كلما شاهده، أو بقيادة جبريل الذي يكونه بالعبد الأسود، رغم أنه لم يتوان عن أن يلبي له طلبه بأن يركب بجانبه، ويسوق به قليلا حتى ولو داخل القبة، أم أن أباه يتكسب رزقه من رعي الأغنام، وبيع صوفها الوفير الذي يجزونه جميعا بعد مرور الربيع ومجيء الصيف، المشكلة التي ظلت مبهمة لديه كيف يستطيع أبوه أن يدير كل هذا.

بالطبع أيام كثيرة تمر دون أن أراه، فقط أسمع أنه جاء في الليل ورحل مع الفجر. لا شك أن هذا هو السبب الذي يجعله لا يهتم بنا كثيرا... أما كيف تلد الخرفان، فهذا أيضا سر عجيب لكن الجميل حقا هو تلك الحملان الصغيرة عندما تمد أقدامها الأمامية كي تحاول الوقوف بعد خروجها إلى الحياة بنصف ساعة فقط من بطن أمهاتها وقد تصاعد ثغاؤها... ماء... ماء... إلى هذا الحد يصبح الماء مهما لهم!!

أختي الصغيرة صديقة لماذا لا تحب أمي مثلما تحب أمها؟ كما تفعل أختي الكبيرة عائشة التي لم ألاحظها تفرق في المعاملة بين الاثنين، أما هذه القردة فهي لا تترك حضن أمها قط ولا تذهب إلى حضن أمي... أنا شخصيا لا أذهب إلى حضن أحد.

الشيخ عثمان يقيمون له كل سنة مولدا، يضعون على ضريحه علما أبيض، هل يستطيع حقا أن يستجيب لرغبات أمي ويجعل أبي يحبها ويحبنا أنا وونيس وعائشة أكثر من أن

يحب امرأته الثانية وأبناءها عمر وناصر وصديقة كما أخبرت
جديتي أمي وجعلتها تذبح له خروفا صغيرا اشتريناه سرا... أنا
أرجو ذلك ولكن من يدري أمي أن امرأة أبي لم تفعل الشيء
نفسه...

لعلها لا تعرف الشيخ عثمان أو لعل الشيخ عثمان لا
يعرفها، فيجعل أبي يحب أمي ويحبنا أكثر. ولكن إذا كان
الشيخ عثمان عالما بكل شيء حتى أن قرينتنا تذبح من أجله
الذبائح وتوزع النذور في مولده، أليس من المؤكد أنه يعرف
اللاثنين... فإذا توجهوا إليه بنفس الرغبة في إلى من يستجيب؟
أمي أو امرأة أبي؟ على أية حال هذا يتوقف على أيهما سيذبح
خروفا أكبر أو يوزع نذورا أكثر.

على أنني أحمد الله أنني قد جئت ولدا ولست فتاة...
هكذا تقول لي جديتي، فلو أنني جئت بنتا ما تعادلت القسمة
ولصار لدى امرأة أبي ولدان وبنت، أما لأني جئت ولدا فنحن
نتعادل والقسمة ستكون متعادلة فحمدا لله، وللشيخ
عثمان الذي انتبه إلى هذا الموضوع وإلا كانت ستحدث
مشكلة.

لكوني أصغرهم يجد الكل ما يشغله ويهملي، هذا سيء،
فأبي لا يراني، وعمر دائم الشجار مع أبيه ومعنا، لا يريد
الذهاب إلى الكسارة، لا يريد أن يتعلم قيادة الشاحنات
ليشتري أبي له شاحنة كي يكسب من ورائها مالا وفيرا. ولو أنه
يهتم بدراسته كما يقول أبي وامرأته، لصار موظفا مهما في

الحكومة، ولاهتم به الملك إدريس، ربما جعله صديقه، ولكنه مزق - ذات يوم في ثورة غضب - صورة الملك إدريس، وهو واقف وسط العائلة، فتمنيت أن لا يراه الله حتى لا يعلم مولانا بتقطيع الصورة، وإلا سيغضب من عمر كثيرًا، ولن يقبله موظفًا لديه، فقد قال أبي إنه سيحاول برغم فشله في الثانوية أن يعينه موظفًا في الحكومة.

أما ناصر فهو عادة الذي يتحمل رعونة عمر وغضبه، فكل هذا ينتهي إلى أن يقوم هو بما كان يجب على عمر عمله، سواء أكان الرعي بالأغنام، أم الذهاب إلى الكسارة، فكيف يهتم بي إضافة إلى دراسته، ولأن ونيس كما يقول أبي هو الذي سيستطيع أن يستكمل دراسته، ويصير معلمًا فقد كان على الدوام منهمكًا في مذاكرة دروسه ورعي الأغنام، ويكفي أمي أن تقوم بدورها في أعباء المنزل، فمن ذا الذي سيهتم بي إذا لم يفعل أحدهم، هذه هي المشكلة، فلو أن أحدًا فعل لكان أجابني... أين ينتهي الجبل الأخضر؟

قال عمر: عدي غادي... ولم يكن ناصر موجودًا فذهبت إلى ونيس وسألته... قال: عند البحر... تعجبت... ألا تساوي عدي غادي عند البحر وهل البحر بعيد؟ أجاب: بعيد جدًا.

- وماذا بعد البحر؟

- البحر واسع وعريض.

- وهل يظل البحر واسعًا وعريضًا

- إلى ما لا نهاية.

- إلى ما لا نهاية؟!

أجابني مفكرًا: لا... توجد أرض عليها ناس مثلنا؟

- نعم.

- لبيبين؟

- لا. يا حميدة... تتذكر الإيطالي الذي جاء مع أبيك الشهر

الماضي؟

- نعم

- يسكن هناك.

وعلمت أن خلفنا بحارًا من صحراء لا تنتهي، هيك نصير بين الصحراء والبحر، قال لي جدي الذي سافر كثيرًا، وبلغ يومًا واحة الكفرة ورحل إلى مصر، وأمضى- هناك سنة عند أقارب قبيلتنا في الفيوم؛ تعلم يا حميدة، يجب أن نشكر الله كثيرًا لأننا ولدنا على الجبل الأخضر.

- ليش يا جدي؟

- الصحراء... الصحراء يا ولدي.

هذا ما دفعني إلى انتظار اليوم الذي أخرج فيه إلى رعي الأغنام، فأتجول في أنحاء الجبل وخاصة في الربيع، في فصل الشتاء يعلمك البرد قيمة الحطب الجاف، ويعلمك المطر كيف يغسل الجبل جيدًا، وينظف حجارتها، وينقي هوائه،

ويجعل أوراق الشجيرات والأعشاب لامعة على سطحها قطرات اللؤلؤ، ولكن كيف يمكن أن أترك لأقدامي كل رابية وهضبة تحط عليها ناظري، حتى أبلغ الأفق.

أمام حوشنا الكبير زقاق ترابي تمتد على جانبيه أحواش ودور الأهل والجيران، خاصة من عائلة أمي، ثم تبدأ بيوت التنك الكثيرة المصنوعة من رقائق الصفيح المتموجة كأبواب الحوانيت، والتي يعمل أهلها في رعي أعداد قليلة من أغنام يملكونها إضافة إلى قطيع من الأغنام يملكه أحد الأغنياء، كان لي فيها أصدقاء، جمعة الذي يجلس بجاني في الفصل... حسن وعلي وآخرون غيرهم بل إنني كنت أحادث الفتيات الصغار... فمن السهل هنا أن تصطدم بأطفال وأغنام وماعز، وتخوض في البرك الطينية والروث في كل مكان، ورغم أن الأهالي هنا تعودوا إخفاء مداخل بيوت التنك بحرام من الصوف، إلا أنه كان بوسعك أن ترى نساء سافرات الوجوه، متلفحات بالجرد والرداء، وهو الذي لا يحدث في حوشنا أو في أحواش أقاربنا، وعادة كان هناك بيت أو اثنان رفعا الحرام عن مدخل بيت التنك قليلا... فهو حار جدا في الصيف يمتلئ بالهواء الساخن، الأمر الذي يتطلب وجود فتحات به من كل الجهات، وهو بارد قارص البرد في الشتاء، تظل قطرات المطر الغزيرة تدك سطحه وجوانبه بعنف، ولا تمضي- فترة إلا وتجد المياه ثقبا منفصلا كي تنفذ إلى الداخل حيث نجد دائما رجلاً أو امرأة أو طفلاً في مثل سني، تكون من نصيبه طوال الليل، وفي مرات قليلة ونحن نمارس

العابناء، يتسلل كل منا خلف الآخر وسط البيوت والعشش،
نُفاجأ بامرأة مستلقية في استرخاء تكشف عن سمانة ساقها
البيضاء أو تبرز صدرها من تحت رداؤها الممزق، أو فتاة
ممددة وقد انكشف جسدها... لا تأبه النساء بنظراتي
الفضولية، أما الفتيات فكن يسارعن بتسوية ملابسهن
وتغطية أجزاء أجسادهن المكشوفة، أحيانا كن يتصنعن
عدم رؤيتي، بينما يتابعن تصرفاتي خفية باهتمام...

عند آخر بيوت التنك يصبح ما عدا ذلك محرما عليّ،
فالبدو يخطفون الأطفال ويرسلونهم إلى بنغازي وطرابلس
وأحيانا إلى مصر... هكذا حذرتني جدي، وهذا أمر مؤسف،
فهنا أيضا يبدأ الجبل الأخضر- في اشتهاة السماء، رغم خيام
البدو التي تبدأ في التناثر بين الوهاد وفوق التلال على
مسافات متباعدة، تتحلق حولها النساء السود والسمرارات
بعضيهم القصيرة، يتابعون الحمير والبغال والكلاب
الرقطاء...

كان صيف 67 أسوأ صيف مر بنا، كنت قد انتهيت من
امتحانات الصف الخامس الابتدائي، وكانت صديقة تتبعتني
بعامين، وبدأ موسم اللعب، الرجال والعجائز يتحلقون طيلة
نهارهم، وشطرا طويلاً من الليل يلعبون السيجة، تسعا
وأربعين خانة، أربعاً وعشرين قطعة حجر مع كل لاعب، أما
أنا فقد كنت أجيدها عندما تكون خمسا وعشرين خانة،
أختارهم، ثم أكسر- كل شقفة في حجم غطاء زجاجة

البيبيسي-، وأجعلها مدورة بذات الحجم، فإذا قررنا اللعب أسرع عائداً إلى الحوش، أخرجهم من حيث خبأتهم وأشرع في العودة لهزيمة أحدهم... خاصة جمعة المتعجرف...

في أحد الأيام عدت لأخذهم فلم أجدهم... بحثت عنهم طويلاً دون جدوى، حتى رأيتهما، كانت صديقة تقف بجوار امرأة أبي وتنظر إليّ بدهاء، فتيقنت من فوري أنها تعرف مكانهم قلت:

- وين قطع الأجر يا صديقة؟

هزت كتفها وقالت: لا أعرف.

- معي قطعة حلوى... تبي واحدة؟

نظرت إلى بشك وقالت: نعم. أعطني إياها.

- تعال... أخفيتها في المربوعة.

جاءت مترددة، وأنا أستدرجها من مكمنها حتى وصلنا الباحة الداخلية فهمست:

- صديقة يا أخي الطيبة... وين حجر الآجر؟ العويلة بالساحة، وجمعة يتحداني... وأنا أتفاءل بهذه القطع... فهل لا أذهب فيقول عني كذاب... وين وضعتها؟ نظرت إليّ المشاكسة بطرف عينها وارتدت خطوة إلى الخلف وقالت: ما أعرف.

قلت بنفاد صبر: أعطيك الحلوى وتعطيني القطع.

- أنت تكذب عليّ وما معك شيء.

- حقا، أنا ليس معي حلوى، وشنو العمل مع هذه القردة الصغيرة، أضربها؟ مسكتها من يدها لكنها انفلتت من يدي صارخة، اشتعل غضبي وقررت أن أضربها، لكنها اندفعت إلى الداخل مسرعة كي تختبئ خلف أمها، قلت لها في غضب: يا حنا خليها تعطيني قطع الآجر، تعبت في صنعها، لشنو تأخذها هل تلعب النساء السيجة.

مالت عليها امرأة أبي وقالت: صديقة، أعطه أغراضه يا بني.

قالت وهي تمسح دموعها المختلطة بالمخاط: رميتها للطريق.

جن جنوني، قالت وهي تنكمش خلف أمها أكثر: شنو كان يجب أن تذاكر.

صرخت: القردة تقول أذاكر ونحن في الإجازة. اندفعت وأنا أتمنى ألا يمنعني أحد عن ضربها. لكن أمي لحقت بي، وتلقيت منها علقة ساخنة، ظلمت أبكي بسببها طويلا، أحسست بالعجز، كيف أنتقم منها؟ ها هم الأولاد سينعتوني بالكذاب، وخطر لي خاطر الشيخ عثمان الذي تلجأ إليه أمي دائما كلما عجزت عن السيطرة على أبي، أو ضاع منا حمل صغير، أخذت الوقت المناسب حقا، ففي أثناء الغداء وكانوا جميعا جالسين، سألتني عائشة: بعدك غضبان.

قلت: ولشئو أغضب؟ لقد وكلت إلى الشيخ عثمان أخذ حقي منها.

ضحك عمر وناصر وونيس، وغضبت أمي وامرأة أبي حتى أنها لكزتي في خاصرتي، فابتعدت وذهبت للجلوس بجوار وونيس.

ما كنت أتوقع أن الشيخ عثمان سيهتم بطفل في سني، ويستجيب لأمني، لم يمض أسبوع حتى انتقم لي، فبجوار البئر التي تقع بالناحية، التي يملأ منها الأهالي جرار وتناكات المياه ويقومون على سقاية الأغنام، أوقعت إحدى النسوة جرة مملوءة بالمياه على رأس صديقة، ولم يمض الليل حتى أصيبت بالبرد، لم يهتم أحد بالأمر، وفي نهاية الأسبوع قررت امرأة أبي أن تحملها إلى المستشفى العام في درنة، لقد أصيبت بالحمل، استأثت كثيرًا، فطالما تمننت أمي أشياء كثيرة من الشيخ عثمان، ولم يهتم بها، حتى أنا طالما طلبت منه أن يكسب فريق في الكرة، ولم يكن يكسب، فكنت أظنه لا يهتم، فلماذا يستجيب إلى هذه الأمنية الشريرة؟ ضاعت قطع الآجر، باستطاعتي أن أصنع غيرها، أما أن تضيع أختي صديقة فهذا قصاص غير عادل.

خيم الحزن على المنزل، وقفوا يودعونهما على باب الحوش... قبل أن تركب صديقة الشاحنة التي سترحل بهم إلى المستشفى العام في درنة... نادت عليّ امرأة أبي: تعال يا

حميدة... لم أتحرك من مكاني... أنا أعلم أن الجميع غاضب مني... بدأت في البكاء... قالت: تعال ما تخاف...

اقتربت خائفا... وضعت يدها على كتفي، قالت: حميدة، سامح أختك صديقة على ما فعلته، وسأحضر- لك ضامة من درنة. فقلت لها: لا أريد شيئاً يا حنا... ثم أنا لم أقصد أن يضرها الشيخ عثمان كل هذا الضرر.

قالت: باهي... ادعي له بأن يشفي صديقة فهو يستجيب إلى دعاء الصغار.

- ولشئو؟

- لأن الأطفال أحباب الله.

- باهي تواد نذهب للصلاة، وغادي أصلي كل يوم ركعتين لها.

وهكذا شرعت في الصلاة وكلمنا سجدت كانت مخيلتي تمتلئ بصديقة وخاصة في الليلة الأخيرة، وقد اجتمع حولها أمي وامرأة أبي وعائشة. فتحت الباب، ودخلت على أطراف أصابعي، فوجدتها ترتعش محمومة، وحرارتها ملتهبة، والعرق يملأ وجهها، دثرتها أمي بأغطية كثيرة، لم تكن تبكي من عيونها، كانت تبكي من كل جسدها، وقد تناثرت عليه دموع كثيرة... لم أسترح إلا عندما عادت... اجتمع حولها كل إخوتي، أنا فقط الذي بقيت وحيداً، كنت متأكداً أنها مازالت غاضبة مني، ولكن ما ذنبي أنا؟ لقد سمع الشيخ عثمان

أمنيّتي واهتم بها أكثر من اللازم، وفجأة لمحتها تفارقهم جميعاً، تقدمت نحوِي وفي يدها علبة صغيرة وقطعة جميلة من الكرتون... وقفت أحدق بها في بلاهة وهي تعطيني كل الأشياء ضامة ودومينو... قلت: لا منبش شيء.

قالت: خذها بدلا من قطع الآجر اللي ضاعت.

- من جهة أستطيع أن أصنع غيرها، ومن جهة أخرى أنا الآن ألعب الكرة.

بان على وجهها الغضب: اشتريتها لك تـوا وأنت لا تريدها، استدارت إلى أمها تصيح: ما يبش يأخذها.

لمحت نظرات أمي تكاد تأكلي أكلاً وصرخت بي: خذ اللعب من أختك يا تيس... وقامت إليّ وفي عيونها شرويا لطيف منها ساعة شرها.

قلت مسرعا: سأخذها... ليش المشاكل؟ باهي سأخذها أنا فقط، كنت أريد أن أوضح...

- خذها...

- باهي... أعطيني إياها.

انتهى الأمر بالنسبة لي عند هذا الحد، لكنه لم ينته بالنسبة إلى الأسرة، فقد اكتشف أبي أن محجرا مناسباً لكسارته، فقد كانت أحجار المحجر الأول تأكل كسارته، فسعى لتغيير مكانها، وكما قيل لي إن موظفا مهما طلب من أبي رشوة، وقال له: ورقة واحدة لا تكفي، وعليه السفر إلى

بنغازي عاصمة ولايتنا برقة، كي يحادث مسئولين كبارًا، وقد يقابل مولانا الملك نفسه... كانت مظاهر الغم على وجهه شديدة، فالشاحنتان توقفتا عن العمل بسبب توقف الكسارة، وكان علينا أن ندفع أجور السائقين دون عمل، وبدأ الكساد يحل علينا. قال جدي: لولا الأغنام لمتنا جوعًا.

- وما دخل الأغنام يا باي؟

قال: باتك بي فهم، رجال كثيرون قالوا: بيع الأغنام وعدي درنة بيش يتفرغ للكسارة والشاحنتين، لكنه رفض... قال: أنا نحمد الله، ليش نروح درنة ولا زال بي صحة... أيوه... أنا نحصل تفتوفة من الكسارة، وتفتوفة من اللوري، وتفتوفة من الأغنام... باهي هيك... قلت لنفسي: والآن لو لم تكن هناك الأغنام لمُتْنَا من الجوع، نظرت إليها في امتنان وشكر، وامتلاً صدري لها بالحب، وقلت في نفسي- لأتمنى من الشيخ عثمان أن يبقي عليها يزيدا صحة... عله يستجيب كما استجاب لدعوتي الأخرى المشؤومة.

على أن المشؤوم حقا أن الأمر لم يتوقف عند هذا الحد... وأنا أذكر هذه الأيام جيدا... ففي الفترة التي انهمك أبي فيها لينقل الكسارة بعد أن حصل على التصريح اللازم لها، كنا مجتمعين بالمربوعة وأنا منكمش بجوار صديقة على فرشة الأرضية، وقد اجتمع إخوتي وأصدقائهم حول المذيع في اهتمام شديد، يحركون مؤشره فترة طويلة، ثم يبدءون في التصنت لفترة وجيزة، وكأن على رؤوسهم الطير... فجأة

يتحدث أحدهم، فينطلق الكل في حديث متشابك لا أفهم منه سوى أنه قد آن للإسلام أن ينتصر على اليهود أخيراً.

وفي صباح أحد الأيام حضر- عمر وونيس ومعه صورة كبيرة، ما إن رآها ناصر حتى انهمك الثلاثة في نقاش طويل أين يضعونها... كاد أن يبلغ حد العراك... لم يكن لدينا بالحوش سوى ثلاث صور... واحدة لجدي الأكبر، يجلس متجهماً مرتدياً عباءته وفوقها الشنة، بجواره ابنه وإخوته، وكانت معلقة بالمربوعة، وأمامها كانت صورة الملك إدريس جالساً وولي العهد الأمير رضا واقفاً خلفه، وبجانبهما كانت صورة لـ «أبوزيد الهلالي» وهو يقتل الكفار، والعديد من الآيات القرآنية. فلماذا كل هذا الخلاف والمسألة بسيطة... أصبت بالحيرة، حقا فهناك مكان واسع كبير بالمربوعة، وإذا كانت على هذه الأهمية فليعلقوها مواجهةً لمدخل المربوعة... هذا ما فكرت فيه... لكن أخي عمر أحضر- تنكاً وقادومًا ومسامير وأخذ بمساعدة ناصر وونيس يثبتون الصورة على قطعة من الخشب بعد أن أذابوا كمية من النشا في ماء فاتر، في هذه الأثناء استطعت أن أحقق في هذه الصورة المهمة جيداً، والتي سببت تبادل كمية كبيرة من الشتائم بين إخوتي وأمي وامرأة أبي؛ وجه قوي كبير لرجل قوي ضخم، وجبين واسع، عينان نفاذتان تحت حاجبين كثيفين، وشارب أسود قصير... أخذت أحتك بونيس قليلاً، فالتفت إليّ وهو يمسك الخشبة جيداً وناصر يثبت الصورة على اللوحة الخشبية...

سألته: منو هذا؟

قال: جمال عبد الناصر.

هزرت رأسي ورددت: جمال عبد الناصر...

- تعرفه؟

- لا... منو يكون؟

- الذي سيحارب اليهود وينتقم للعرب.

خطر في ذهني من فوري الزقاق الذي يسكن فيه اليهود في
درنة: شنو فعل اليهود؟

- يسرقون الذهب والأرض ويقتلون العرب ويذبحون
الأطفال.

كل هذا يفعله اليهود... هالني الأمر، عدت أحدق في هذا
الرجل الذي سيطرده اليهود... أحببته فرغم قوته كان يبدو
طيب القلب... لكنه لم يكن يرتدي الشنة والصديري أو حتى
عباءة مثل التي يرتديها عمر المختار، عدت لونيس: لشنو ما
يرتدي شنه أو قطفان؟

- يعيش بمصر.

- وليش يروح مصر؟

- لأنه مصري.

- باهي... ولشنو تعلق صورته هنا؟

تردد ونيس غاضبا ثم قال: لأنه عربي يحارب من أجل العرب، كما أنه ما فرق بين مصري وليبي، نحن كلنا عرب.

هزرت رأسي فاهمًا، وتراجعت إلى الخلف، ولكنهم قاموا وخرجوا، فذهبت وراءهم، والعجيب أنهم علقوها على باب الحوش، اجتمع خلق كثير يشاهدون إخوتي وهم يفعلون وكان الجميع سعيدًا... أصابني طرب شديد؛ لأننا فقط الذين نملك الصورة، خرجت ألعب الكرة، كنت فخورًا بين الصبية وقد تحلقوا حولي: صورة منو؟

- عبد الناصر.

- عبد الناصر منو؟

- اللي يحارب اليهود وينتقم للعرب.

لم يتوقف الأمر عند هذا الحد فقد سمعت عن التبرعات لنصرة العرب والإسلام، وتحلق الرجال حول شيخنا يسألونه العمل، وهل جمع التبرعات واجب؟ أم أن الحكومة ستغضب؟ لكن الشباب وعلى رأسهم عمر حسموا الأمر... جاء عمر يجر كرويسة محملة بالبطاطين، وشفيرة مملوءة بالنقود، وضعها أمام الشيخ فأسقط في يده، وتدافع الرجال إلى دورهم وعادوا وكل منهم محملاً بالأغطية والملابس والنقود.

إذا فهي الحرب... ظلت هذه الكلمة تتردد طويلا. وأخذ المذيع يذيع الأغاني الحماسية. وأصابني اضطراب شديد...

ماذا عليّ أن أفعل لو جاء اليهود على خيولهم وهاجمونا؟ وحلقت طائرات قتل إنها أمريكية وليست إسرائيلية، وقيل إنها ليبية ذاهبة إلى مصر- لتشارك في المعركة، فتمنيت لو كنت الآن في واحدة منها... ما ظل يورقني فيم إذا جاء اليهود ورأوا عبد الناصر على باب منزلنا وعلموا بقصة التبرعات هذه، وخاصة أن لهم أصدقاء في درنة وبنغازي، من المعلوم أنهم سيقتلونا ويسرقون الأغنام.

شعرت بالخوف على أخي عمر بالذات، وعلى أبي وأختي عائشة وصديقة لو أنني أستطيع ركوب الخيل، لفعلت شيئا على الأقل، فالبندية أمرها سهل، سوف يستشهد أحد أبناء قريتنا أو يموت يهودي، وأخذ بندقيته، والأمر بعد ذلك سهل، أصوب على العدو وأضرب الزناد وتنتهي المسألة... عندما جاء ميعاد العشاء، كنت لازلت شاردا الذهن أفكر في هذه الكلمة العجيبة وما تابعها الحرب. الدبابات والطائرات والمدافع والبنادق... هتفت صديقة تدعوني: حميدة... أقبل للعشاء... لم أبال بها، ومن يأكل الآن؟ وجاء صوت عائشة، ستأتي حالا وإلا لن تجد ما تأكله.

قلت لنفسي- باهي... نأكل الآن، فالحرب لا تغني عن الأكل.

وعلى مائدة الطعام تذكرت بندية أبي فسألته من فوري: باي.

أجابني دون أن يلتفت إليّ: إيش تبي؟

قلت وأنا أتوقع منه الاهتمام: تحارب اليهود؟.

قال وهو يلوك طعامه في برود غريب: لا...

صدمني... شعرت بالاستياء وكيف...؟ كنت قد تخيلت
التجريدة التي سترسلها القبة إلى الحرب، بها جميع الرجال
والشباب عدا أبي... أي عار هذا؟ وشنو نفعل ببندقيته؟
خطرت لي فكرة... قلت:

= باهي يا باي... توا أنت ما تحتاج ببندقيتك ؟

أجابني بذات الأسلوب والطريقة الباردة وكأنه لم يفهمي:
لا...

- باهي. أقصد إذا ساءت الأمور وجاء اليهود هنا
سأخذها... لم يجب، تجاهلني تجاهلا فظيعا، وسمعت صديقة
تكتم ضحكتها... صرت أسناني وأنا أقول: القردة مبسوفة...

لكنني لم أياس، بل ذهبت إلى عمر هذه المرة، لاشك أنه
سوف يهتم بما سوف أنبئه إلى أمور خطيرة وكان جالسا
بمفرده: هل سيحيي اليهود هنا... أجابني: لا...

كانت هذه أيضا مشكلة قلبت الأمور رأسًا على عقب، فإذا
كانوا لن يحضروا هنا فلا داعي للبندقية، لكن ليش كل هذه
الهرجة... قررت أن أقول له ما أعتقد، فقد يأتي اليهود على
غرة.

أقول لوجاء اليهود مثلا. فعلينا أن نتأكد أن هناك
خرطوشا كافيا للبندقية.

حـدق في قليلاً ثم انفجر في الضحك، وسارع ينادي ناصر
وونيس، يقول لهم:

- الجرو الصغير هذا يبي البندقية والخراطيش بيش
يحارب اليهود.

هكذا عمر يسخر مني دائماً، تركته غاضباً، وأقسمت ألا أتدخل
في هذه المسألة بعد الآن.

وفجأة الحرب... لقد قامت الحرب، تحلقنا جميعاً نحن
الذين نسكن في القبة على بعد عشرات الكيلو مترات من
الطريق التي يمر بها الملك حول المذيع، وكنا نهل فرحين،
ونحن نتابع سقوط الطائرات، كان منا الكثيرون الذين
يصوبون أنظارهم إلى السماء بحثاً عن الطائرات التي تهاوت،
لم تعد صورة عبد الناصر التي لدينا الصورة الوحيدة، بل كان
في حوش البرغي والعوامي وآخرين غيرهم صور مثلها كثيرة.

ولكن كما قامت الحرب سريعاً، حل الصمت سريعاً، وعاد
الناس إلى دورهم ومشاعل حياتهم العادية، اختفى إخوتي
الثلاثة عمر وناصر وونيس، ولم أجد إجابة محددة إلا بعد
أيام عديدة، وأنا أشاهد أبي وقد عاد بناصر وونيس إلى جانبه
بالشاحنة وعمر بجوار جبريل في الشاحنة الأخرى... سمعت
صراخاً شديداً وأبي يصيح بشدة ويعيط: إيش تدوي في
المظاهرات تبو السجن، ودخل عمر مهتاجاً، فحمل صورة
الملك إدريس، وألقى بها تحت قدمه، لمحاه والدي، حمل
عصا يضربه ويركله بقدميه وقبضه يده، حاولت النسوة أن

تمنع أبي عن عمر، وانضم إليهم جبريل حتى استطاعوا تخليصه من بين يديه بصعوبة، أخذه جبريل إلى الخارج، عاد باق ف جذب صورة الرجل الذي يدعى عبد الناصر الموضوعه على الحوش ومزقها قطعاً صغيرة، فأحسست أن الملك وهذا الرجل لهما دخل في الأمر، وأن خناقة تنشب بين والدي وإخوتي بسببهما، بالطبع أخذت صف الملك؛ لأن الرجل الآخر ليس أقل من أنه غريب عنا، وأنه سبب خناقة بين أبي وإخوتي، ومن المؤكد أن أبي على صواب، ثم إن الأمر خطير جداً، فعبارات المظاهرات والسجن ترددت كثيراً على لسان أبي وامرأة أبي وأمي وعائشة... ونحت أمي باللوم على عمر لأنه هو الذي غرر بونيس، وسوف ينتهي الأمر به أن يفقد مستقبله... والغريب أنني وجدت الثلاثة في الخارج واقفين يضحكون مثل الديوك وقد تجمع حولهم شباب الحي، يشيرون إليهم وينظرونهم، يسألونهم في إعجاب... سمعت عبارات كثيرة، منها على سبيل المثال أن الملك خان، وأن اليهود استخدموا القواعد الأمريكية والإنجليزية في هوليس والعضم ضد الجيش المصري، وأن مظاهرات صاخبة اجتاحت طرابلس وبنغازي ضد الملك والأجانب، وقد حملت صور عبد الناصر، وأن الرصاص أطلق على المتظاهرين، وأن عمر بالذات كاد أن يصيبه الرصاص لولا ناصر وونيس وصديقهم مفتاح الشهيبي، خطرت لي أمر مهم كيف يكون للملك إدريس الذي هو من نسل سيدنا محمد أن يخون الإسلام... وهذا العبد الناصر الذي هو ليس بالليبي

ينصر- الإسلام... عليّ أن أسأل ونيس... فهو الذي لن يسخر مني... عندما سألته ضحك من أعماق قلبه حتى كاد أن يقع على ظهره، وأنا أحب ونيس وأحب ضحكته، فهو أخي شقيقي، لكنني أشعر بالضيق إن سخر مني هو الآخر... قال: أولاً الملك إدريس ليس ليبيّاً، وإنما هو من المغرب... دهشت. قلت له: معقولة هذه! فقال: نحن في ولاية برقة كلنا من قبائل العبيدات وهناك أيضاً قبائل أولاد علي الذين يسكنون طبرق، وهم خوتنا، نحن ننتمي كلنا لحرب الجد الأول لقبائل العبيدات، وأولاد علي، فمن أين جاء الملك إدريس؟ هذا أولاً... ثانياً... ليس كل من يدعي أنه من نسل النبي يكون كذلك، كما أن ليس كل الأولياء صالحين.

- ولماذا هو غير صالح، ألم يطرد الإيطاليين؟

- تحالف مع الإنجليز وبعدهم الأمريكيين، جميعهم ينهبون ثروات بلادنا وخاصة النفط.

- وهل يدافع عنها عبد الناصر؟

- عبد الناصر يبي العرب يداً واحدة، أمة واحدة، تمتد من الخليج إلى المحيط. عبد الناصر طرد الإنجليز من مصر، حاول أن يطرد اليهود من فلسطين، لكن الأمريكان وقفوا بجانبهم فهزموه.

- وهل نستطيع نحن طرد الأمريكيين والإنجليز من بلادنا؟

- لو رأيت الليبيين وهم يفتحون صدورهم للرصاص،
والمظاهرات الصاخبة التي خرجت ضد الإنجليز والأمريكان
لتأكدت من ذلك.

حزنت لأني لم أر هذه المظاهرات... لو كنت لاستطعت
على الأقل أن أقتل «عسكري أمريكي أو إنجليزي»، أو أصبت
برصاصة لا تقتلني ولكن تجعلني بطلاً... بطلاً هذا ما فكرت
فيه... نظرت إلى إخوتي في إعجاب بالغ، وشغلي الموضوع
فترة، ثم نسي- الجميع كل شيء، ونسيته أنا الآخر، لقد بدأت
الكسارة العمل، وبدأت الشاحنات تحمل الحصى- وأحجار
البناء، وأصبح أبي يتغيب عنا ثانية، وبدأ العام الدراسي، وجاء
الشيخ محمد الشهيبي يطلب يد عائشة لابنه الملازم مفتاح،
ويا الله! كانت سعيدة، وأصبح وجهها ناضراً مثل تفاحة،
تضحك كثيراً والسعادة تقفز من وجهها، لم تعد تترك
الحوش، يوماً تسللت إلى مخدعها فوجدت بيدها زجاجة
صغيرة حمراء، وأمامها علبة امتلأت بالعبوات الصغيرة في باطنها
مرأة صغيرة... سألتها: شنو هذا؟

ضحكت: هذا طلاء للأظافر... وأرتني أظافرها وقد صارت
حمراء... وهذا أحمر شفايف وهذا كحل لرموش العين.

سألتها وعيناها تطفح بالشرر: ومن وين حصلت هذا؟

تثنت بدلال وقالت: مفتاح.

صعقت وأثارتني الطريقة المغناجة التي نطقت بها اسم
خطيبها...

منو سمح له بأن يعطيك إياها؟

نظرت إليّ في غيظ وقالت تحرك يديها الاثنتين نحوي:
تريح يا خوي أتريح. عطّني إياه أخته وأمام أمك... تريد
تصير راجل كافي ثلاثة.

أجبتها في حنق: ما كان يجب أن تأخذه... وتركتها خارجا.

لكنني عدت بعد قليل: تبدو عليك السعادة.

- وإيش في هذا... تبي نزل؟

تردت وأخيرا قلت: أعني... تبي تتركينا وأنت سعيدة؟

صاحت بي قائلة: نعم نبي نترككم... إيش نسوي هون؟
نخدم فيك وفي باتك وفي العجوز وفي خوتك، حتى صديقه
نخدم فيها وحتى الشكر ما نلاقيه.

- ترى تلاقي الشكر عنده؟

- منو؟

- مفتاح...

تضرج وجهها واحمرّ خجلا... صاحت: كل الرجال
سواء... ما في واحد يقول شكر... كتب علينا نخدم
فيهم. حمدت الله في سري وسعدت أنني لم أولد أنثى، ولكنني
روعت بفكرة أن عائشة ستتركني:

- لكنه لا يسكن في القبة.

- نسكن في درنة.

- باهي... هيك لن أراك كل يوم.

كادت أن تصيح فيّ وخمنت أنها تريد أن تقول لا أريد أن أرى وجوهكم بعد الآن، لكنها قالت:

- سآتي يا حميدة... سوف آتي كل أسبوع.

- توحشيني واجد... بكيت وأنا أندفع إلى أحضانها.

* * * *

لم يكن هذا هو الرحيل الوحيد في عائلتنا، حل ربيع السنة التالية، كانت عائشة ماهرة في ولادة الخرفان، نظرت إليها أمي في غضب: تركينا؟

كنت أول من سمع ثغاء أول حمل لأغنامنا هذا العام... باء... باء... أنا هنا... باء... باء... لقد جئت، استيقظوا... كان هذا عند منتصف الليل أو قبله بقليل... لكزت صديقة أن تستيقظ. رفعت رأسها وقالت: إيش تريد؟ همست بها: لقد جاء...

- منو؟

- الحمل الجديد...

فتحت عينيها دهشة، وأنا أسرع بارتداء سروالي تحت القميص الطويل، وألبس صديرتي المزخرفة، عدوت خارجا

إلى زرائب الأغنام... طرقت باب حجرة عائشة بشدة، قامت غاضبة، صحت بها:

- استيقظي، جاءنا ضيف صغير.

في طريقي أوقدت مصباحا، وعلى باب الزريبة وجدت النعجة مستلقية على الأرض تخور، تبدو وكأنها تأخذ قسطًا من الراحة، ولا يزال الحمل مستلقياً على الأرض، بعد فترة وجيزة أخذ يحاول النهوض... دق الأرض بقدميه الأمامية... تعثر قليلا وترنح يمينا ويسرة يحاول الاحتفاظ بتوازنه حتى وقف.

أقبلت عائشة، ومن ورائها أمي وامرأة أبي، واستيقظ كل من في الحوش... ركعت عائشة بجوار الحمل تجففه وقد شعر بالبرد القارص... برزت على عينه ملامح الشكر والعرفان، دفعته أمام أمه فراحت تشمه بمنخريها وتلعبه هي الأخرى... ولم تمض فترة حتى أحس بالجوع فأخذ يصرخ طالبا لبن أمه حتى وجدته، فالتهمه التهامًا.

وفي اليوم التالي حدث هذا ثلاثين مرة، والجميع في حالة استنفار، النعاج الحبلية تدور في الأرض وكأنها تبحث عن المكان الملائم لولادتها، تستلقي مرة أو مرتين وكأنها تتأكد من جودة المكان، وحين تبدأ في الولادة، فإنها تستلقي في أي مكان تجده ثم تبدأ في النفور والقيام بحركات دفع، ترفع رأسها عن الأرض مرة بعد مرة تنظر فيما حولها، وسرعان ما يخرج الحمل صغيرا جميلا يرتعش، كان الجو باردًا، تنطلق

النداءات من كل مكان، عمر يسارع بإحضار الحطب للوقود، وعائشة تحضر ماء ساخنًا وأدوية وعقاقير طبية وأكياس الخيش، أي تقف طيلة النهار تصنع الطعام، ففي هذه الأيام لا يوجد ميعاد محدد لتناول الطعام.

لم أرَ مشاعر أي تجاه مفارقة عائشة لنا بعد أشهر قليلة إلا هذه الأيام، فقد كثرت الحملان الصغيرة، والمشكلة أن الأمهات إذا غابت عنها الحملان لفترة، أو عانت مشكلات في الوضع أو الرضاعة، تعاف وليدها من فورها، ويصبح الوليد بلا أم، لا يجد لبنًا يأكله، ويظل ابن القطيع غريبًا، كلما اقترب من نعجة ضرارها مليئة باللبن رفته رفسة قوية، فلا يكتفي، فتصيبه رفسة أخرى، فهي تحفظ لبنها لوليدها، ويذهب بحثًا عن أمه، فينال الضربات المتوالية حينًا بالرفض، وحينًا بالنطح، ويحترار الجميع ويبدأ الكل في التخمين: من هي أمه، ويدلي الكل برأيه عمر وأي وامرأة أبي وناصر وونيس، حتى أنا وصديقة نحاول أن نخمن وندلي برأينا، في النهاية يضطر الجميع أن يلجأ لعائشة، عندما جاءت عائشة دفعت بثلاثة حملان تائهة إلى الحظيرة، وبحثت بين القطيع حتى وجدت أمهاتهم، فهي قوية الذاكرة، وضعت كل حمل أمام أمه، تقف الأم بعيدة عنه والحمل يرفس ويدور ويلف حولها، تمد رأسها إلى الأمام، بعد فترة تسمح له بالاقتراب منها، تشمه، تسترجع رائحته بصعوبة، فهي سريعة النسيان، ترفع رأسها، وتأخذ في النخير والصياح فرحًا ويندفع ناحيتها الوليد، ثم يبدأ في البحث عن

طعامه في ضررتها على الفور يدفعه جوع ونهم شديد... كان اختيار عائشة صحيحا، شخّطت أمي فجأة وصاحت بها: توا إيش نديروا في العام القادم؟

صمت الجميع، فالعام القادم سيأتي، وعائشة في بيت زوجها، لم تأبه عائشة بغضب أمي، وقامت تحضر- حملين تائهن، ربطت ساق كل منهما في ساق أمه، هكذا لا مهرب للأم من وليدها.

قالت أمي: أنا نقول لباتك إنك لسه صغيرة بيش يوخر الجوازة هاذي. حذق الكل في عائشة، كان عجزها قد امتلأ، وتدورا وصارا ملساويين، واحمرّت بشرتها مثل اللحم الضأن، وتكور ثدياها صغيرين نافرين، وصار ساعداها ممتلئين في لدونة... كشرت عن وجهها تجاه أمي، صحت أنه أمي:

- هذه تريد تتركنا من اليوم قبل بكره... أنا ندرى.

استشاطت عائشة غضبا، قذفتني بالإناء الذي في يدها، حدث عنه بصعوبة وهي تنهرني:

- عدي يا تيس يا قرد.

ضح الجميع بالضحك... قالت أمي وهي تداعبها: ردي بالك عليه شويه.

- بعدين تروحي السجن ما تروحي وين تريدي.

قالت في غضب: نشهد بالله السجن أحسن من هنا.

قالت امرأة أبي وهي تكاد تستلقي على ظهرها من الضحك:

- أيوه... صار هيك... يا حنا البنية ما عادت تي تظل
معنا، هنيالك يا مفتاح.

عندما نطق اسم مفتاح ضحك الجميع، يبدو أن
أعصابها لم تعد تتحملها، فاستدارت تبحث عني، وكأني
السبب في كل هذا، جرت خلفي تقذفني بالطوب وتصيح:
أنت السبب يا تيس.

جريت أصرخ: باهي... باهي يا عائشة أنا ما نتحدث في
هيك بعد اليوم.

* * * *

خصيت الذكور الصغيرة، فمهمتها منذ الآن أن تسمن
لحمها للأكل، ونظفت إحدى الحجرات جيداً، وحيء بالحاج
محمد الطامي وبغلته التي كانت تجيء كل عام، وقد وضع في
خرجها مقصات طويلة، وماكينات كبيرة لجز صوف الأغنام.
فرشت الأرض بالأكياس النظيفة وأخذ الرجل يقوم على
الحلاقة بمهارة فائقة، يبدأ من البطن وينتهي من الجهة
المقابلة، يسقط الصوف قطعة واحدة، يؤخذ ويلف بمهارة
تجعل من الأطراف النظيفة ظاهرة للعيان، حتى تكون طيبة
عند البيع، ويجمع الأجزاء الرديئة في أكياس فهي من الدرجة
الثانية.

كان هذا هو الصيف الأخير الذي اجتمعنا فيه معًا. فمشادات عمر مع أبي زادت، أبي يريد أن يعمل معه بالكسارة، ويذكره كل مرة أن امرأة أبيه طردته من الحوش، فخرج إلى الحياة ليبدأ من الصفر. أما عمر، فهناك ما ينتظره بعد فشله المتكرر في الثانوية، وعمر يرفض بشدة وكان قد بدأ يسافر كل فترة وأخرى إلى بنغازي، ويعود بعد يوم أو اثنين.

- أنا منبيش نضل معاك في كسارتك الرابش هاذي طول عمري. أنا نبي نبي مستقبلي كيف ما نريد... حر... أشتغل وقت ما أريد وأبطل كيف ما نريد، نبيش نضل معاك كل ما نشوفك تدوي في هرجة وخرافات.

- هذا اللي تخاف منه... أنا نكلم فيك لمصلحتك.

- أنا ما نخاف من شيء... وأنا نعرف مصلحتي واجد.

كان أبي يعول على عمر كثيرًا، فناصر بدأ يستعد للالتحاق بجامعة طرابلس، ولن نراه إلا في العطلة... حتى أبي لم يعد يستطيع أن يعتمد عليه في الرعي كثيرًا.

ذات يوم جاءنا خطاب أحدث دويًا عارمًا في الأسرة وهلل له الأقارب قبل العائلة، ولكن أمي بكت كثيرًا، وظلت تبكي طوال سبع سنوات بعدها... كنت عائدا من لعب الكرة، متسخ الملابس، وأصيب ساعدي بخدوش بعد أن هزمتنا الفريق المضاد، عندما لمحت صديقة، تقف أول الدرب،

وهي تشير ببيدها، وتصرخ بكلام لا أفهمه، نظرت حولي... هل كانت تحدثني؟ كنت الوحيد حقا، فهتفت بها أن تصبر حتى أجيء، فأنا لا أسمع شيئا، لكنها لم تقبل، بل ظلت تعيط لأنها لم تكن طبعا تسمع كلامي، وفهمت من حركاتها أنها تطلب مني أن أسرع، وعندما اقتربت منها جاءت تجري وهي تقول:

- ونيس يعدي غادي.

- شنو؟

- ونيس يسافر في البحر لألمانيا... كانت تلهث.

قلت لها: شنو تكون ألمانيا هذه؟ إترحي شويه وقولي إيش حصل؟

- اليوم جاء خطاب إلى أبي، أمي تقول: ونيس يسافر خمس سنين ما نشوفه.

- خمس سنين ما نشوفه...

اندفعت إلى داخل الحوش، وكان هناك كثير من الجيران، بينهم إخوتي، اقتربت منهم، وأخذت أتدافع بين أقدامهم حتى وجدت مكانا، أمي تبكي وونيس يضحك، وابتسامته على فمه عن آخرها.

سألت: ماذا حدث؟

أخذني ناصر من قفائي جانبا قلت: ليش أمي تبكي؟

- ونيس يسافر ألمانيا ويظل هناك خمس سنوات.

- أعرف... صديقة قالت لي... وإيش يفعل؟

- يدرس الطب... سيعود طبيبا.

كان أمرا مبهرا حقا، نظرت إليه بفخر، ها هو لا يخيب
طنوننا، لكن، أين تقع ألمانيا هذه؟ لم أجد سوى ناصر
أساله: وهل ألمانيا بعيدة؟

- واجد.

- ألا يستطيع أن يرانا كل أسبوع؟ خطري أن عائشة
ستفعل.

- بعيدة جدا خلف البحر الذي يقع وراء الجبل الأخضر-
بعيدة واجد، سيركب طائرة.

- طائرة!

- نعم طائرة.

تخيلته وهو يرتفع عاليا ثم يعود وهو طبيب. قلت مرضيا
نفسى: باهي تيجي كل أسبوع.

- أنا! ... لا.... ما أجي إلا في نهاية العام...

استأت: ما فيكم غير عائشة... قالت لي إنها سوف تأتي
إليها كل أسبوع.

ضحك وقال: حتى ولا عائشة.

جلست مصدومًا، أردت أن أتأكد فسألته: شنو؟
أجاب: حتى ولا عائشة... الفتاة وين ما تذهب حوش
زوجها ما يشوف فيها أهلها بوكل.

تخيلت الحوش فارغا فحزنت... حزنت حزنا شديدا، لن
تبقى سوى هذه القردة المشاكسة، والتي تحب أمها أكثر من
أمي... وجدتي أذهب إلى ركن قصي وأبي.

يد حانية شعرت بها تربت على ظهري، رفعت ناظري،
كان ونيس... كيف عرف مكاني؟ يبدو أن ناصر أرسله خلفي...
لمحته هذه المرة، وأنا جالس القرفصاء طويلا فارعا ضخما،
هو الوحيد من فريقنا، وعائلتنا وكل قبيلتنا سيذهبون إلى
ألمانيا.

- كان يجب أن تفرح لي.

- نعم، أنا سعيد لكنك ستغيب كثيرا.

جلس بجانبني ووضع يده على كتفي: سوف أرى الدنيا.

- الدنيا... !! وألا تراها هنا؟

- ما نشوف غير درنة وبنغازي، والجبل الأخضر، لكنني
سأرى أوروبا.

- خلف البحر الذي يقع وراء الجبل الأخضر.

- نعم.

- ستركني مع هذه القردة الصغيرة.

- معك أمك وباتك وعمر.

- عمر لا يهتم إلا بنفسه.

- باهي تعلم أن تهتم بنفسك...

فتحت عيني مندهشا، فكرت... لقد كبر ونيس وها هو
يدوي في حكم وأمثال.

قلت: وحيدا.

- نعم... يجب أن تجد لك مكانا.

هزرت رأسي مقتنعا: باهي سأبحث لي عن مكان آخر...
أسافر إلى مصر.

- لا أقصد مكانا تسافر إليه... أعني مكانا بين الناس... مكانا
يتسع لرجل وليس لطفل...

- أأست صغيرا بعد؟

- نعم... بلغت الثانية عشرة من العمر ستدخل العام
القادم المدرسة الإعدادية وتكون مسئولا عن المنزل وعن
صديقة.

يالها من مسئولية سخيفة: لا... سأكون مسئولا عن
نفسي- فقط، فصديقة رأسها مثل الحجر. ولكن علام
الحديث؟ لقد رحلت هي الأخرى في آخر العام مع أمها إلى
بنغازي وبقيت أنا وأمي في القبة، ومرت السنون، حتى دخلت
الجامعة فحضرنا جميعا إلى منزل أخي عمر.

في ذلك العام حق لي الخروج إلى الجبل الأخضر، فعدم الاستقرار الذي بدأنا نعانیه بسبب انشغال ناصر وونيس في تجهيز أوراقه، وأغراضه للسفر جعل الأغنام في حاجة لشخص ما... لقد ألححت عليهم في الذهاب معهم، لكن الإجابة كانت دائماً... لم يحن الوقت بعد يا حميدة.

والآن حان الوقت، في الخامسة صباحاً استيقظت مسرعاً... غسلت وجهي ورأسي بالماء البارد بالحوش، ودخلت مسرعاً على صوت أبي يدعوني للإفطار، وكان هناك عمر وونيس وكان ناصر ذاهباً إلى طرابلس، ولن يعود قبل ثلاثة أيام، وحين خرجنا أعطتني أمي جراباً علقته بحبل حول كتفي، وقد كدسته بالخبز الطازج، وعلبة مملأها بالمكرونة والفاصوليا، وكانت هناك قطع من اللحم خصيصاً بمناسبة خروجي إلى الرعي للمرة الأولى، وفي جراب عمر كان هناك كوز وكمية من الخبز والسكر والشاي كان هذا طعام اليوم وشرايه.

أذكر ذلك جيداً... أذكره وسأظل أذكره... ما إن تخلف القبة وراءك، وتيمم جهة الشمال، وتنحرف قليلاً جهة الغرب، حتى تجد أجمل ربيع في العالم، تمتد سلسلة الهضاب متوالية في غير نسق، كأن الطبيعة لا تهوى التماثل، لن يكفيك أن تراه بسهولة، بل عليك أن تبحث في كل مكان وكل قطعة هنا... يا الله... عندما تختلط الصخور بالأرض الطينية الحمراء بالعشب الأخضر بالشجيرات بالأشجار، على امتداد الأفق... هضاب تتخللها وديان صخرية تبدو

وكأنها في متناول يدي، ثم ها هي فجأة تكشف عن هاوية لا
قرار لها، من يستطيع أن يرسم هذا... ؟

شممت الهواء مغسولاً بمطر الشتاء... وشممت هواء
قادمًا من البحر. ورأيت الأرض تنحني بيسر- مرتين وثلاث،
وبلا نهاية، بمسافات تتراوح بين نصف الكيلومتر وعدة
كيلومترات، وفجأة تبدأ مدارج العشب الطازج بسلسلة من
الجبال العالية والوديان السحيقة.

أضع يدي وأصابعي الصغيرة على أديم الجبل فأشعر به
وكأنه يتشكل بها، ينحني لها، يرضخ لرغباتها العابثة، وأركض
هنا وهناك وأعود أشم رائحة الأغنام، وعبق روئها الطازج.

في الضحى بلغنا الطريق العام، وتحت شجرة ضخمة
جلس عمر وناداني بالجلوس بجانبه، وتجمعت الأغنام،
والكلاب تعدو حولها كي لا يضل شاه أو حمل.

مع عمر أشعر بالأمان ولا أخشى- الذئاب مثلاً، بالرغم من
أنه يصعب التفاهم معه فهو عادة يأمرني... أحضره هذا
وأجلب ذاك، ولكن مع ونيس وناصر يمكن التفاهم عادة،
وقمنا ثانية بعد شرب الشاي... يَمْنَا شطر مدينة البيضاء،
هذا ما كان يقوله لي عمر، وكلما لاحت أحواش على بعد
ابتسم وقال: لم نبلغها بعد... ولم نبلغها قط، فلما بلغت
الشمس كبد السماء، جلسنا لتناول الطعام، نام عمر لمدة
ساعتين وبقيت أنا جالساً لحراسة الغنم، فلا بد أن يظل أحد
من أجلها، لقد نبه عليّ أن أظل يقظاً منذ الآن، فضياع نعجة

أو شاة أو حتى حمل صغير سيحدو بهم إلى اتهامي بأني سبب ضياعها، ذلك أنني المتغير الوحيد في الأمر، فالأغنام هي الأغنام سواء جاءت بحملان جديدة أم لا، وكلبانا لم يتغيرا منذ أربعة أعوام، وعمر لم يحدث أن فقد حملا صغيرا، فقد كنت أسمع أمي وعائشة أنه لا يفقد الأغنام لكن قد يهدبها لامرأة هجاله أو أرملة. وعندما بدأنا السير سألتني عمر: ميسوط بالرعي؟

قلت بحماس: نعم، وأنا أبغي الخروج كل يوم... ضحك وتيقنت أنه يسخر مني.

- باهي توا ترعي الأغنام هاذي لوحذك... خلي باتك يفرح بيك.

لم أفهم مقصده. سألته: ليش تسخر مني دائما.

فبان عليه التكدر والجد وقال: ليش تظن هك... توا أنت صغير، كيف نتناقش أنا معك.

استرحت قليلا لتبريره قلت: باهي وايش قصدك؟

أجابني بجديّة: الأمر بسيط... باتك سيواجه مشكلة، ناصر وونيس راحلان، وأنا لن أبقى بجانبه، وهيك عليه لأول مرة أن يواجه هذه المشكلة العويصة.

- ما تحب رعي الأغنام؟

- شنو... وليد صغير أنا؟! ولكن إذا كنت تسأل، لا بأس من أن أعطيك إجابة... من المؤسف أن يختلط حب

استطلاعك، وشعورك بالحرية والمسئولية في ذات الوقت، وأقصد حرية خروجك من الحوش طيلة يوم كامل، ومسئولية أن يلقي على كاهلك عملا تؤديه... من المؤسف أن تخلط هذا برعي الأغنام... هذا عمل بدائي لا يحتاج لمعرفة أو دراسة، هذا عمل يقوم به حمار أو بغل صغير... أنت ما تروح مدرسة تعلمك الرعي، أما أنت فيجب أن تنتبه لدروسك، فنحن في حاجة منذ الآن إلى متعلمين ومثقفين.

أردت أن أجعله يعترف بجمال الجبل الأخضر:- ولكنني لن أترك الجبل الأخضر.

- باهي أبقى هنا وشب مثل الحمار، ما تخاف شيئا، سنأتي لزيارتك بالعطلات.

استأت فقلت غاضبا: أنت لا تحب الرعي ولا تحب أن تبقى في القبة.

- ومنو التيس اللي يحب فيهم؟

تعثرت في التعبير، بعد فترة صمت قلت: ليش تريد تتركنا؟

قال وعلى وجهه رصانة وجد أقنعاني بصدق كلامه: توا النفط يصير ذهب، يرمونه على قارعة الطريق في بنغازي، وأظن أنه يجب أن يكون هناك من يلتقطه، أما الجبل الأخضر- هذا نبقيه للعشاق قاري الروايات الغرامية، ورعاة الأغنام مثلك... توا من الآن فصاعدا تصير الصحراء أجمل

عشرات المرات من جبلك الأخضر- اللعين، وأرجو أن تتركني
وتصمت قليلاً.

لم أكن لأحدث معه ثانية بعد أن أساء إلى مشاعري
وسفه منها، ولكن كانت هناك القبة، لم أعرف كيف استطاع
عمر أن يقودنا بمثل هذه الطريقة التي جعلتها تبرز فجأة،
ولم أستطع أن أكبح جماح نفسي- عن حوشنا الآن، وعن
العشاء الطازج الذي ينتظرنا نحن الذين قمنا على كل هذا
العمل الشاق، وأمسكت بجراي، وانطلقت أعدو في سرعة
هائلة، وأنا أطوح به فوق رأسي تجاه البيت... وأخذت أقفز
كما لم أقفز من قبل... وتابعت قدماي الصخور والأرض
تتلوى من تحتي، أعلم أن أي عثرة ستصيبني برضوض
شديدة، وربما جرح في الرأس، ولكني لم آبه، كنت أشتاق إلى
وجه أمي وإلى صدر عائشة.

كنا نظن أن عمر هو آخر من يغادرنا، بل إن أبي كان
يستبعد ذلك تماما، ماذا يستطيع أن يفعل دون شهادة ما،
هل سيعمل كاتباً، أمر رآه مثيراً للضحك والإشفاق، ولذا
ضغط عليه بشدة، ولم يكن يظن أن عمر قد يستخدم
أسلوباً، سيدفع أبي للاستسلام أخيراً.

كان هذا بعد حوالي شهر ونصف. خرجنا نحن الثلاثة أنا
وناصر وعمر، حيث تغافى عمر عمداً عن ثلاثة من الأغنام،
عنف أبي ناصر دون أن يحدث عمر، لكن ناصر فرغ صبره
أخيراً وقال:

- هو (يقصد عمر) تغافى قصدا عن الأغنام. ما تصرخ في، هو أمامك، تي تصرف معاه. وخرج راحلاً عن الحوش لأحد أصدقائه.

في صباح اليوم التالي جهز عمر نفسه للرحيل نهائياً عن القبة، بدأنا أنا وناصر نخرج بالأغنام. وبعد أسبوع واحد قابلنا أبي في الحادية عشرة ظهراً يقود شاحنته، ومن الخلف أطل علينا وجه غريب تشع نظرات عينيه بالذعر، كان أبي قد دخل الحوش وقد نساه، فقد جاء مسرعاً وهو يصيح بالرجل وبلكنة غريبة لم أسمعها من والدي من قبل: انزل يا عم أحمد.

قفز رجل أسمر، على وجهه ملامح تعب وبؤس شديدين، في الخامسة والأربعين من عمره، تبرز من صدره حواف جلابيب عديدة، ارتداها واحدة فوق الأخرى، في يده اليسرى صرة وباليمنى أمسك بصندل قديم مهترئ، ربما رؤيته ممسكاً بالصندل في يده كان دافعاً لي كي أنظر لقدمه، كانت حمراء منتفخة كعجلة سيارة قديمة. وقف متردداً عليه ملامح الخوف، بل أستطيع القول بأنه كان في حالة الرعب كفأر سقط بين قطط متوحشة... سمعت أبي ينادي: ناصر... ناصر... (أشار إلى الرجل) المصري هذا خذه للبراقة، خلي عائشة تحضر. له بيش يكل... عدي معاه يا عم أحمد... بدا أنه لم يفهم ما يقصده والدي، وقف على وجهه تساؤل وكأنه أبكم، عيط أبي عليه: عدي معاه... وأشار أن يتبعه.

سار الرجل خلف ناصر. كتفاه متهدلان... أسرع لأبي
أسأله: هذا مصري؟

- أيوة.

- إيش يسوي؟

- يرمي الأغنام بدل التيس عمر.

عندما عاد ناصر إليه بالطعام، وجده يغط في نوم عميق...
حاول أن يوقظه لكن أبي منعه:

- المصري هذا مسكين، هذا جاء سيرًا على الأقدام من
مصر.

صاح الجميع: معقولة!!

- أيوه... مصريين واجد في درنة... وليش لا... ها دول
خبراء في الجري.

- كيف ما جروا قدام اليهود كيف ما يجن من القاهرة لحد
هنا.

على طعام الغداء قال أبي لناصر: تخرج معه أسبوعًا... توا
تأخذ البطاقة الشخصية، بعد ندلله على مكان الرعي بيش
يعرف يروح ويجيي... ساد الصمت لفترة، تشاغلنا بأحاديث
كثيرة، قال أبي كمن يحدث نفسه: لو نجح المصري هذا في
الرعي أنا نمش نشيل في اثنين كمان في درنة، ونزيد في الأغنام
يكملوا ألف رأس.

أثار هذا حوارًا في المساء بين خوتي وأصدقائهم... هل
المصريون الموجودون توا أحفاد للفراعنة أم لا؟

* * * *

بقي عمر حتى تزوجت عائشة، ورحل بعدها مباشرة وتلاه
ناصر، وفي آخر الصيف رحل ونيس هو الآخر، وبقيت أنا
والمصري المسكين أحمد نجوب الجبل الأخضر- أحاول إثارته
وهو لا يستجيب... كنت أردد أمامه ما يقوله الرجال مساء
في سهراتهم حول أقذاح الشاي ولعبة السيجة.

- اليهود هزموكم...

- أمرك يا بيه.

- المصرية غلابة.

- حاضر يا بيه.

- ثلاثة ملايين إسرائيلي يهزمون أربعين «مليون مصري».

- أمرك يا فندي.

- المصرية شعب مسكين.

- أيوه يا بيه.

- تشرب شاي.

- حاضر يا بيه.

- تأكل يا عم أحمد؟

- أمرك يا بيه.

في البداية زحف مثل دودة، أشفقت عليه، بعد ستة أشهر أصبحنا أصدقاء، كان مخلصا وأميناً.

على الطريق الساحلية أخذت أشاهد أعداداً ضخمة، آلاف من المصريين يسرون على أقدامهم حفاة باتجاه الغرب بحثاً عن العمل.

مرت السنون، والحياة تتغير، وازدحم الطريق الساحلي بالسيارات والشاحنات والبلدوزرات، وأخذت المساكن الريفية الحديثة تتناثر على هضاب الجبل، وهكذا كنت إلتقي بين عام وآخر بأحد إخوتي، تأتي عائشة أو أزور عمر في بنغازي، يجيء ناصر من طرابلس ليقضي- العطلة، بعد تخرجه عين في بنغازي، ثم رحل هو الآخر لبعثة في أمريكا، وها نحن الآن آل بوزوي نجتمع كلنا في آن واحد، وفي مكان واحد، ولأول مرة منذ سنوات عديدة في فرح ناصر.

* * * *

الفصل التاسع

على الباحة الأمامية للفيلا الضخمة اصطفت شتى أنواع السيارات الحديثة من الموديلات الفاخرة باهظة الثمن، أضيئت الحدائق وتألقت الأشجار بالمصابيح الكهربائية وأنيرت الأسوار، على المدخل رفرفت الرايات الضخمة والبالونات الملونة، لف حمام السباحة بالأضواء الخافتة، وتناثر الأطفال والصبية الصغار في الأرجاء يلعبون ويمرحون، يطارد بعضهم بعضاً وقد تصاعد عواؤهم.

على السلالم الداخلية جلس الفتية مثل ذكور داهمها موسم الإخصاب، وقد أطالوا شعورهم متشبهين بالهيبز، تتدلى السلاسل الذهبية على صدورهم العارية كثة الشعر، وارتفعت أصوات صياحهم ونداءاتهم لعنان السماء، يتابعون البدور العابرة إلى الداخل، نساء في مقتبل العمر، وفتيات تتلأل كالماس ينعكس على جبينهن بريق الفضة، يخطرن في

قدود رشيقة كغزلان تسير أطرافها على صفحة أديم هادئ. بالداخل على البسطة العلوية للسلم وقف جمع من الرجال في العقد الرابع والخامس، شيوخ هم في المرتبة الثالثة لكبار العائلة، يتسامرون ويشربون الشاي، ينفثون الدخان في شراهة، ويشرفون في حزم شديد على تنفيذ التابو الأثير لديهم لعزل الأفراد من الجنسين، الذي عادة ما يمكن اختراقه وكسره رغم محاولتهم المستميتة في الدفاع عنه بتقديس خاص.

كانت مهمتهم بالإضافة إلى العمل كمرشدين للمدعووين، أن يطمئنوا بأنفسهم بأن أحداً لن يتجاوز الخطوط الحمراء، أو يخطئ طريقه عابراً الحواجز العرفية، وقوانين العزل بين الجنسين، جناح للنسوة والفتيات والأطفال والعروس، وجناح للشباب، وحجرة ضخمة ضمت الشيوخ من كبار العائلتين والضيوف، وبعيدا إلى جوار المسبح جلس تحت الأضواء الخافتة معارف وأصدقاء عمر بوزوي الشخصيين، يجرعون من الخمر القليل ويتبادلون لفافات الحشيش تمهيدا لسهرة حمراء...

بعد ساعة أخذت تتوارد المصريات.

لعمر بوزوي بمؤسسته ست نسوة، أربع منهن مصريات، إحداهن مطلقة، والثانية متزوجة بليبي، والثالثة تدعى فاطمة، والرابعة ميرفت سكرتيرة مدير المؤسسة المهدي عمران، وكانت تعمل قبل ذلك طابعة على الآلة الكاتبة

بالتليفزيون الليبي، لكنها طردت لأسباب أخلاقية، وتولاها أحد مقدمي برامج التليفزيون، ألحقها للعمل بشركة الخليج العربي للاستكشاف براتب مرتفع، فاستأجرت شقة صغيرة بشارع الزرار، أسسها لها أصدقاء جدد، وفي خلال شهرين صنعت بيتا صغيرا تقام فيه الحفلات السرية الحمراء للتعارف، وتبادل الصداقات بين وطنيات ساقطات أو مصريات، لبنانيات، فلسطينيات على وشك السقوط، وأولئك الذين في حاجة من الليبيين، جو وردي وأضواء حمراء، موسيقى الغرب الحديثة، حفلات الشاي، أعياد الميلاد، العشاء الراقص، كؤوس الويسكي، ثم لم تلبث أن تعرفت إلى "علي جمعة" الذي ألحقها بالعمل مع المؤسسة، ولم تمض سنة حتى أصبحت المديرية الشخصية للمهدي عمران، وصارت على قدر كبير من الأهمية.

في الجزء المخصص للنساء استقبلتهن ثريا، فأخذن ركنا قصياً وحيدات، فالمجتمع الليبي يلفظ الغرباء، لا يقربهم من مجتمعه الداخلي، وإن فعل فهامشيا، وعن تفحص شديد، فكيف بنسائه؟! وهم يعلمون أن المصريات غريمات لهن في العمل والرجال، فمنذ فتحت الحدود في أوائل السبعينيات وزيجات الليبيين من المصريات تنتشر وتزداد بشكل واسع، حتى أن قوانين صدرت لتحذ منه وتقننه، في البداية كانت الزيجات تتم بين رجال عجائز بلغوا من العمر عتيا، تركوا أبناء بلغوا الرجولة، ورجال نساؤهن بعد في سن الشباب، أطفالهن في حاجة إليهم، ثم ما لبثت أن اتسعت

زيجات بين شبان تحاصرهم قلة اليد، أزومات تخلقها شروط الزواج من الوطنيات، فعبروا الحدود، وتزوجوا فتيات صغيرات السن، ونساء في مطلع الشباب، وكلهن على الأغلب من مجتمعات طحنها الفقر والتفكك الأسري، أو شدهم الطمع في المال والتخلص من ظروف الفاقة التي تعاني منها أسرهم، ورغما عن ذلك كانت على الأغلب زيجات مستقرة للمقدرة التي تتميز بها المرأة المصرية على التحمل والتأقلم مع الأوضاع الجديدة، حتى أن كثيرا من الشباب ذوي الدخل المتوسطة صار يفضل الارتباط بهن لإقامة زواج يتميز بالاستقرار الدائم، وإن لم يخل الأمر من المآسي.

كانت نساء العرس ينتمين لأعرق العائلات اللببية، الأمر الذي لا يخلو من نظرة احتقار لأجيرات جنس وحيادات دون زوج أو أخ، الأمر الذي دفعهن إلى لفظهن، فجلسن في ركن منعزل خجلا من وجودهن وحيادات، بعد قليل جاء الحفل مجموعة من العائلات المصرية، معظمهم مهندسون ذوو علاقة عمل بعمر بوزوي، يعملون بالجيش أو البلدية، كانت نساؤهن أنيقات بطبعهن، برجوازيات وقحات شرسات ينتمين في الأغلب لأصول شعبية عرفت شظف العيش ومر الكفاف، فكن بالغبية سيدات مجتمع راق وكونتيسات زائفات من طراز رفيع، انتشر أطفالهن بالحديقة وعلى طول الفيلا يلعبون ويعبثون بكل شيء، استقبلتهن ثريا بالود والحرارة اللائقة، وراحت تعرف بعضهن على بقية السيدات، وكانت على معرفة بأكثرهن... صداقة برجوازية... التحف

والطنافس، أجود أنواع الأقمشة وآخر الموديلات، تلك الأمور التي تتقنها المصريات، جلس أزواجهم حول حمام السباحة، وعلى الطاولات المحيطة به، حيث عقدت جلسات عمل وثيرة بين المهندسين ورجال أعمال ومقاولين من الدرجة الثانية وضباط وأصحاب تجارة وآخرين...

الابتسامات المتبادلة... التحيات الحارة... عبارات الشكر والامتنان والمديح، عبارات الترحاب والعرفان بالجميل على لسان المقاولين، وفي عيون المهندسين وعلى أنامل الضباط وإيماءاتهم... مقال ينتج بمهندس جانبا، يطلب منه أن يقلل كميات الحديد بأحد المنشآت التي يقوم على تصميمها، أو الإشراف على تنفيذها، وآخر يطلب من مهندس قديم أن يتوسط لدى آخر حديث لاعتماد نوع من الماكينات غير المطابقة للمواصفات، مهندس يطلب من مقال خدمة بالجوازات وآخر يريد أن ينهي إجراءات الإقامة، ويفتح حسابا بالبنك، وثالث يريد تهريب مبالغ طائلة عبر الحدود، ورابع يريد أن يستثني ابنه من المدة كي يلحقه بالدراسة في الجامعة، وخامس يبحث عن خمر وويسكي مهرب، وآخر يتباحث مع مقال حول إسناد عقد يقوم بالإشراف عليه لقاء نسبة مئوية من القيمة الإجمالية، ويقوم هو بتنفيذه بواسطة أحد مقاولي الباطن... مجموعة متشابكة من العلاقات والخدمات المتبادلة... خدمة مقابل خدمة... وجو عائلي مرح، وعلاقات طيبة حسنة، وخير يعم على الجميع، ورب أرزقي كي أرزق بقية عبيدك المخلصين.

الصخب الذي أحدثه الجميع لم يهدئ منه إلا توارد الزوجات المصريات للجلوس مع أزواجهن، الأمر الذي أنقذ بقية الفتيات العاملات بالشركة من المأزق الذي وقعن فيه، بسبب الإهمال الذي مارسته معهن النساء الليبيات، فتركن الجناح المخصص للنساء، وسارعن إلى المسيح حيث التف حولهن بعض الشباب الليبيين من العاملين بالمؤسسة من سائقي الآليات والسيارات يتبادلن الحديث والضحكات الخافتة ولما استأنست الفتيات بالنسوة، دفع أحد الشباب إحدى الفتيات للرقص، ومعه بقية الفتيات على أنغام أحد أجهزة التسجيل الصوتية، حاولت الرفض خجلاً، لكنها أخيراً لم تستطع المقاومة، شرعت بالرقص ووسط الصخب الذي تصنعه حلقة الرقص بالإضافة إلى المغنين، والضجيج الذي ينشره الأطفال أينما يحلو لهم، انتحى المهندس زكي المهداوي على طاولة جانباً مع مهندس مصري ومساح فلسطيني ومقاول ليبي يتحدثون بالسياسة.

انعكست الأضواء خافتة على مياه حمام السباحة الساكنة الصافية كالبلور، وبدأ قاعها المصنوع من القرميد الأخضر- لأزورديا كالياقوت، وقد أضيئت المياه من جوانب الحمام وقاعه، فبدت الرسوم الزخرفية المنحوتة من الحجارة والفسيفساء لامرأة عارية لعصر- النهضة الأوربي تستحم بالماء الصافي لصنبور رخامي، وقد هدّها الملل، بدت مثل تلك الأحجار الجميلة صامتة خالية من تلك الروح التي تبثها الأنهار، وعلى شفا الجداول، الأجساد العارية البضة

لغانيات تتلاعب بالماء، وفجأة سمع صراخًا وحركة في المياه
أزاحت عنه الصفاء، ثمة طفل يغرق، لحظة أن انزلق
احتضنته المرأة الحجرية، تود لو تأخذه بعيدا عن كل هؤلاء.
للحظات كان حميدة يقفز خلفه وينقذه، ارتفع الصخب
المتجمع حول الطفل الذي ابتلت ملابسه وتجمع الرجال
والنسوة في ضجيج وعجلة، ضمته أمه في لهفة وخوف
شديدين.

اقترب مدير المؤسسة المهدي عمران في عجلة، مال على
المهندس زكي هامسًا:
- عمر بيبيك.

انتفض المهندس زكي المهداوي على عجل، رفع هيكله
البدن، غاب بقامته الطويلة مهرولا وراء المهدي عمران،
تحيطه النظرات ترتسم عليها علامات الفهم تشيعه
بابتسامات مريبة لا مبالية.
صرخت فاطمة: ابتعد عني.

سارع إليها على جمعة من فوره، جذب مقاولًا شابًا
مخمورًا بعيدا عنها، نهره بشدة، تراجعت فاطمة وقد امتلأ
حلقها بالبكاء، تشعر بأصابعه الخشنة مازالت تلوك ساقها
اليمنى بعد أن حاولت أن تبتعد عنه دون ضجة، أخذتها
الفتيات جانبًا، وأجلسوها وهي في حالة عصبية شديدة،
كانت تريد أن تبكي، كان هذا سيريحها، لكنه أيضا قد لا يريح

الجمع، قد لا يريح صاحب الحفل وأصدقاءه، انتحت وحيدة إلى أحد الأركان ثم بكت في هدوء، ولما أحست بالراحة واطمأنت إلى حسن سلوكها أرادت أن تقوم ولكنها فوجئت بصوت علي جمعة يقترب منها، كانت الفتيات قد تهيأن للرحيل، همست ميرفت في أذن فاطمة فمشت تجاه علي جمعة، وأخوها يتبعها بنظرات خالية من المعنى مزيج من الكره والثقة، والتحضر- المطبوع بالضآلة وعندما انتحي بها جانباً وهمس: المدير المهدي عمران يريدك فانعدقت على وجهها ملامح الدهشة، تحاول أن تعبر عما يجول بخاطرها، ماذا يريدون مني؟ دعوة لسهرة جديدة يعقد عمر على إثرها واحدة من الصفقات أم ماذا؟

المدعوون واللالى الكهربائية، وأخوها الذي يبعد عنها بعشرين خطوة وصديقاتها اللاتي ينتظرونها... أحست بأن الكل يحط أنظاره عليها، أخذها الدوار وهي تسمعه يقول لها بصوت سمعته فاطمة من قبل... صوت ضاحك به نبرة كاملة من الأمر والثقة بأنها لن ترفض: عمري يي يقدر جهودك معنا.

كانت أذناها قد انطبع عليهما هذا الصوت منذ ستة أشهر، عندما جاءها هو نفسه بالمؤسسة بعد أن انتحي بها جانباً: أريد أن أذكرك بشيء... هذا الشيء البسيط وأقسم بالله ثلاثة ليس لي به دخل يا آنسة... هذا عمر قال لي:

أعطه لفاطمة... هدية زواجها، وقالت كما قالت أخريات من قبل: أنا لم أتزوج بعد.

قال ضاحكا: أنا نعرف أنك بعد لم تتزوجي، ولكن إيش فيها؟

كان ذهنها يدور ويتشتت، هل تعلم ميرفت بهذه الهدية؟ لم تستطع الإجابة وعاد ذهنها إلى اللعبة المخملية مدت كفها تأخذها في سرعة واضطراب، قذفتها إلى حقيبة يدها، ورحلت مسرعة... ولحظتها تنازعها ثلاثة أشياء وسط الصدمة التي أحدثها علي بإعطائها السوار... الرغبة وعدم القدرة على التفكير والتبرير... الرغبة في هذا الشيء الأثير عند النساء قاطبة، وهو حلي ولآلي يعجزن عن شرائها حيناً للفاقة وحيناً للشراهة، يقفن مبهورات أمامها وهي تقبع بشموخ داخل واجهات المحلات المضاءة والملونة، أو على صدور النساء الأخريات، تغمرهن الحسرة لعدم اقتنائها.

ثانيا... بين الفرحة الطفولية للمفاجأة، والشعور الذاتي بالذنب، لعدم توافر الأسباب الكافية لتقدم لها هدية كهذه من صاحب العمل، ومن ثم قبولها لهدية أنثوية تماما، يحل الشلل الذي يدهم القدرة على التفكير وتوتر الأحاسيس تجاه معرفة ما يدور بأذهان الآخرين فتشعر، وكأنها صارت أكثر شفافية من أشعة النهار لتعرف، ماذا يدور حولها الآن في الخفاء، تماما كفقدان اللذة عند امتلاكها.

ثالثاً... التبرير، وهو العامل الحاسم الذي جعلها تقبض بأصابعها على العلبة المقدمة إليها وتضعها في حقيبتها، فأمثال عمر بوزوي وعلي جمعة يبدون لصغار الموظفين من كتبة وبقية المهن شخصيات علوية مهيمنة، تملك السيطرة، وتستطيع أن تثير الفزع وتهب العطايا، والغرباء الذين ليس لديهم أسماء أو ألقاب عائلية يعترضون بها، وليس لهم عقد اجتماعي بالانتماء ليخلق لهم رادعا أو حاميا أخلاقيا، أو دافعا طبقيًا للمقاومة... ماذا نفعل إذن؟ حسنا فلنقبل العطايا والهبات بدلاً من أن نقتنع تحت ريح المطاردة... بالمساء تذكرت فاطمة أين رأت سوارها، ومتى أبدت إعجابها به، ولمن تحدثت؛ ميرفت وبسوق الجريد.

ثلاثة أيام وثلاث ليالٍ ظلت فاطمة تحلم بهديته، وهي مشتتة الفكر، كانت تبتغي أن ترحل بذهنها بعيدا عن حجرة مكتبها الكائن بالدور الأرضي للمؤسسة، تخلق لنفسها أوهاما طويلة ممتدة شديدة التعقيد، لكن أحلام الليل أجمل، كانت تنساب فيها عارية تغوص بجسدها الأنثوي تتلمس أمواج الرغبة، وتعود لتسرع إليه لتظل معه ساعات طوالا بين اليقظة وأحلامها.

* * * *

في مسكنها الكائن بأطراف بنغازي الذي تعيش فيه مع أخيها الطالب بجامعة بنغازي، والذي قاموا على صنع أثاثه من صناديق الخشب التي توضع بها البضائع القادمة من

أوربا عبر البحر، ينتقيها المصريون من الشوارع ليلاً ومن أمام المخازن التابعة للمحلات الضخمة ليصنعوا منها أسرة ومقاعد صغيرة ومناضد للأكل ومطابخ بعد أن يخفي خشبها بالمشمع، وقد برزت في كل مكان قطع الإسفنج المتسخة من الأحشية والوسائد التي فرش بها الأثاث، على الحوائط وضعت بعض الصور المنزوعة من المجلات لممثلين وممثلات مصريين وبعض المناظر الطبيعية.

في وسط هذا كله كانت فاطمة تنكمش وتنكمش حتى تتلاشى لتبرغ في مكان آخر...

هل يريدني عشيقته؟ لا، لن أقبل... عندما يدعوني إلى شقته الخاصة سأسمح له بتقبيلي... بل سأغرقه بقبلائي هذا الإله المعبود... لكي لن أسلم له نفسي... سيكون أحق لو ظن أنني على هذه الدرجة من السهولة... سوف أسمح له بقبلات كثيرة... في شقته... وسأصنع له القهوة وأقدم له الشاي وسأبدو جميلة وعصرية، وسأرتدي له الملابس القصيرة وسأضع ساقاً على ساق، أرسل شعري خلفي، أدخن، أترك صدري لرأسه يتوسده، سأطعمه من بين يدي أشهى المأكولات، وعندما يجلس كل منا قبالة الآخر سأجعله ينسى... همومه... كل همومه... حتى همومه مع زوجته... الليبيات حمقاوات لا يعرفن صعوبة حياة رجال الأعمال... في شقتنا الصغيرة سيستقبل أصدقاؤه... هه... ضحكت في نفسها... سيظنونني عشيقته. لكنه سيوضح

لهم الأمر... نحن أصدقاء... وعندما سيبصرون أية روعة تكون شقته! وأية لمسة ساحرة هي التي سأضفيها عليها! المآدب الشهية التي سيتناولها من بين أصابعي وسط كؤوسهم سيدجلوني، سيحسدونه، وعندما أمشط له شعره الكثيف بأصابعي سيجن، ويود لو يعانقني لكي سأهرب منه، وسيجري خلفي، ومهما حاول أن ينالني سأقول له، ونحن نتشابك... انتظر انتظر ليس هذا اتفاقنا وسيقبل، وسأسأله هل أنت سعيد؟ وسيجيبني نعم، فأقول له: حسناً، يكفيك هذا... وهكذا حتى يتعودني، وفجأة سأتركه وأذهب، سوف يبحث عني بالمؤسسة، وهناك سيسألني بعيونه لِمَ لا آتي... وهؤلاء الأغبياء لا يعلم أحد منهم شيئاً... ضحكت... لا، سوف أترك الشركة أيضاً، وسيعرف هو عنواني، وساعتها سوف أُملي عليه شروطي... إن كانت سعادته معي عليه أن يتزوجني... لا يهم أن يترك زوجته... ليس هذا مطلباً عسيراً وأنا لم أكذب عليه... فقط أوضحت له الحياة التي باستطاعته أن يجدها معي.

* * * *

في الأيام التالية ذهبت فاطمة إلى المؤسسة وقد مشطت شعرها عند مصفف الشعر، وارتدت أحسن ما لديها من ملابس، وتألفت كمن تذهب لسهرة، تظل تنتظر مرور عمر بوزوي دون جدوى ساعات طويلة ولا تياس... وعندما يلح بخاطرها أبيها وإخوتها الصغار، وهذا الذي يدرس في جامعة

بنغازي على نفقتها، فإن حملاً ثقيلاً من نفاذ الصبر، يكتف على صدرها، تود لو يؤهلون لها زواجا معقولاً، تتساءل... لم يصير كل هؤلاء حملاً عليها؟ ولماذا لا يعرف هذا الغر، كم يستهلك تعليمه من نقودها وعمرها وشبابها؟ لماذا لم يحصل على مجموع يؤهله للدراسة بمصر-؟ ولا تلبث أن تهز رأسها قائلة: ليس لديهم شيء عندي... لا أحد يدينني بشيء، بعدها تعود إلى أحلام اليقظة العذبة... إذا وافق سوف أحيا معه بالظل، ولكني سأعده للرحيل إلى مصر، بل سأجبره بطريقي الخاصة، فهناك يستطيع أن يجد أعمالاً ضخمة، ويستثمر أمواله الطائلة لا شك أن الفكرة ستعجبه، وهناك سأكون ملكه حيث أحيا بالنور... هل هذا كثير؟ لا... أنا وهو في عز الشباب، أنا أعطيه التحضر- وهو يعطيني ماذا... الأمن... الاستقرار... سطوة المال... الجاه؟

وتغفو وهي تتوسد ذراعي عمر مطمئنة، وعندما يجيء الصباح ترحل إلى المؤسسة حيث تقرب منها الفتيات والشبان اللبيين جميعهم، حتى المهدي عمران حضر- إلى مكتبها، سألتها وحدثها في شؤونها الخاصة... لا تدري لم؟ لو تدري، فالجميع الآن يعاملها في طلاقة، أكثر تودداً، تمنى لو تقول لنفسها إنني لم أعد غريبة، بل أصبحت فرداً من عائلة المؤسسة، في آخر الشهر جاءها خطاب يعلمها فيه مدير المؤسسة المهدي عمران أن رئيس مجلس الإدارة عمر بوزوي، قد رفع راتبها عشرين ديناراً شهرياً، ليصبح تسعين ديناراً تقديراً لخدماتها، وما تبذله من جهد وإخلاص

للمؤسسة، وهو يرجوها أن تبذل المزيد، أصابتها نوبة فرح واعتزاز بنفسها وبالمؤسسة وبصاحبها وهتفت... حقا... سأبذل كل ما بوسعي.

طوال شهر وفاطمة تنتظر، توثقت علاقتها بميرفت، شاركت في رحلات المؤسسة إلى الجبل الأخضر، وفي رحلة لمشروع أجدايبا أمضت خارج المنزل ليلة، امتنع أخوها عن الذهاب معها، فالأمر صار مملاً أن يقوم بدور الحارس المزعوم وسط أشخاص لا يعرفونهم، ذهبت مع ميرفت والمهندس زياد وزوجته المهندسة مريم إلى السينما مرتين، وحضر معهم مفتاح المدير الإداري للشركة، وهي مع كل دعوة تحس بالزهو والراحة، ويقل عن صدرها عبء اللفظ والاحتقار الذي يعاني منه صغار المصريين في مجتمعات النفط، إنها الآن تغشي- المجتمعات برغم أن هذا يحدث عبر منافذ ضيقة.

الليلة نسهر سهرة صغيرة، هل تحضرين؟ همست ميرفت لها بشكل خاص أسعدها وأثلج صدرها...

- ومن سيحضر؟

- كثيرون... ذكرت لها أسماء أربع فتيات، وصديقة أخرى لمقدم برامج الأطفال بالتلفزيون، وثلاثة من الضباط لا تعرفهم وكذا علي جمعة.

سأحضر... أجابت وهي ترى علي جمعة مقبلا يثير زوبعة من الضحك والمناوشات مع الموظفين، عندما صار قبالتها حياها بألفة صاخبة، ردت التحية وهو يسأل ميرفت:- أخبرتيها؟ أجابت بالإيجاب.

- إذًا، ستحضرين يا آنسة... أقسم بالله ستحضرين، اليوم سنقضي- ليلة ستروق لك... ولم يتركها كي تجيب بل استمر قائلاً: ترى ردي بالك... أنا نعتبرك أختي، ونحن أناس محترمون... اسألي ميرفت أنها تأتي ويأتي معها والدها ووالدتها... سوف تحضرين... وأقسم بالله ستحضرين، نحن أسرة واحدة ترى أنت أخت لنا... أخت عزيزة علينا وجميلة... باهي... إيش قلت؟ قولي إنك تجيي.

قالت بخجل وقد أطراها حديثه كثيراً

- سأحضر... أخبرتها قبل أن تأتي مباشرة.

- باهي... أمر عليك بسيارتي مع ميرفت بالثامنة مساء.

- سأنتظركما... وحدثت نفسها... كم هو لطيف؟

الشقة الحديثة المكونة من طابقين بإحدى العمارات الضخمة الواقعة في شارع جمال عبد الناصر، الرياش الفاخر الثمين، السجاد الوثير، الستائر المخملية، الأجهزة الكهربائية المتناثرة على امتداد الشقة، البار الصغير الذي يقع تحت السلم الداخلي، الموسيقى الناعمة المتصاعدة من جهاز استريو حديث، الأضواء الخافتة والحشايا المصنوعة من

الستان الأصفر المبرقش ملقاة على الأرض وعلى أطراف الأرائك المنخفضة الأمريكية الطراز، منافض السجائر الثمينة التي امتلأت بأعقاب السجائر لنساء اجتمعن حول المناضد المتناثرة، تتجرعن الويسكي في كوؤوس طالما حلمت باقتنائها، عبق الدخان الذي تمتلئ به الحجرات، تبدو خلفه نسوة شابات عقدن شعرهن وقد كشفت فساتين السهرة عن صدور ممتلئة بضرة وخميرية، شهية كعناقيد العنب المسكر، تتلألأ بانعكاسات الضوء كدرر جميلة وضعت خلف زجاج واجهات عرض المحلات التجارية، نساء اختلطت جنسياتهن؛ مصريةيات وليبييات ولبنانيات وفلسطينيات، ويونانية، وثلاث يوغسلافيات، توزعن في باقات مثل باقات الورود الاصطناعية حول رجال بلغوا العقد الرابع والخامس من العمر، برز عليهم الثراء والمكانة، وشبان لأكثرهم وسامة، يتنفسون هواء السلطة؛ الثقة الغرور، مقاولون وتجار وضباط وأشخاص لا تعرف أحداً منهم، امتلأت بالسعادة لأنها هنا في هذا المكان... تمت لنفسها قائلة... فقط لو يكون هذا مجتمعي.

دعاها علي للجلوس على منضدة بدت هادئة، جلست بجواره امرأة لبنانية تشاهد لعب الورق، وما لبثوا أن أفسحوا لها مكاناً للعب.

وسط المعاملة المهذبة التي كانت تجدها من رفاقها حول المنضدة، تصرفت بطريقة طبيعية للغاية؛ تبتسم وتتبادل

عبارات الاستحسان والأسف مع الجميع تجاه حال أوراقها،
في حين كان الجميع يساعدها على الفوز، في الدور الثالث
كانت قد صادقت عددًا منهم، في البداية تناولت عصير
الليمون والبرتقال، ومع زيادة مشاعر الألفة والود بدؤوا
يلحون عليها لتناول الويسكي، ورفضت بأدب بالغ.

قال لها الرجل الجالس قبالتها، والذي كان يناديه الجميع
باحترام بلقب سي الرائد مفتاح أن هذا النوع من الشراب لا
يسكر، مثله مثل عصير البرتقال، ربما هو مر قليلاً لكن لا
بأس، وأمنه الجميع، وكانت هي الأخرى على استعداد
لتصدق هذه الكذبة الصغيرة... استطرد المقاول ذو السحنة
الغشيمة بتهذيب جميل؛ أن الله خلق الويسكي من أجل
خاطرنا نحن المساكين اللبيين، وضحك بود واستطرد... ولا
تخافي يا أنسة... لن يغفو أحد، ولن تسكري، فأعصابكم -
أنتم المصريين قوية -.

الكأس الثالثة قدمها لها رجل المخابرات وهو يضغط
بركبته على فخذيها قائلاً: الخمرة كأس من الأشعة المتألثة،
براق الضوء المنبعث من عينيك... صداع خفيف ليس أكثر
بعدها اليقظة.

وقد كان.. فقد انتابها الصداع، انسحبت من اللعب
واستبدل بعض الجالسين أماكنهم، وانسحب ضابط
المخابرات، تبعته اللبنانية، لاحظت أنهما خرجا منفردين.

البراءة التي أحست بها للوهلة الأولى تجاه المكان أخذت تنقشع رويدا رويدا، هذا إحساس خامرها وهي تعبر الصالة تجاه الشرفة، كانت ميرفت قد اختفت هي الأخرى، واختفى معها بعض الوجوه، ألفت إلى وجهها الماء البارد فانتعش ذهنها يحاول تفسير أشياء واضحة... أضواء برزت من أعقاب أبواب غرف مغلقة، سجائر تحترق بشراسة بين أنامل سيدات... أعداد كبيرة من زجاجات الويسكي الفارغة، جاكيتات لرجال وأغطية ظهر لنساء ملقاة على مقاعد فارغة... أزرار قمصان مفكوكة، سواعد بضرة وأكتاف عارية لنساء كشفن عن باطن أفخذهن... عبق الرائحة المريبة لسجائر يعاد لفها بعناية تناثرت داخلها القطع البنية الخضرة... نهود نصف عارية انكأت بعفوية على سواعد الرجال وأكتافهم... مجون يتصاعد فجأة من امرأة لا يلبث أن ينطفئ، وتحل محله ضحكة خافتة، عبرت فاطمة الحجرات بعينها وهي تقف بالشرفة المظلمة إلى حيث يجلس علي بالداخل، تعلقت نظراتها عليه، وطردت مخاوفها، فهي مازالت عفيفة، وإن كان عمر بوزوي قد رحل نهائيا من أحلامها، فقد بقي علي قريبا وفي حدود المنال.

قبل أن تغادر الغرفة عائدة إلى أصدقائها الجدد، أضيء النور فجأة، وعبر الباب امرأة يتبعها رجل، تراجعت مسرعة إلى الشرفة، تسمع فزعة همسات وأنات خافتة، اختلست النظر، لم تشاهد سوى جزع المرأة السفلي يندفع خارجا والرجل يتابعها، جذبها إلى الداخل مغلقا الباب، ارتعدت وهي

تشعر بالمرأة تستسلم له، نهشتها الرغبة أن ترى ما يجري في الداخل، خمنت بالرجل يجذب المرأة نحوه فتستدير مستجيبة له، لم تكن ترى سوى نصفيهما السفلي، فكرت وهي تكاد تقفز من النافذة أن الرجل يضم المرأة ويقبلها، وقد استندت بظهرها إلى الباب كاشفة عن ثوب طويل من الموسلين الخفيف، الذي احتوى جسدها في طراوة تناسب مع ثنايا جسد المرأة؛ خصر- نحيل يرتكز على حوض واسع شد قليلاً، يرتفع الثوب عند أردافها المكتنزة ثم ينسدل إلى أسفل وقد ماج مع ساقها الملفوفتين بين ساق الرجل، صانعاً وادياً بأعلاهما، وكسرتين خفيفتين تجمعتا أسفل البطن وقد علتها انحناءة.. عالية.

يد الرجل الخشنة التي انزلت على خصر- المرأة فشدت ساقها ودفعت بجذعها اللدن نحوه، أحست بهما فاطمة فوق جسدها، أخذتها الرعشة، ترى كفه تلوك الخصر- وتزلق إلى الفخذين، تأوهت المرأة وهي تميل إلى التخلص من الرجل الذي ارتكن بجذعه عليها، تهاوت مقاومتها وكفه تسكن أعلى الفخذين، ضغط خفيف يزداد حدة وسكون بين فنية وأخرى، تصلد الجسد، وجسدها يتفتت إلى ذرات، يتناثر عبر الرياح القاحلة، ليعود ويتجمع على كف الرجل الذي يتلاعب بجسد المرأة... برهة قصيرة وكادت تبلغ ذروة البحر إلى أن رحلت المرأة وخلفها الرجل بقليل.

والخدر ينتشر- بجسدها عبرت الغرفة إلى حيث كان علي جمعة، لمحت المرأة مستلقية في نصف إغماضة واسترخاء، وقد أنفج فخذها قليلاً، على وجهها ملامح لذة غير مكتملة... في إحدى القاعات التف الجالسون حول لبنانية ترقص وقد تمكن منها الخمر... وقفت تستجمع ذاتها، عندما دفعوها للرقص رفضت عائدة إلى حيث كانت بالمرة الأولى، استقبلوها بترحاب، أفسحوا لها مكاناً ضيقاً بين علي وضابط المخابرات، كانت الطاولة مزدحمة بالمشاهدين، وقد تناثرت حول أوراق اللعب أوراق نقدية، كانوا يلعبون القمار بمبالغ رمزية، لا تدفعهم للتوتر، فقط البحث عن حمية، كان علي يخسر، شعرت بالضجر والجميع منهمك باللعب، ارتكنت إلى الخلف في مكانها الضيق، تابعت علي وهو ينشغل عن اللعب بحديثه مع جاره، بدا أنه يخسر- مبالغ قليلة، شيئاً فشيئاً سمحت لجسدها أن يسرق الخدر من الالتصاق به، تاركة نهدها الأيسر- يسبح على اهتزازات ساعده، باعثاً بها لذة واسترخاء عميقين، كادت أن تغفو لولا خوفها من أن يفطن أحد لمتعها الخاصة الصغيرة...

أحياء القاهرة الفقيرة، الألوف المكدسة بالحواري، بطون الصغار التي تعوي عواء الذئاب الجوعى ليلاً، عري الأطفال المتسخي البشرة، البرك والمستنقعات الطينية، الأوحال ذات الرائحة الكريهة لمجاري القاهرة، الفراش المكس بالأجساد المتلاصقة بنات وغلما... وجبات الطعام الليلية التي يسرقها الآباء من الأبناء، الحوائط العارية، قطع الأساس

العتيقة المهمشة، المتع السرية التي تختلسها الأجساد المتلاصقة بأنوبيسات القاهرة المزدحمة، أحداق الصغار الواسعة الممتلئة بالدهشة، تؤرقها التساؤلات الممضة لرغبات بسيطة، لا تجد سوى الصمت الحزين إجابة، شبكة أخطبوطية من أعلام وتليفزيون تبث سموم مجتمع تسيطر عليه قوى تقدر الاستهلاك، تصنع حمى جماعية لرغبات جانبية لا ترتوي ولا تشبع قط، تُخلف لدى الجميع ضجرا وبؤسا ورغبات مهزومة، لا تلبث أن تنمو إزاءها كالفطر شروخا شعرية دقيقة، كتلك الشروخ التي يتركها حملا مستديما على جسد يتحرك... الكلال... الانهيار المفاجئ... تهتز النفوس، تمل الأفتدة، تفت حدة الشرف، تصير الاستقامة عبئا شديدا الوطأة، والقدرات الإنسانية الخلاقة مثلها مثل مصباح علاء الدين، مستحيلة الوجود... تنهزم العقلانية... يحل التجار قوانينهم تحت سماء الهزيمة.

الأحلام المنهكة، رغبات الجنس التي قمعت لفتاة تعدى عمرها السابعة والعشرين، القيم الدينية عندما تقوم على تثبيت الفوارق الطبقية والدفاع عنها، لم تترك لها وسط أنواء المجرة قشة تهرب بها من مصيرها المحتوم، لقد فتشت داخلها فلم تجد قيمة واحدة تستند عليها أمام وطأة الواقع المرير.

استيقظت على دعوتهم لها للعب بدلا من علي الذي خسر لتوه خمسين دينارا، رفضت، كان من الطبيعي أن

ترفض، فهي لا تملك حتى إمكانات المغامرة... لكن علي جمعة حلف أغلظ الأيمان أن تستعيد نقوده الضائعة، فهي بالذات تجيد اللعب؛ وتبطن لهجة التري لأصحاب النفط أسلوب جد أمر... لقد تحداهم بها وأعطاهم المائة دينار، وطلب منها أن تعيدها مائتين، وهو ينقل لها ثقته أنها ستفعل.

لو أن جنونا دفعها للعب، أو حب المغامرة لكان تفسيراً يبعث على الإشفاق، ليس الضحك، فمثل هذه السلوكيات لا تملكها سوى أميرة أو غانية تمتلك قدرة شد الرجال من آذانهم، لكن فاطمة دفعت للعب دفعا، ولعبت على مضض، مبررها الوحيد فرصتها أن تكسب، لو تكسب... خصوصا أنها ماهرة (هكذا قال الجميع)، هكذا تكسب نقطة لصالحها ترضي بها «علي»، أما الحقيقة، والحقيقة الوحيدة فقد سيقت إلى اللعب كما يساق موظف أحرق ينفذ أوامر سيده، ولقد خسرت والرعب الذي خالطها وهي تفقد مائة دينار ليست لها، يفوق الهلع الذي خالط كونتيسة شابة فقدت مائة ألف فرنك على الموائد الخضراء، ورغماً عن تطمينات علي المستمرة، هاجم مسامعها كلمات مبتذلة مستترة قارصة من اللاعبين والمشاهدين معاً... آن للقناع أن ينكشف ببطء، لو تملك شجاعة ضابط بولوني قديم لانتحرت بجانب الطاولة التي خسرت جسدها عليها... فكرت بأن عليها رغم عبارات اللامبالاة التي تنتحلها المجموعة تقديم جسدها لهم على طبق من ورق اللعب، لو

طلبوا منها ذلك، لكنهم ما كانوا ليفعلوا، لو فعلوا لجمعت أشلاءها الباقية ولتبقت لها فرصة الفكاك... ما كان الجنس هدفاً وحيداً لهم، كانوا يريدون علاقات قوية متينة... علاقات طويلة لا تنتهي بشروق الشمس، وليس لأقل من تفكير عميق قادر على أن يكشف تلك الخيوط غير المرئية التي راحت فصيلة العناكب تحيط بها ضحيتها.

على طاولة العشاء الشهي حدثها علي عن أفكاره الصغيرة للحياة بالقاهرة، كيف يود لو يقتني شقة صغيرة في حي الزمالك، وأطرى جمالها، معبراً عن وده، موضحاً أنه ليس ثمة فارق بينهما، فهي أخته، وند له، وأضاف أن الإنسان لا يقيم بما يملك من نقود ولكن بطبيعته السمحة الودودة.

بعد العشاء تناولت الويسكي بسهولة، وعندما دعوها للرقص هذه المرة رقصت كعاهرة، كانت تعرض عليهم ما لم يطلبوه منها عربون صداقة وامتنان لقبولها بينهم، عندما تركت الشقة قرب الفجر إلى شقة ميرفت تيقنت تماماً أنها في هذه البناية فقدت حريتها.

مضى -أسبوعان، كانت فيهما كالطير الذبيح، لا تدري شيئاً، ولا تستطيع أن تقرر شيئاً، تمنّت لو أنها تستطيع أن تتواري وتخفي فجأة، أن تستقيل شرط أن لا تلتي نظراتها بأي منهم، تمنّت لو أن الأيام تعود للوراء وينمحي عن حياتها هذا الكابوس، لكنها قبلت هدية أحدهم، ثلاجة أمريكية الطراز، لم تفكر عائلتها ما إذا كانت ميزانيتها تسمح من عدمه، وقيل

لها بأن أحدهم ينوي أن يهديها تلفازاً ملوناً، لم تستطع أن تعبر بالرفض، ولم تسعى لفهم المغزى من هذه الهدايا، وعقبت ميرفت التي تولت نقل الأخبار إليها:

- لا تكوني حمقاء، فالنقود أشد نفعاً من هذه البضائع، اسألهم أن يعطوك نقوداً، وليتها تكون دولارات... لم تعقب، فكرت أنه يتعين أن تترك التفكير لميرفت هذه التي لا تأبه لشيء... لتترك للأنواء مسار حياتها ولميرفت المصير.

ميرفت، أين هي من كل هذا، وددت لو تلقي إليها بكل لواعجها، أليست صديقتها، أليست رفيقتها التي يمكن أن تنير لها ظلمة الطريق...

- علي متزوج؟

- بتسألني ليه؟

- ما أقصدش... يعني... سؤال عابر... إزاي يكون متزوج، ويسهر بره طول الليل.

ضحكت ميرفت لسذاجتها، سألتها في برود: وهو أنت متزوجة؟

ألجمها السؤال، قالت بارتباك: عمري ما ح اعملها تاني.

عادت ميرفت للضحك: مش قصدي يا غبيه، إيه اللي مخوفك كده...

ولم تستطع التوقف عن الضحك حتى سالت الدموع من
عيونها، عندما استعادت السيطرة على نفسها انحنت عليها
تقول:

- زعلت... كل ما في الموضوع أنت لسه صغيرة، وإذا
أصريت على سؤالك ح أجابك... طيب... علي ما لوش في
الزواج.

- إزاي؟

- لا هو راجل ولا ست... خنى.

اهتزت لهذا المعنى الغامض، وبدا أن حلما آخر على وشك
الانهيار، في الظهيرة أقبل عمر بوزوي بقامته الطويلة من
آخر الممر، عدلت من هندامها بسرعة، واعتضت طريقه
متوقعة واحدة من ابتساماته الشهيرة، انفرج ثغرها عن
ابتسامة واسعة، لكن عمر قذف بها إلى الجدار فقد نهرها
بقذارة وعصبية قائلا:

- وين مكتبك مفيش عندك عمل؟ ليش تصبي في الطريقة.

ولو احترقت في هذه اللحظة لاستراحت، ماذا تفعل بهم
وبهداياهم، كانت مثل فأر ابنتي عشه في ساحة للقطط
السوداء المستوحشة... لقد بدؤوا اللعب بها...

* * * *

تناولي الحبة هادي... قالت السيدة الفلسطينية لفتاة
ليبية صغيرة جلست منزوية في ركن قصي... أجابــــــــــــــــت
الفتاة:

أريد عشر حبوب...

نظرت لها صاحبة الدار بتساؤل... استطردت الفتاة:
صاحباتي...

لمحت المرأة فاطمة تطيل النظر، قالت وهي تنتقل
جوارها:

- إيش لونك... بدك إياه...

- إيه ده؟

- حبوب للسهر... وضحكت: بتخليك سعيدة.

- أسمك إيه؟

أجابت الفتاة: زينب... وأنت؟

- فاطمة... وين عملي... إيه؟

- طالبة.

قال الملازم بالمخابرات لفاطمة: ضعيتها في الكأس
واشربي... تمنعت قليلاً، لكنها استسلمت، تناولته وهي ترى
زينب تفعل.

لم يكن بالصالة سوى أربعة؛ فاطمة والفلسطينية وزينب، وملازم المخابرات، وكانت ميرفت قد خرجت مع فاطمة عصرًا تعلمها قيادة السيارات، ثم تركتها بالشقة على أن تعود، راح الملازم يبيتها حديثًا كله مواراة، لم تمض ساعة حتى عرض عليها الزواج، رفضت، كانت متعلقة بعلي، لكنه التصق بها عنوة، يحاول تقبيلها، وهي تمنعه، حاولت الصعود للطابق الثاني من الشقة، لكن الفلسطينية منعتها بشدة، طرق الباب، صعدت السيدة بسرعة ثم عادت بارتباك تسأل زينب الصعود.

- حضر؟

- إنه بانتظارك.

سألت فاطمة: من هو؟

أجابت وهي تبتعد للداخل: اهتمي بأمورك فقط.

سألها الملازم: تبي تعرفي منو بالطابق الأعلى.

أجابته وحب استطلاع يقتلها: نعم.

- ارقصي معي.

قالت رغبة في الهروب: أنا جعانة...

- أجيب لك أكل، وناكل سوا.

عاد بعد قليل ومعه صينية بها أنواع من الجبن واللحم البارد وبعض زجاجات البيرة... جلسا يأكلان، اندلعت صرخة

داويه من أعلى... هبت مذعورة، قبض الملازم على ساعدها
يجلسها ثانية، وهو يردد: ما في شيء... ها دول يديروا في
ألعاب... مجرد ألعاب.

- ألعاب ايه... مين هو؟

- ليش ما تأكلي؟

- شبعت... زينب؟!

- نعم.

- مين معاها؟

- قبليتي؟

قول بس... مين معاها؟

قال وهو ينتزع منها قبلة: بوزوي.

هتف بهلع: عمر!!... بيعملوا إيه؟ علي فين... قامت تريد
الهرب من الشاب الذي كبس على أنفاسها. أشارت إلى إحدى
الحجرات الجانبية: عايزاه.

- موش توا... هو نايم.

تسللت فاطمة منه صوب أحد الأبواب... طرقت الباب
بلطف، لم يرد أحد، نادت وهي في حالة سكر:

- علي... علي... تعال... عايزة أكلمك في موضوع.

جاءها صوته من الداخل يصرخ بها: اذهبي... مو توا.

- ح ادخل... بتعمل إيه عندك.

- أنا قلت لك تمشي من البيت توا.

وضعت يدها على مقبض الباب، همست بصوت ناعم وقد بدأت حبوب الهلوسة تفعل فعلها: مش ماشية... عايراك في موضوع مهم... كلمة وتجاوبني عليها فوراً... تتجوزني؟

لم تسمع صوتاً، أستطردت، أنا على أتم استعداد لأن أتزوجك... ح أساعدك...

كيف واتتها الشجاعة أن تلفظ مثل هذا العرض، أجابها وهو يصرخ من الداخل: كيف تساعدني؟ - مش ح اهتم بكلامهم الرخيص عنك.

- هيا أذهبي، أنت مخمورة.

استطردت تحاول معرفة إذا كان وحده أو معه مؤنس، دفعت رأسها من بين فرجتي الباب: مين معاك يا علي؟

فتحت الباب، اندفعت للدخل وعلى الفراش كان منظرًا غريبًا جعل كل قطعة في جسدها ترتعد... كان علي جمعة مستلقيًا على الفراش عاريًا، وجواره مسعود العبد الذي يعمل سائقًا على الآليات الثقيلة في المؤسسة، نظرت إليهم، وقد أمسك بها الرعب، أفاقت من غيبوبتها، وقد عرفت أي جرم ارتكبته، وأي منطقة محرمة أوقعها فيها غباؤها، صرخت: بتعملوا إيه...؟

قفز نحوها وهو يطوح بقبضته في معدتها صارخا بها:

- إيش تبي تشوف الشرموطة؟

أجابت وبها ثورة من الغضب والبكاء: طب وأنا هنا ليه؟

همس الملازم لنفسه: لا تتعجلي، سيأتي دورك في ميعاده، ستعلمين بعد قليل... لم تتمكن من الوقوف؛ إذ إن ألما هائلا انبعث من بطنها المتقوسة إلى الخلف، سقطت على الأرض تحت عنف الضربة التي تلقتها، جذبها من شعرها وهو يقذف بها خارج الغرفة.

صرخت: ارحمني يا علي... ما كنتش أعرف أن معاك حد، ما كنتش أعرف.

من أعلى السلم ألقى بها إلى أسفل، نادى المرأة الفلسطينية:

- خذي القحبة هادي بعيد عني.

تلقتها المرأة وأخذتها إلى الداخل، تسألها عما حدث.

قالت وهي تشهق: معملتش حاجة.

مددتها المرأة على فراش وثير وأعطتها حبة أخرى، أعقبها الملازم بكأس.

خذي هذا كي تستريحي وتهدأ أعصابك... دفع الكأس إلى فمها، تناولته دون وعي، شعرت بوهن شديد، سمعته يسألها:

إيش تقولي للزامل هذا؟

سألته يتزوجني.

بابتسامة سخرية على وجهه: شنو ما تعرفي؟

- أعلم... كنت أريد إنقاذه مما هو فيه.

كادت أن تتوه... لقد جاءت هذه المرة ومجيئها يعني لهم قبولاً، كان بينها وبين السقوط شعرة، كان عليها أن تبحث فوراً عن شيء يحميها من كل هذه الأسرار التي اكتشفتها بحماقتها دفعة واحدة... أما الفرار فلا يجدي، وقد سقطت...

كان الملازم أول من فض بكارتها، لقد سالت نقاط من الدم الأسود على الفراش دون أن تراها، أو حتى تحاول البحث عنها كما تفعل كل فتاة شرقية، ففي هذه النقاط شرفها. وكان عليها أن تقبل منذ تلك الليلة أنها لن تراها، ولن تراها فيما بعد قط.

بمجموعة من الإرشادات الحكيمة والتي تتخذ من الواقع برهاناً، قبلت فاطمة قدرها وفهمته، وقد تولت ميرفت معاونتها على الفهم:

- الله لا يقبل... سبعة وعشرين عاماً دون زواج... كم دخلك الشهري... ستين ديناراً! لا تقولي أخذ تسعين... ده عند عمر بوزوي فقط، بنت زيك ما توفرش أكثر من عشرين ديناراً... يعني أربعين جنيهاً مصرياً غلبانين، لو قابلت شاباً طيباً مؤهلاً للزواج، قدامكم خمس سنين للحصول على

شقة على أطراف القاهرة، وتلاته غيرهم لتجهيزها، عشر- سنوات لجمع رأس مال أي مشروع صغير يدر دخلاً يقيم العوز، وشر الحاجة، فإذا كان يعول إخوة إضافة لأمه كما العادة، فعليك اختصار الطريق إلى القبر... فكري جيداً... هنا كنز وليس مؤسسة للدعارة... كل ما يريدونه الثقة... الثقة فقط... قبل أن أنسى، أصلحي ما أفسدته مع علي جمعة، وإلا، فعليك تقديم استقالتك فوراً.

طوال ستة أشهر وبعد أن وقعت الفأس في الرأس، وقد انكششت على نفسها؛ فعلت فاطمة بانتباه وصمت، ما يتوجب عليها فعله حتى جاءتها دعوة حضور عقد قرآن «ناصر أخو عمر» ... سبحت في شلالات الارتياح، فقد تيقنت أنها نجحت في الاختبار.

في جلسة خاصة حول حمام السباحة التف المدعوون من موظفي المؤسسة حول مديرها المهدي عمران الذي سألها: تبي العمل معنا غادي بمصر... استقرار وراتب مجزي... إحنا نفكر ندير مشروعات جديدة غادي.

هزت رأسها بالإيجاب وهي تتساءل: ح أعمل إيه؟

حديق بها، وهو يفكر لبرهة: كيف ما تديري هنا... محاسبه... وأمور أخرى... استدار ناحية ميرفت... ميرفت تصير معاك... أصاب الأخرى الوجوم... وجه حديثه للآخرين: أنتم ترون هنا مهندسين وموظفين، مصريين، فلسطينيين، سوريين، لبنانيين، وأشخاصاً من مختلف المهن

والجنسيات، ولهؤلاء المخلصين في عملهم تقدم المؤسسة لهم فرصاً حقيقية... إننا نقدر الذين يرون في مصالحهم الخاصة مصلحة المؤسسة، ونعتر بالذين يدافعون عما تملكه المؤسسة وكأنهم يدافعون عن حر مالهم، وأنا أقول إنه ليس لدينا فرق بين عرب وليبيين، فبإمكان هؤلاء أن يرتقوا، وأن يحصلوا على فوائد مادية جمة، ليس فقط عند حدود الراتب والمكافأة السنوية التي نعطيها للمجدين، رغماً عن أنها احتكرت جهودهم البدنية والذهنية بمجرد توقيع العقد... مطلقاً، ولكننا على استعداد لأن نبيح لهم أن يستفيدوا من أعمالنا قدر إفادتهم لنا... وبين أولئك الذين يوائمون بين مصالحهم ومصالحنا يكون أصدقائنا الموهوبين، أما الذين يقفون على عتبة بابك كل صباح محملين بمتاعبهم ومشاكلهم الشخصية فقد خسروا... أن المؤسسة تعطي وبلا حدود، ونحن نقدم فرصاً طيبة، ولكننا نريد صداقة حقيقية، وجزءاً من إخلاصكم القديم لمؤسستكم.

* * * *

الفصل العاشر

بين القاعة التي جلست بها النسوة والقاعة الخارجية، اجتمع صغار ورجال وشيوخ، أولاد عم وخال وأقارب للعروسين من الدرجة الحميمة، ثلاث فتيات كن يثرن الانتباه بالداخل والخارج، البعض كان يراهم حمقاوات والبعض يتساءل أولاد من هم؟ والبعض كان يتعجب لسنة الحياة التي تسارعت في ليبيا إلى هذا الحد الذي تقف فيه فتيات متبرجات ينشرن التعليقات الساخرة والكلمات المكشوفة، تغطي رنين ضحكتهن الخليعة على ضوضاء المكان، الآخرون كانوا يرون فيهم أقحابا...

- هذا هو عمر... همست أكثرهم خلاعة والتي تبلغ من العمر عشرين عاما.

- حق النبي... هتفت الفتاتان وكأنهما تكتشفان شيئا مبهراً، استطردت في صلافة وغرور لا يسمح لأي شاب بأن

يقترّب ذلك، إنها ستشعره أنه مجرد طفل لم يعرف الحياة بعد... وهذا الذي بجانبه النقيب سالم، والآخر علي جمعة...

لكزتها الفتاة الصغرى: كيف عرفتهن؟ هزت كتفها بلا مبالاة، استطردت: ومنو هذا؟

أشارت الوسطى إلى شاب يقترّب منهن: هذا حميدة أخو عمر...

سمع أسمه يتردد على شفاه الفتيات بجرأة وبتعمد من لا يبالي سماعه لهن، اقترب مستاء، يود أن يعرف من هن... قال: نعم، إنني حميدة... تشرفنا والآنسات منو؟

قالت إحداهن بقحة: عليش تبي تعرف يا ابن عمي؟

تابعت الكبرى وهي تغمز له بعينيها: كلنا أولاد العبيدات.

فضحكت الأخيرة وقالت: حتى مو هك، كلنا أولاد حوا.

قال مبتعداً: قصدك أولاد حيه... زُمن وكشرون وجوههن...

قالت الكبرى: تبوا نكلم في عمر... فتحن عيونهن من الدهشة، صرخن: معقولة؟!

- أيوه معقولة... تراهن؟

- أيوه... تراهن... كم؟

- خمسة دنانير.

- موافقة. بس نبي نكلم علي...

هزت كتفيها وأشارت تجاهه: هاذا هو عدي غادي كلمي فيه.

* * * *

كانت المائدة الأخيرة قد أعدت واصطفت عليها فتيات في عمر الزهور، وبعد أن اكتملت المائدة صاحت عائشة: ثريا... ثريا تعالي بيش تأكلي لقمة... أجابت عليها من الداخل: توا نجى...

دخلت المرأة المعذبة بخيانة زوجها وملامح الإعياء على وجهها، وذهنها المشغول بالشك يقتلها، قالت وهي تدخل:

- وين حميدة بيش يأكل معنا؟

قالت عائشة وهي تبتسم ابتسامة لها مغزى: عدي يجيب في ونيس بيش يباهت في الصبايا.

غردت المائدة بضحكات البلابل، قالت فتاة: وإمتي يجن؟

أجابت عائشة: مستعجلة!! صبرك شوي...

احمرّ وجه الفتاة وتعالّت الضحكات، قاطعتهن فوزية ابنة عم الأسرة: ما نصير نأكل يا صبايا... إلا بعد ما يجي حميدة...

وافقن جميعا وصديقة تقول:

- على إيش الانتظار. ترى تباهت في ونيس؟

أجابتها ابنة عمها في حنق: حميدة يحترم في الرجال
والنساء على السواء ليش ما تنتظره؟ عدي قولي له يجي
بسرعة.

- باهي باهي... توا حضر.

وقف حميدة بباب قاعة الطعام مصابا بالتردد، عاجلته
عائشة تقول: تعال بيش تأكل إمعانا.

أجاب وقد ابيضت ملامحه: أنا نأكل بعد ما تخلصن
الطعام.

قالت فوزية: وين كنت؟

أجاب مضطربا: كنت أسوي في أغراض...

صاحت به عائشة: تعال... إحنا والصبايا ننتظر فيك بيش
تجي وتأكل معانا.

- باهي... وأنا نجي.

عبر المكان بنظره ثم أطرق إلى الأرض، وقد بهتت
ملامحه، واصطنع على وجهه ابتسامة خجولة... همس... يا
ربي، كوكبة من البدور... نجوم في السماء، تفاحات
ناضجة... صبايا واثقات بأنفسهن يثرن الارتباك... قطعت
عائشة عليه أفكاره:

- تعال هنا... بجاني...

- أنا ما أقعد بيناتكم أنت وثريا...

كشرت عن ملامحها وقالت: وليش؟

- أنتم التنين قمر...

ضحكت عائشة وثرثريا... عقبتم ثريا في حبور: هيك...

قالت فتاة: تتغزل في خوتك...

قالت صديقة: باهي... أحسن ما يتغزل في الصبايا...

(جمعز) جنبي...

أمامه مباشرة جلست هادئة تبتم في حياء لا ترفع
وجهها من على المائدة.

غاب الجميع قليلاً عن الحديث، وبدأن في تناول
الطعام... أدهشته بساطة ملابسها وحشمتها وعدم ترجها،
كانت ترتدي فستاناً تماوج فيه اللون الفيروز مع الأخضر،
بفتحة واسعة من الصدر مغطاة بقطعة من الشيفون
الأسود، وقد تدلي رداؤها حتى منتصف الساق على قصة
شانييل...

تساءل: من تكون؟

على أن سؤالاً أعاد إليه اضطرابه، فقد عاجلته ابنة عمه
قائلة:

- وينو ونيس؟

- ما ندري.

- ليش وين كنت؟ ما ذهبتم بيش يجي؟

أجاب مصطنعا الغباء: وليش يجيي؟

- بيش يباهت في الصبايا...

أصفرّ وجهه وحل الاضطراب ثانية... قال: توا يجيي.

تصاعدت الضحكات ثانية، لم يمنع نفسه من الضحك،
وقد كشف نفسه، عاد إلى الأكل ثانية لا يمنع نفسه عن
اختلاس النظر للصبية الصغيرة وجاءه سؤال بلكنة مصرية:

- إيه أخبار الدراسة يا باشمهندس؟

أزعجته كلمة باشمهندس، فما زال أمامه شوط طويل:

باهي.

- أنا ما نحب الهندسة بوكل هاذي توجع الدماغ.

قالت الأخرى: أنا ريحت نفسي... كلية المعلمين... أربع
سنين من دون مشاكل، بعد المدرسة، ثلاثة أشهر إجازة كل
عام.

أجابها: تبي تريحجي؟ دراسة الهندسة متعة... متعبة لكن
ممتعة.

قالت فتاة: نعم ممتعة، لكن تناسب الرجال أكثر من
الفتيات.

- معقول؟ موهيك، هتف وهو يحدق في الباب وكأن
حملاً ثقيلًا انزاح عن كتفه.

هذا ونيس.

صرخت عائشة: تعال يا ونيس...

ولكنه وقف متعجبًا، نظر إلى حميدة، وجده يتناول طعامه وهو جالس وسط مجموعة من الفتيات... سأله: إيش تريد؟

تلجلج ولم يجد ما يقوله، كانت الفتيات كلها تنظر إلى حميدة، تلاقى بصره مع عائشة وثرى وهو لا يجد منفذا فقال:
- عائشة وثرى يبوك... وعاد يلتهم طعامه.

حل صمت على الجميع، ضحكت عائشة وقالت:

- تعال يا دكتور، تعال بنات عمك بدن يسلموا عليك والصبايا ببواهن فيك.

قهقه: باهي بباهن... لحظات واستطرد والابتسامة تملأ وجهه:

- هه كاف يا بنات. أعدي غادي... امتلأت الغرفة ثانية بتغريد الصبايا وضحكاتهن الرقراقة.

قدمت له عائشة كرسياً وهي تغمز له بعينها:

- تعال ببش تأكل... أنت ما أكلت.

عندما جلس قالت: وهي تضحك وتلوح بيديها الاثنتين تشير لجميع الجالسين وهي سعيدة حقاً بأخيها الذي يشرفها:

- هيا يا دكتور باهت واختار...

أدار عينيه يحدق فيهن جميعاً في جرأة، غفروها له لطول
المدة التي أمضاها في أوربا، خفضن رؤوسهن حياءً وخجلاً،
وقد توردت وجناتهن احمراراً وفتنة، والسرور يمالأ أفئدتهن
يسمعونه يقول:

- والله هذا شيء يحير، كيف أختار وسط كل هذا
الجمال؟ كلن حلوين.

صمتت ثريا خلف ابتسامة باهتة، وجوانحها تمتلئ
بالنفور من الجميع؛ عائشة... الفتيات الطائشات... هذا الغر
المتصاي ونيس... والصبي الخجول حميدة، حتى هي نفسها،
المرأة المخدوعة المهانة... على أي فراش خدعها زوجها،
فراش الزوجية؟ أم في غرفة المكتب؟

غمرت حميدة الراحة، جمع شجاعته من ثقة أخيه،
حدق بالصبية الجالسة أمامه، ضحكت زميلتها تلكزها،
همست بصوت سمعه: يباهت فيك يا زاهية.
- اسمك زاهية؟ هزت رأسها علامة الإيجاب.

سمع صوتها لأول مرة تقول: نعرف... برق في ذهنه
جوابها بخاطر لم يستجمه بعد: في أي سنة تدرسين؟

- الثانوية العامة.

- تجي الهندسة؟

- ما أدري.

انقطع حديثهما وسط ضجيج الفتيات اللاتي انتهين من الطعام، وقد اندمج معهن ونيس في حديث مستفيض عن أوروبا، ولم يكونوا ليتركوه، فقرروا متابعة حديثهم في القاعة الجانبية وتزايد عدد الفتيات ووقف على الأبواب بعض الشباب الفضولي، وقد امتلأ بالحسد.

... أوروبا... النساء... الطرقات... الحرية... التقدم...
الدراسة... الطب... التكاليف... نحن - الليبيين - أثرياء...
عملتنا عملة قوية في أي مكان في العالم عندما أجد ليبيا في
أحد المراقص ينادي ليبيًا آخر بصوته القوي المخطوف: يا
علي... علي... أشعر أنني وجدت وطنًا...

لا أستطيع الزواج من أوروبية، هناك الحرية وسهولة
الانفصال وسهولة الصداقة، لكن الفتاة الليبية تنصاع
لمجتمع يسيطر عليها... زوجها... أبوها... إختوها...
المجالس العرفية... أما في أوروبا فالأمر يختلف، المرأة تقبل
الاستمرار في ظروف حياة بشعة تفعل من أجل أطفالها
فقط. بالخارج لا شيء يمنعهن من الانفصال، الليبي يريد
زوجه للعمر... أوروبا طبعًا جميلة... جنيف، فسبادن، فينا،
غابة بولونيا... نعم... لكن الجبل الأخضر... عظامنا تتكون
منه، لا تستطيع أن تزرع في مكان آخر.

جاء حميدة، لمحها تقف مع الفتيات المتحلقين حول
ونيس في ركن قصيٍّ وكأنها تنتظره، قرر أن يستفسر- منها عن
خواطر راودته، اخترق الردهة الوسطى، يدُرّن حول أنفسهن

حائرات في ريبة. أين ذهبت الثالثة؟ هل رحلت؟ من باب جانبي للقاعة، كانت زاهية تقف بجانبه مباشرة، سمعت الصوت الذي كانت ترجو فيه أن يأتيها مهدبًا:

- آنسة زاهية.

التفتت إليه، كان واقفا خارج الباب، خطت إليه خطوة، فصارا وحيدين بالردهة، وقف وظهره إلى الحائط، وأمامه كانت زاهية والغرف المقابلة، كان باب إحدى الغرف المظلمة مواربًا. سألتها:

- نبي نسألك سؤال؟

- شنو؟

أضوء نور الغرفة التي وورب بابها. قال بلطف جميل:

- بالله... تعرفين اسمي؟

- نعم.

انطفأ حماسه، فقد لمح ذيل فستان أرجوانيًا بالغرفة فعدل من وضعه، لمح قدم امرأة لم يستطع أن يتبين وجهها. عاد إلى زاهية وابتسم: بالله كيف عرفت؟

- أخي.

- منو أخوك... يدرس عندنا؟

- مفتاح إسماعيل... يدرس العلوم... حدثت عيناه بالدهشة، لم يكن قد سمع الاسم من قبل، وأمامه لمح

واحدة من الفتيات اللاتي اعترضن طريقه منذ قليل تتحدث مع شخص لا يستطيع رؤية وجهه، لمحها تباعد ما بين ساقيهما، وهي ترفع ذيل فستانها ببطء حتى بلغ منتصف ساقيهما، دارت رأسه يحاول التيقن من أن زاهية لا ترى شيئاً، قال وهو مشغول بما يجري في الغرفة الواقعة خلفها:

ما نعرف أخاك، هذا.

- هو يتعرف عليك.

- كيف؟

لمح قامة رجل تخطو تجاه الفتاة، شعر بالرعب... لو أن أحداً لمح شيئاً مما يجري لحل بالعائلة العار وأصيب المنزل بالدمار... سمعها تقول: يقولون إنك شيوعي...

صرخ: منو؟ أنا... لحظة من فضلك، اندفع باتجاه الغرفة...

منذ فترة وجيزة وقبل قدومه مباشرة، مر علي جمعة قريباً منهم... ما الذي جعلها تناديه... لا تعلم... ربما لأنها تورطت مع صديقتها في رهانها معهم... الجرأة التي واثتها لحظة الرهان أزاحتها الضوضاء التي تمتلئ بها الفيلا، كثرة الموجودين، الأمر الذي جعلها تهدأ قليلاً، لكن قدوم علي... لقد اقترب منها عابساً وصاح: سميرة... !! إيش تسوي هون؟

قالت بغنج وألفة الأصدقاء: شنو حالك يا علي... أنا نبي عمر.

- ليش؟

- عليش تسأل... شنو دخلك يا أخي... تنافسي فيه؟

- توا نقول له...

عبر الصالة عائداً إلى حيث عمر، مال عليه قائلاً:

- غادي بره قحبه تبي فيك.

- نظر إليه بدهشة وابتهاج: معقولة هاذي...

غمز علي بعينه: مليحة يا عمر.

سبقته إلى تلك الغرفة المظلمة، وهناك أضاء عمر النور

يسألها:

- إيش تبي؟

لم تتحدث، اكتفت برفع ذيل فستانها تكشف عن ساقين
بديعين، أثارته بشدة... مَدَّ يده يفك حزام بنطاله وهو
يغمغم... شرموطة... استدار يغلق الباب، عندما التفت لها
ثانية، وجدها تغطي رأسها بذيل الفستان، شعرت بيديه
تلوك فخذتها... لهتت: أنا نبي نتعرف عليك فقط.

- باهي وهذا أنا أسوي.

دفع حميدة الباب فوجد سروالها مُلقًى على الأرض، كاد
أن يصرخ لكن رؤيته لأخيه ألجمته، خرج يرتعد... أغلق
الباب خلفه لم يرهاية فحمد الله، أسند ظهره إلى الباب
وهو يلهث وصوت الفتاة يهمس: راعي عمر... أنا... أنا... أنا

ما نقصد... بالله عليك يا عمر أنا صغيرة... أنا ما نقصد... أنا
ما قصدي... عمر آه... آ عمر.

صرخة مكتومة أعقتها صفة... شعر بالفيلا تهتز تحت
قدميه... سمعه أخوه عمر وأبوه وأمه وأختاه ونيس... ثريا...
يا إلهي... كل رجال القبائل هنا... سوف يقتلونه... رجال
بنغازي... يا ربي، الكلب يقتلنا جميعا... دخل مندفاعا، كان
عمر وعلي يهزان الفتاة بقسوة، وقد انتابتها هستريا، وأخوه
يعدل من ملابسه...

صاح علي: ترى رآك حدا؟

قال حميدة: لا...

قال عمر بهدوء: اكنتم أنفاسها أو اقتلها القحبة.

أدهشه برود أخيه الذي التفت إليه مبتسماً ابتساماً رجل
قوي الشكيمة، رجل يجب أن يبغض...

قال عمر: رآك شفت شيء؟

لم يجبه حميدة ونظر إلى الفتاة... كانت تبكي وعلي جمعه
يقول: إيش تبّي يا قحبة... هاذا هو عمر... رآك اترحت...
هيا اصمّي ما نسمع صوت بوكل، صمتت الفتاة وأخذها كي
تغسل وجهها، على الباب قبض علي جمعة على ساعدها
بقوة: توا تأخذي القحاب أصحابك وتعدي غادي طول...
نبيش نشوفك هنا لحظة واحدة... فهمت.

هزت وجهها المصفر الملامح، وعدلت شعرها
وخرجت... وخرج حميدة من الباب الآخر... وعلي يصيح
على عمر: يا أخي... أنت إيش تسوي بالقحاب الصغار... أنت
صغير!! عدي مصر- تلاقى عشرة آلاف «شرموطة»، كل
واحدة تدير فيها كيف ما تي... ما حدا يشوفك وما حدا
يسألك...

* * * *

الفصل الحادي عشر

وقف الشباب في صف طويل استعداداً لرقصة الكشك،
عندما اكتمل عددهم رددوا عبارة "علم ويش". تتلوها أغاني
العلم، تناوب عليها شبان، قال الأول:

نرجاهم عزا في الطوح عزاز لجل لوعات نارهم⁽¹²⁾

فيلحقه غيره " بشتاوتها "

نعد حين ونا متيم كان دراجاتي جابدهم

ويقتسم القيادة شبان، فيقوم بالرد عليها بأغنية علم أخرى
انتظارا لمجيء الحجالة.

قائد خصاه الروح فعل عزيز يا عين هو اللي

وألحقها شاب من أتباعه بشتاوة.

(12) المعنى: سوف أنتظر حبيبي طويلاً ولن أمل الانتظار وعزائي أنني سألقاه يوماً ما.

جرحةٌ جا للعين تعذر نين فصاه الروح مقندر (13)

دخلت الحجالة عذراء لم تزوج بعد، ممسكة بعصا رفيعة تصحبها أمها العجوز، مرتدية الرداء في طيات متتابعة، وعلى وجهها وضعت نقاباً يخفيه، وقفت ساكنة لا تحرك إلا بعد أن تلتهب الأكف بالتصفيق، ويتفصد الشباب عرقاً فترقص في خطوات بطيئة على نغم، لا ترتفع قدماها عن الأرض.

في هذه اللحظات جاء المهندس زياد وزوجته المهندسة مريم في عربتهما القديمة من طراز بيجو 504 وقد أنهكه التعب، ألقى بتحيطه للجميع، عندما شاهد فؤاد زميله وغريمه بالعمل حيّاه بحرارة، رد المهندس فؤاد التحية ووجهه يمتلي بتعابير التوتر والخجل، فلما نحى فؤاد وجهه سأل المهندس زياد الحاج حميدة عن سبب وجود هذا الإنسان بالحفل، فقال له: لقد دعتة القوادة المصرية ميرفت بيش عمري ينهي حسابه اليوم ويعدي، وبين جميع موظفي المؤسسة وجنسياتها لا يوجد شيء اسمه الشرف، فالكل ينهش في الآخر، والصراع لا تخفيه الابتسامات مهما بلغت قذارتها وانحطاطها، وعندما تكتشف سرقة أو بمعنى أصح عندما يراد التخلص من شخص غير مرغوب فيه، يعلن عن

(13) المعنى: إن حبك قد توغل في قلبي وأعماقي حتى شطر بذره روعي نصفين.

سرقة من سرقاته، وفي ردهات المؤسسة تردد قولة عمر بوزوي الشهيرة:

- "إلبي يبي يسرق يجي لي أنا... بيش نعلمه كيف تكون السرقة".

بعام 1975 تكون المؤسسة قد بلغت من العمر خمس سنوات، ومع العام الجديد تعبر عامها السادس، وعلى الطريق الرئيسي- لبنغازي درنة أقيم مبنى كبير على مساحة ضخمة، وقد زخرفت واجهته بالألواح الزجاجية الملونة وصنع مدخله من الزجاج الفاخر، وامتدت الردهات داخله والصالونات الواسعة، الكافتيريا التي تقدم سندوتشات الفاصوليا المطبوخة، وبالذور الثاني انقسم المبنى إلى جناحين، جناح المهندسين وصالة الرسم، والآخر قاعة الاجتماعات ومكاتب رئيس مجلس الإدارة ومدير المؤسسة، وبينهما نافورة صغيرة تدل على الثراء وحسن المظهر وطول الجاه، أمام المبنى أقيمت مظلة لوقوف السيارات، وبالساحة الخلفية شيدت خلاطة مركزية للخرسانة، وسط أطنان هائلة من حديد البناء، وفي الجانب الأيمن شيد مخزن ضخم صنع من جاملونات الحديد، شون فيه الأسمنت، ومواد البناء الأخرى، وأمامه اصطفت أربع رافعات ضخمة، ورافعتان هائلتان، وسبع عربات من طراز ماجروس لخلط الخرسانة، وقد أحيط هذا كله الذي بدأ متميزاً بين كبار مقاولي الشرق بسور ضخم، زين بالأضواء الملونة، والأشجار

العالية، وعلى مدخلي الخروج والدخول، صنعت بوابة وقف عليها حرس، ورسم على الأرض المحيطة بشجري المدخل بالطوب الملون صورة لقلبين، فكانوا مثلاً لأعجب أنواع التنافر... وفي كل مكان وضع عمر شعار مؤسسة النصر، النسر- الذي يرتفع بجناحيه، وقد امتدت مخالبه، ولكل آلية أعطيت رقماً، وبعد أن كان كل ما يملكه عربتين تحمل إحداهما رقم 2 والأخرى رقم 12، صار عدد الآليات الضخمة الحديثة يتعدى الستين بما يقارب نصف المليون دينار ويفوق.

وعلى الرغم من أن المقر ليس من الفخامة والبهاء الذي هو عليه بالبلدان الرأسمالية، إلا أنه كان (على الإطلاق) أكبر مقرات شركات المقاولات في شرق ليبيا، وإذ لم يكن أقواها فقد كان يعبر عن طموح صاحبه الشديد، وأحلامه، وقد أحيطت بعمر بوزوي هالات أسطورية، حبكت فيها القصص والحكايات، وكان عمره الذي لم يتعد السابعة والعشرين، وثروته التي بناها في خمس سنوات مثار حسد الناس وإعجابهم، وعلى ما كان عليه عمر كانت مؤسسته، فمواقعه تميزت بالوفرة الشديدة، واختلال النظام، والطابع العام المسيطر على إنتاجه دائماً ما لا يتوافق مع المواصفات الفنية، بل يخل بها في مقابل الاعتراف بسرعة الإنجاز، وقوة العلاقات، لا أحد يستطيع أن يقف أمامه، ولا أحد يستطيع أن يعارضه، فجاءت مواقعه خليطاً عجيباً من الأشياء.

تخصص المصريون وأعداد قليلة من الفلسطينيين في الإشراف من قبل شركة الإنشاءات العسكرية، والمدنية، وكانوا قد ظلوا يكافحون طويلاً في سبيل تحسين نوعية الإنتاج، إلا أن سلطتهم كانت ضعيفة، ولم يسلموا من المضايقات والتحرشات، بمكالمة تليفونية إلى مديرهم نقل أحدهم، بعد أن حصلوا على نجاح جزئي انشغلوا جميعاً، بدفع معاوولي الباطن في الأعمال لقاء قومسيونات، ولقاء التغاضي عن سوء الأعمال. المهندسون الذين يعملون مع عمر؛ فلسطينيين ومصريين وثلاثة سوريين، ويتقلد المهندس زياد منصب كبير المهندسين، والخلاف بينهم ليس هندسياً قدر ما هو صراع على تقسيم العوائد المادية، ولا معنى مطلقاً للشروط الفنية أو توفير المواد، فقط السرعة، وعلى هؤلاء جميعاً يسيطر ملاحظ الموقع الليبي الحاج حميدة. إنها الثقة، ليس فقط، ولكنها أيضاً ما يفرضه توحد المصالح بين الوطنيين والمازجرية.

في موقع كتيبة المدفعية كانت الأعمال تتزايد قيمتها في سرعة جنونية وتعدت قيمة المرحلة الأولى أربعة ملايين دينار، كان المهندسون كلهم حديثي التخرج، فسادت الفوضى وخاصة تحت سيطرة الحاج حميدة، فلا خشب في مكانه، ولا الأوناش تعمل، وأطنان الحديد أهيل عليها التراب مع زحمة العمل، فيعثر عليها صدفة، والمياه غير متوافرة والخلاطات تحمل الخرسانة فلا تجد مكانا للصب، ومع الأيام انفرط النظام تماماً، وكان الحاج حميدة الذي تتجمع

في يده كل الخيوط يجيد تعقيدها تنتابه العصبية فيطارده
عاملا مصريا ليضربه، أو يناوش مهندسا فيهيئه، ثم يعود
صائحا:

- ربي الشيطان إن كان عمر يكسب درهما واحدا.

اختص السودانيون بقيادة السيارات الضخمة
والخلاطات، لما اشتهروا به من الحلم وقوة الأعصاب.
واختص المصريون بقيادة الآليات الخفيفة، أما مقاولات
الباطن فقد سيطر عليها السوريون، وكان هناك عدد صغير
من الفلسطينيين والمصريين، وتحت هؤلاء جميعا كانت
العمالة المصرية ملح الأرض تبنى وتهان وتذل وتقبض في
النهاية الكفاف.

هذا ما كانت عليه المؤسسة التي كان زياد كبير مهندسها،
وكان قد تخرج في جامعة دمشق عام 1972 حيث التحق
بالعمل بموقع سلاح المدفعية، وكان يحمل الوجه الشامي
الأبيض، ضئيل الحجم، يميل إلى القصر، زحف الصلع إلى
مقدمة رأسه، في حين طال في مؤخرة الرأس كثيرا، وترك
سوالفه وذقنه تستطيل، ولما جاء مهندس فلسطيني آخر
تخرج في جامعة الإسكندرية حل محله في الإشراف بالمواقع
وانتقل هو إلى الإدارة، وقد خلف المهندس زياد أخطاء فنية
قاتلة، مبان مرحلة عن مواقعها أمتارا عديدة، وأخرى أقيمت
في وسط الطريق، وثالثة أخذت تنمو بها الشروخ، لا يقيها
سوى أنها طابق واحد، ورابع به سلم كامل أغفلت منه

الكمرات الرئيسية في مبنى الضباط، وأخذ في إصلاحها وترميمها من جديد، وساحة تعدت تكاليفها ربع المليون دينار، اتجه صرف المطر بها إلى الداخل فتحولت إلى برك أثناء الشتاء... تعقدت الساحة حتى كاد العمل أن يتوقف بها تماما، ولم يستطع أحد من المهندسين أن يجرؤ على العمل بها لهذا الخطأ المساحي القاتل، وكان قد بدأ العمل براتب قدره مائتي دينار، وارتفع فيما بعد إلى ثلاثمائة.

أما زوجته، فقد عينت براتب قدره مائتان وخمسون دينارا، وبدأ عملها الجديد في أوله مثيرا لدهشة الجميع، فقد كان غريبا أن تعمل مهندسة بالحكومة، فكيف بالقطاع الخاص، ومضى - شهران ومريم لا تدري ماذا تفعل، فكانت تقوم بمراجعة التقارير وأعمال الحصر، ومرت الأيام الأولى والاضطراب يسود حياتهما، وزوجها يعاني من صراع شديد مع الجميع، وهي بعد لم تكتشف ذلك كلية، وبالرغم مما يفوح من رائحة بالمواقع، إلا أن المؤسسة تكسب، وبدأ أن زوجها يضعف تدريجيا بينما يرتفع نجمها... جميلة تتميز بتناسق ناعم بالوجه والجسد، وجاذبية أنثوية خلف ملامح أرستقراطية تبعث على الاحترام، لم يكن جمالها مبتذلاً، وما حاولت قط أن تكون كذلك، وعندما تعرفت على زوجها كان بالسنة الأخيرة بالكلية، شاب باش، يبعث وجهه على الراحة والبساطة، يعزف الجيتار، ويغني بالإنجليزية، يحيا حياة برجوازية لعائلة أحد كبار ضباط الجيش، وكانت طبيعته تدفعه كي يتخذ سمة البساطة والبعد عن الشراسة، حتى لا

يستجلب غضب الآخرين وحقدهم لقاء مسحة من التواضع، والمشاعر الطازجة المرتسمة دوماً على وجهه، وكانت مريم قد خرجت تواً من قصة حب باءت بالفشل، ولما كانت في غير حاجة، وليست لديها القدرة على أن تخوض صراعاً مع حب جديد يناسب شخصيتها وشكيمتها، فقد وجدت في زياد الصديق الذي سرعان ما تقدم لها عبر والده، فوافقت في فتور، وفي طموح الشباب قرر زياد أن يشق طريقه في بلاد النفط، على أن يعقب ذلك فيما بعد فتح مكتب هندسي بالشام أو بيروت بعد عودته، لحظتها يدخل المجتمع من أوسع أبوابه، وسلطة رأس المال وليس عن طريق وسائل ونفوذ ذوي القربى وهم كثيرون، ووافقت كما وافقت على الزواج من قبل بفتور، ولكن دعوته لها بالعمل بالمؤسسة بعثت فيها نشاطاً وحيوية فجاءت مسرعة، وكانت المؤسسة قد أسست لها فيلا بحي الفويهات، وأعطى «نور» عربته البيجو، ولم يمض على مجيء مريم شهر حتى استلمت عملها بالمؤسسة.

* * * *

الفصل الثاني عشر

بنغازي مدينة باهتة الملامح، في الصباح تغرق في صحراء الغربية الهادئة، وفي الليل يخيم عليها سكون البحر، لم تتمكن مريم أن ترى المدينة بالصبح، وإذا ما خرجت ليلا كانت تعود من فورها، ليس ثمة ما يدعوها للبقاء، لا الناس ولا المحلات التي تغلق أبوابها في الثامنة مساء، ترفعت عن أن تكون علاقات اجتماعية مع المصريات بالمؤسسة، وتجنبت توثيق علاقتها بميرفت، بالرغم من أن الثانية حاولت الاقتراب منها كي تتبين طبيعتها، ورغم الفراغ الذي ساد الأيام الأولى إلا أن وقتها أخذ يمتلئ تدريجيا، وكلما اتسعت الأعمال، وزادت أعمال الحصر، وعدد المباني غرقت مريم أكثر فأكثر في العمل، وكلما أخذت تتبين الآخرين كان الآخرون يتبينونها، وشيئا فشيئا أخذت تستقل عن زوجها، في البداية انصب تقدير الإدارة في كونها أنثى تملك الجمال

والترفع، على أن الأعمال التي قامت بها جعلتهم يغيرون نظرتهم لها.

لمحت مريم علامات الشقاء والتعب البالغ ترتسم على وجه زوجها، فتشعر بالإشفاق والود، ولم تكن لتسأله مباشرة، وما كان ليحيبها مباشرة، ليس لأنه يرغب في أن يكون ملتويا معها، بل لأنه فضل أن تفقد براءتها قليلا على صفحات حسابات المؤسسة ومستحقات المقاولين، ذلك أنها لا تزال ترى في مرتبهما معًا دخلاً مجزيًا، باعثًا على السعادة، أما الآن فهذه هي أسئلتها، وإجاباته:

- ليش يكون سعر هذا المقاول أعلى من سعر المقاول الآخر لنفس العمل؟

- جاء برعاية مهندس بالأشغال العسكرية اللي بده يأخذ عمولته عن طريق هاداك.

- وهاذا؟

- هاذا أخوه للنقيب بوسعون بسلاح المدفعية.

- هذا المصري يعمل بالمؤسسة؟

- لا. هذا مهندس وزارة الإسكان والبلدية يشرف على خط مياه معسكر بني يونس.

- وليش يأتي الشركة كل عشية؟

- يشرف على تنفيذ الأعمال. هذا يسهل من الانتهاء منها.

- ولماذا يتعب هذا المصري؟ - أعمال. أعمال...
رزق يا ستي.

- على شو يستحق هذا المقاول الأبي رث الثياب. يأخذ الآلاف
من الدنانير شهرياً؟

- أرزاق... لنا الشقى والتعب والعراك مع عمالهم، نعرف
فيهم كيف يكون العمل، يظلمون في أحواشهم، ويجوون أول
الشهر بيش ياخدون المصاري، يعدون ويتركونا ونحن متل
اللي باع نفسه إلى المؤسسة، نحصل في دراهم...

وبالفعل بعد شهرين فقط شعرت أن ما تأخذه في هذه
الطاحونة التي تدر ذهباً على الجميع ليس سوى دراهم. فلما
مر الصيف وحل الشتاء بأمطاره، بدأ الليل حالكا ليس له
آخر، والأيام تسير متشابهة خالية من الحياة، موغلة في
البرودة، ولأن الصباح كان ممهوراً بلون الزيت الداكن، مغموراً
برائحته، مدبوغاً بعنصر- القوة والعنف، الكائنين في سلطة
رأس المال وسطوة العنصر- الوطني، كان الليل حالكا. تنزوي
فيه النوافذ المضيئة، وتقبع خلفه عيون ساهرة تحرق في
الظلام.

وبالرغم من السكون البادي فوق المنازل والبيوت، كانت
الأسرة تحوي فوقها يقظة عصابية، وزفرات حيرة وهم،
وأناث جوع جنسي- تبعث على الإيلام لدى النفوس السوية،
وبجوار الجسد الذي بدا هزليلاً ضعيفاً بقيت مريم لا يزورها
النوم، وقد حل بها اليأس والتعب، فما أسرع ما تمر الأيام

وتتغير الأحوال، وقد أصبح يومها بالمؤسسة مزيجًا من كل الفصول، الشتاء والصيف... الربيع والخريف... صداع دائم وكرهية مقبّية، وما كانت المرأة الأموية الشابة بقادرة على أن تتكيف بهذه الأوضاع المقبّية، فانكشمت بعيدًا عن زوجها وكان يتعد هو الآخر، وبدت له امرأة باردة، وبينما كان النوم يأخذه سريعًا لحظة أن يلقي بجسده للفراش، كان لا يغشاها النوم، فتقوم إلى المطبخ تعد لنفسها الشاي وتعود لتدثر بالأغطية الثقيلة، ترشف الشاي الساخن بتلذذ، تتابع دخان سجائرها عبر زجاج النافذة المضاء بمصباح الشارع، وبين الوجوه والصور يبرز الوجه المسيطر لعمر، فيداخلها مقت وكرهية شديدة لهذه القوة الهوجاء... وتوتر وترقب مبعثه شعور بكونه شخصية متقلبة يصعب أن تأمن لها، تظل تسأل نفسها، ماذا لو أنها لم تأت قط إلى هذه الصحراء، وهؤلاء الأجلاف المنتشون غرورا وكبرياء، ليس لهم صديق، ولا عدو، يوما بابتسامة وآخر بتجهم عبوس... يعادونك يومًا ويقربونك يومًا، هوائيون شديديو التأثير بأقوال الآخرين، يسهل وقوعهم تحت سيطرة أي داهية، لا يوجد شيء صحيح واحد إداري أو فني، فكل الأشياء يسيرها العنف... ولكن مريم ما كانت تشعر بكل هذا التوتر إلا بسبب زوجها الذي كان مسئولًا وغير مسئول في نفس الوقت، مسئول عن كل شيء، ولا يحمل سلطة تجاه أي شيء، وبدأ أمامها في الأيام الأخيرة كمن يرتدي ثوبًا لشخص يفوقه في الحجم والطول، ولو بقي الأمر على هذه الحال لصار هينا، لكنه

أصبح يمثل أمامها بالمكتب دور المهرج، فبدأ لعبة صغيرة بين يدي الملاحظين والمديرين والإداريين الليبيين، ينتقدون آراءه، وإذا وجدوا شيئاً معقولاً ينسبونه لأنفسهم، وكأنهم قد شربوه منذ نعومة أظافرهم...

اتخذت موقفاً سلبياً مشرعة الأظافر، لا تحادث أحداً ولا تتبادل وإياهم التحيات، نظرات الاحتقار السامة، تنفيذاً ما يتوجب عليها عمله، ولو بقي الأمر على حد هذا لهان الأمر، لكن زوجها كان ينكأ جرحها كل يوم، ويحطم وجوده لديها كل مرة يتقبل فيها هذه الأوضاع الغريبة، مكتفياً بابتسامته البلهاء.

تململ داخلها، وفي مخيلتها كان ثمة وجه يتشكل من الماضي، تقاومه في اللاشعور، فلا تلبث ملامحه أن تضيع؛ لكن هشاشة علاقتها الزوجية... والقلق الذي يداهما بعنف، دفعاها إلى الهروب من الحاضر وطرق أبواب الماضي.

* * * *

قوة العناصر في تفردتها، الفرد يستقي قوته من ذاته، لا تداخلات ولا شوائب، هذا ما تذكرته وهي تقف أمام النافذة تحديق في الفراغ وقطرات المطر تتساقط على وجهها، أين هي دمشق الآن؟ هل هي في هذا الاتجاه أم أن الاتجاهات تضيع؟

وكلما استعادت صورة المؤسسة تصاعد الدم في رأسها،
تشعر وكأن فولاذًا يقبض على صدرها، المصريات يحوم
حولهن سائقو الشاحنات، يتبادلون الهمسات والضحكات
المدوية، وميرفت عاهرة بالسليقة تلك حقيقة يكتشفها
المرء في كل لفتة من لفتات جسدها المتمرد، تقودهن
خلفها... زوجها عازف الجيتار... مسخ صغير يرى في
الأحوال جمالاً ولذة؟ يستطيب فقدان احترامه لنفسه. كيف
لم أكتشف ذلك من قبل؟ لا يستطيع أن يحيا الإنسان هنا
دون مداهنة... عرف هذا فعله... وهم يقتربون مني
بسرعة... لو أنني استطعت أن أعاقب كلا منهم على تصرفاته
الخفية، لصنعت لهم المقصلة الفرنسية.

كانت الأحداث تقترب منها حقاً، وإن كانت مازالت بشكل
غير مباشر، ففي الصباح حضرت لجنة من الأشغال
العسكرية لمعاينة مبنى القيادة الذي تتسع به الشروخ يوماً
بعد يوم على امتداد ارتفاعه، هدد العسكريون بإزالة المبنى،
وبقي زياد مكفهر الوجه عاجزاً يطلب من المهدي عمران
مدير المؤسسة أن يطلب من عمر بوزوي التدخل
باتصالاته، فأجابه بعبوس:

- توا نشوف يا باشمهندس. توا نشوف.

في مكتب عمر بوزوي بقي المهندس زكي المهداوي ساعة
كاملة معه، خرج بعدها عمر هائجاً واتجه إلى مكتب زياد
حيث كانت مريم تجلس قبالة زوجها. قال في صوت

جهوري: باهي باشمهندس، القواد المصري وافق بيش يؤجل تقريره شهرين.

سارع زياد بابتسامة خجولة في حين تراجعت مريم إلى مكتبها قبالتهم وهي تتحاشاه: إيه. إيه... كثير كويس.

لكن عمر قاطعه قائلاً: يا مهندس، أنا لما نتكلم ما أحب أن يقاطعي أحد... أنا نبي نقولك شيء، أنا لما عينتك كبير مهندسين ما كان ظني تفقد ضميرك، أنا نقولك ولا نكدبش، أنا نعدي نجيب عشرين مهندس من مصر- ولا قواد يتفلسف علي... المبنى هذا أنت المسؤول عنه شخصياً، وإلا تكون أنت وزوجتك هاذي في بلادكم غادي.

عقب زياد بصوت خافت: المبنى ما يصير به شيء... ما يصير به شيء... إيه أنا مسؤول...

كانت مريم ترتجف في هلع وقد انعقدت ملامح وجهها للإهانة ولكن المهدي عمران قال من الخارج: من وين حصلتكم شهادتكم؟

جاء الرد من عمر بوزوي: ها دول حصلوها من الشارع، ويجن هون بيش يتعلموا كيف تكون الهندسة، وحتى التعليم هذا يخدن فيه دنانير.

خرج زياد وقد رسم على وجهه جدًّا بالغًا وتجهما، وأمام الموظفين والملاحظين الذين تجمعوا بعد ذهاب عمر؛ قال:

- هو هيك عمر بيثور يثور لكن قلبه أبيض، بعد خمس دقائق بيهدا... إيه وبنشرب سوا قنينة ويسكي، يصبح الصباح مثل ما كان شيء، وبتكون راحت زعلته.

لم تستطع أن تتحمل كل هذا القمع، فما فعله عمر بزوجها وبها ليس مجرد إهانة، بل سلطة طاغية تسحق ما يحيط بها، تطلب منهم الابتسام، كان قد مسح بكرامتهما بلاط المؤسسة... كان داخلها يغلي من الخوف والتمرد، تشعر وهي تسير في طرقات المبني بكل العيون تهزأ بها تخترقها، فكأن كل شيء أسود في عينيها، وقد حط الواقع بثقله فوق رأسها يدفع به إلى أسفل علامة الخضوع.

ودون أحداث صارخة كانت أغوارها تفور ولو وجدت منفذا لا ندفع نهرا من الجحيم وبركنا من البغض، يحرق زوجها هذا الضئيل الذي يقترب خيشومه من الأرض، هو وكل الماضي الذي أهدرته معه... ولعادت عذراء... أية أمنية حمقاء تسحقها والزمن قطار لا يعود إلى الوراء، فهل ينساها زهرة يطلبها الجميع وجادة فيحاء يتناقل عطرها الفواح مدينة التل الصغيرة.

* * * *

اعتصرت مريم رأسها بكفيها، وأخذت تفرك أعلى الأنف بإصبعها والألم يدق رأسها، وكأنها ثبتت بين مطرقة وسندان... عذراء لم أمس، أنا ابنة عائلة الأحمر... الطهر

والعفاف... الجموح والكبرياء... فرس برية من يجروء على
الذنو منها... همست... سواك يا مصطفى... أين أنت؟

هذا خاطر الفجائي جعلها تنثني بجذعها إلى الإمام في
سرعة، وكأنها تعاني من التقلص، وفي داخلها كأن فلماً صخرياً
انفتح، شعرت بالاختناق وهي تنظر باندهاش إلى الرجل
الجالس على المكتب المواجه لها يتظاهر بالانشغال في
عمله، قصير القامة، ضئيل الحجم سرعان ما ينتابه التعب
والإرهاق والضعف، كيف يتسنى لزياد، وهو الضئيل الشأن،
اللاعب على الجيتار أن يصير زوجها لها، هي الشهباء الكميته،
مؤخرتها كفل الحصان ونهداها أمواج ثائرة تقفز في صباية،
وجهها البدري يرتكز على قد فارغ ممشوق تظلمه عباءة من
الشعر الكستنائي الغزير. فهل تأسرها طبيعة زوج مزدوجة؟
الرقة والدمائة وطيب الخلق وحلو المعشر... يخفي أسفله
مشاعر الخوف وطرق المداهنة... لماذا يسعى الناس لهذا...
آه... دعنا نغفر للآخرين ضغائنهم، وننسى. أن آثار أظافرهم
لا تزال على جلودنا... ربما يتأني هذا الغفران يوماً بمصلحة...
ما هي؟ من يدري؟ كانت الأفكار التي يكتنفها الغموض
بالماضي تتلململ من رقدها في قاع الدماغ، وها هي الآن
تستيقظ تنتصب، تقف في جلاء كي تتبين ما هو مجهول، وما
الذي يبعث على الحيرة... لماذا لم تترن حياتها الزوجية؟
وكيف واجهت الأمر كله بالهروب، وهي ابنة سلطة العسكر،
وأبوها ضابط يتصاعد نجمه ويرسخ وسط زمن يتميز بالتوتر
والثقلبات، كان في اللحظة المناسبة يشد طرف الخيط

الناجح، وهي التي نشأت في المنزل يبث فيها أن تأمر وتنهي وتترفع بالكبرياء؟ الاكتئاب كيف تهرب منه؟ همست لنفسها وهي تنصاع لحاضرها... إن هذا الجالس أمامها الشخص الأضعف في علاقتنا الزوجية وعليّ أن أتحمّل المسؤولية... أملك زمام المبادرة أعقب هذا تدفق حار لمشاعر الإشفاق الحادة، هذا الذي فوجئ به زياد وكأنه ود حقيقي، كان يتوقع منها أن تتجنبه، أو يصير ليلهما عراقا لا ينتهي، وبدت له غير طبيعية، كمن يخفي أمرا، وعلى باب السيارة طرقت أذنه عبارة خافته، أصر لنفسه أنه أخطأ سماعها، لكنها لم تلبث أن رددت مريم بصوت مرتفع ثانية:

- زياد.

- إيه...

- ما بدك تسوي شي اليوم يا حبيبي؟

أجاب مندهشا: بلي... شو بدك ما بتريدي بنعمل... تحبي نسه اليوم بالسينما؟

إيه ، يكفي حبيبي؟

* * * *

الفصل الثالث عشر

بلغا الفيلا في الخامسة مساء... ولأول مرة منذ زمن طويل
وقفت تصنع عشاء فاخرا استغرقت زمتا طويلا في إعداده...
وضحك دون صوت... كان سعيدا وقد أثلج صدره ما
يحدث... صاح بها:

- إيه عجلي... بطني عم تطقطع.

- شو... بعدي بعملك تبوله.

- بلي يتكرم عيونك الحلوين.

عادت... لم يفته أنها غيرت ملابسها... كثره قطنية ضيقة
وبنطال جينز...

جلست أمامه جميلة تبرز مفاتن جيدها، هتف لنفسه...
ليش ياربي... جوفها بده يشتعل... حتى ولو كانت باردة
بيصير بعد هاي المدة يتحرك ها الجسد... أصابه التوتر، لم

يجد شيئاً يتحدث عنه، قال: أديش العمل بمؤسستنا مرهق... يا لطيف.

قالت وقد أساءها أن يقول مؤسستنا... هذا التقمص القميء يثير الانزعاج... استمرت في دورها الذي خطته لنفسها:

- بلى بتتعب كثير، وها دول ما يفهموا عليك.

- والله هذا صحيح يا مريم... لكن إيش يسوي منا الزلمة... بنبطل عمل؟ ما بيصير... نكدح ونعرق... إيه وإلا إيش يسوي الزلمة.

- هذا مو بيظل بعده كدح بدني، بيصير كدح نفسي.. مرات أقول ليش تسمح لهادول حشرات يسوا بيك كيف ما بيسوا... أرجع أقول وين بدنا نروح؟ العربية للمقاولات... إذا بيعرف صاحبها إن إحنا كنا نعمل عند بوزوي يرحب بينا... بيعطينا ضعف الراتب... لكن لشهر... لاثنين... وبعدها بيرميننا للطريق كيف الكلاب الضالة.

قال، يمثل دور من يحاول التخفيف عنها والتقليل من سوداويتها، وهو في الحقيقة مسرور لمشاعرها... أخيراً تتفهم الأمر:

- إيه عlish تزعلي نفسك... إذا كان الأمر صعباً بتحملة أنا... أنا قد هيك شغلات عرفت كيف... وما بسمح لحدا

يمس شعره من رأسك والله باذبحه... أشق بطنه بسكين وما بهتم اللي بده يصير يصير.

استاءت وأصابها القرف... ها هو يكذب... إذا أهانها أحد لن يفعل شيئاً... بدأ حديثه الأخير يطيح بكل ما تحاول أن توطن نفسها عليه... سمعته يقول: إنما أنا إيش أكون؟. بصير كيف كل المازجيه... نحصل اللي يعطينا إياه الله، الواحد أله مركز محترم كيف أصحاب البلد وأحسن ما يملكه مهندسان في بنغازي... بتعريف من هيك حبيبي...

كان يظن أنه لا يعينها ما هو عالق به، وشعرت مريم أن ما تنشده يتحرك الآن بعيداً... حاولت أن توقفه... همست:

- بدك حبيبي تستريح شوي.

قال متجاهلاً المعنى الذي تقصده: لا... من شان خاطرك ومن شان خاطر حياتنا، بدي أعمل وأعمل وأعمل.

تنهدت سوف يصيب رأسها بالصداع... إن الذي أمامها ليس إنسان بل طبله جوفاء حقيرة... على مائدة الشاي قالت مستفسرة:

- إمتي بدك نخلص من هون؟

- إيش لون بدك تظلي؟

- سنة.

قال مستنكراً: إيه!

- سنتين.

- حبيبتي ما بصير... أنت ما بتعرفي إيش أريد، في إيش أفكر.

- شو؟

- بدي مائة ألف دينار...

- لكان؟

- بدي أعمل مكتب هندسي بالشام أو بيروت.

غاصت الصدمة في صدرها فخرجت لفضة صغيرة: آه.

- بلى... وإذا ما بنسوي هيك على إيش إجينا.

طفرت الدموع من مقلتيها... ردت بصعوبة: إذن أنا بترك العمل.

قال بصلافة أدهشتها وأطاحت بكل آمالها:

- إيه... بعرف بعدك ضعيفة.

توقف كوب الشاي بمنتصف الطريق والدهشة الواسعة تملأ وجهها... وبعدها اکتوت بنار مفزعة، أصابها الوجود، عبر إلى الداخل وعاد معه جيتاره... سألتها أن تحضر- جهاز التسجيل فلم تجبه... فقام بإحضاره... أعده للتسجيل ثم أخذ يغني.

الوجد مرسوم بقلبي وليس لي سواك...

ماذا تبقى من المرافق القديمة سوى عينيك.

فتمهلي... قليلاً قبل الوداع.

فاض الإحباط بصدرها، تملمت... قالت دون وعي:

- ما بزوج ع السينما؟

توقف عن الغناء، أرخى جيتاره ينظر إليها:

- ما تريدي تسمعي؟ أنا بغني لك...

- إيه... آسفه... آسفه كثير زياد.

- ما في شيء تتأسفي عليه... بدك تروحي السينما، هيا

بترحل...

بالتاسعة تركا الفيلا... تحدثوا بالطريق عن كل شيء...

الأهل، الأصدقاء، العمل، وسرعان ما اكتشفوا نضوب معين

الحديث بينهم، أما مريم فقد تيقنت أن الوميض الذي

حاولت إشعاله منذ قليل قد تلاشى، وأن الحال سيعود لما

كان عليه قبلاً... عزوف متبادل... فراغ لا يملؤه سوى العمل

ومشاكلة وصداعه النصفي... من السبب؟ لم تحاول أن

تتحمل مشقة الإجابة عن هذه الأسئلة.

كان زياد مستريحاً وقد اعتبر ما فعلته وتفعله ليس سوى

تعبير عن شعور بالذنب تجاهه بعد أن بدأت تفهم

مواقفه... أليس هو أكثر واقعية وعملية، بل ونجاحاً رغماً

عن ترهاتها، ما يهدف إليه سيحققه وسينجح ولن يجعل

عبث صغار البشر- أو كبرياء زائفًا يثنيه عن عزمه ويدمر مستقبله: إيه.

هتف والرغبة بمريم تشتعل بطيئة... فكر... أساعدها...
أليس كذلك، إنها ضعيفة، تحاول الاختفاء وراء الكبرياء...
قليل من الحنان والرقه سيساعدها.

كان متحمسا طوال طريق العودة، يلاطفها ويداعبها
برومانسية مصطنعة، استسلمت له بجبرية ما سبق...
بجبرية الدوافع التي جعلت زياد يرغبها الآن... استسلمت،
فظن أنها تتجاوب معه...

وقف في الصلاة عارياً إلا من سروال بيجامته، لا تفتك
مداعباته تزداد سفوراً، وطنت نفسها على أن تستجيب له...
دون رغبة... بل كانت ميتة... همست... إيش أسوي إذا
كانت الحياة على هذه الشاكلة... ابتلعت غصة في حلقها
ورددت... قد يفيد أن نتقمص أدواراً يكذب بها كل منا على
الآخر...

مر بيده على كفلها، قال وهو يضحك: والله خير...

قالت برودة: لا تفعل.

قال مصطنعاً الهزر: إيه هذا ملكي... صح ولا لا...

- وإذا ملكك ليش تسأل.

أثارته إجابتها. قال يعانق خصرها بحركة مسرحية:

- بلى، ولبش أسأل.

ابتعدت دون أن تتجاوب معه... ردد لنفسه... والله الليلة نسويها... نشرب قنينة عرق، نصير على كيف ما بدك، ونسويها...

فهمت ما يريد... شعرت بأن دورا ثقيلًا يجب الانتهاء منه، وأن الليلة يجب أن تمر كيفما اتفق... قامت متثاقلة إلى غرفة النوم، وعاد إلى الصالة حاملا قنينة عرق، لمحها تلتحف الفراش عارية فابتهج، وكأن غياب حط عليه، فكر لو يجعلها تنتظر نصف ساعة، سيجعل الانتظار منها جسدا مشتعلا، تعفني من مهمة شاقة... ولو يعلم ما كان أنتظر فيا لحماقته... ذلك أن الوحدة تستدعي الذكريات... والذكريات تخرج الأشباح من مقابرها... في المرأة التي تعلقو منضدة الزينة استدارت مريم، أمامها كان وجه مصطفى يلوح قويا ساخرا مما هي عليه الآن... وهلة ورحل تاركا بها كآبة أودت بالوخز الجنسي- الضعيف الذي بعثه انتظارها لزياد، ليبقى مكانها موات استوطن ذاتها.

اندفع زياد لغرفة النوم ليست به من علامات السكر، اقترب منها، جذبها حتى استدارت نحوه، جاء الفعل الأول سريعا... أقرب للاستنماء منه للمشاركة، كان منهماكبا بينما كانت عيونها تحرق في الفراغ... كان يظن أن بمقدوره إشباعها، هذه الليلة بالذات ستكون أكثر بهجة، وعت وودت لو يكف، لكنه كان منهماكبا يود لو يقنعها، أن يطوي كبرياءها

تحت جناحيه... مال يعيد الكرة، ومضى- الوقت يستجمع قواه، داهمته آلام حادة في مؤخرة الرأس، وغمره عرق بارد كثيف، وامتلاً الفضاء بلهات العجز وكرهية النفور ومشقته... بلغ الألم مداه فثنى قدمه بسرعة خاطفة، عرفت أن التقلصات تداهمه... تأوه يحاول المقاومة، لكن الملل كان قد طغح بها... آلام جسدية وشرخ نفسي، وفي برودة عزوف تململ جسدها، دفعة صغيرة وأزاحتها جانبا، سقط ومؤخرة عنقه تتجمع بها آلا لا تطاق.

استدارت جانبا، ران صمت عميق، يقطعه صوت لهات حاول أن يخفيه... تكومت تحديق في الفراغ، وسط ظلام الغرفة تجرحه أضواء خافتة تتسلل من مصابيح الطريق، أيقنت بفشله، ليس أمامها سوى أن تستسلم لمنطق العادات التي تسيطر على مقادير ملايين الشرقيين... خف لهائه حتى تلاشى... قام خارجا وأطرافه ترتعش وركبتاه تصطك من الضعف، ومن المطبخ جاءها صوت ارتطام الأواني المنزلية، وسقوطها يتابعه أنات الشظايا المتناثرة، قامت بسرعة إلى مصدر الصوت تريد أن تطمئن عليه، لفت على جسدها غلالة النوم رقيقة، وبين الصحون والشظايا المتناثرة وجدته ملقى على الأرض، مصابا ببعض الجروح السطحية، انحنت نحوه في لهفة، لكن حائطا صخرياً من البغض صدها:

- بدك تظلي بعيد... يكفي... بدك تقتليني.

- لشو؟ انحنى تلم شظايا الصيني المكسور. وهي تستمع لثورته واتهاماته الباطلة.

- إيه... بعرف بدك تقتليني... المرأة اللي مثلك بتقتل مائة رجال.

أكلها الندم لمغادرتها الفراش، سوف يقىء قاذوراته عليها، سارعت بتنظيف أرضية المطبخ، وهو ينفث جوفه الملهب بالغل... وابتعدت عائدة إلى غرفة النوم.

- على وين رايحه؟ إيه بدك تروحي ما ترجعي... عليش تظني نفسك، هيك ما بتصيري إلا كيف المومس، بلى المومس... أنا بالحمرأ قابلت كتير من أمثالك...

أساءه ألا ترد إهاناته، غمغم... العري السبب بهاذي المصيبة...

قام وراءها... ركل باب غرفة النوم بقوة اهتر لها جسده الضعيف... داهمها الاشمزاز مما قد يفعله... اشمزاز بعته القرف الذي يخلقه العراك مع رجل تملؤه الحماسة... لم تكن تخشى- اعتداه عليها جسديا، هي قوية بما فيه الكفاية، وهو ضعيف بما فيه الكفاية، ليكون عراكهما شاقا داميا بين رجل وامرأة... تريد أن تنام... أن تستريح من مشقة هذا اليوم التعس... لمحته بزواية عينها يقف على باب الغرفة يشير إليها ويصرخ مكشرا عن أنيابه: بدك تعلمي إني مو كيف تظني

عاجز... إيه أنا بعلم أنك بدك تقولي هيك من زمان... لا أنا مو عاجز... أنا عرفت شرامييط بعدد شعر راسي.

ابتسمت للمفارقة ورأسه التي يسبح فيها الصلح لا تصلح كثيراً للمقارنة... إنه كاذب، وكل ما سيقوله بعد الآن ليس سوى إخفاء لفشله... تلملمت في الفراش تعدل جسدها، لا تلتفت إليه، سمعته يهاجمها: أنت اللي باردة، باردة كيف لوح الثلج، عرفت إيش لون... وخرج يصفق الباب خلفه. في الصباح جهزت الطعام لكليهما... قطعت الصمت المخيم عليهما بعد فترة: بدك تغير هاي القميص... وسخ... لم تنتظر موافقته، قامت تحضر له آخر... عندما انتهوا من تناول الحليب هتف بها غاضبا :

هيا... بدنا ما نتأخر. تبعته للسيارة صامتة، ما حدث بالأمس طواه الماضي، أما المستقبل فهو المجهول.

* * * *

حصل المهندسون على علاوات شهرية، أعلاها كان لزياد ومريم، قال لها في المساء: هيك هو كيف ما قلت، ثورة وكل شيء يروح لحاله، يبقى قلبه الطيب.

لم تعقب بنبت شفة، عندما داعبها استقبلته ببرودة، فذهب للنوم مباشرة، استاءت وزادت حالتها سوءاً، كانت تريد أن تهرب من هواجسها ولو بمضاجعة زوجها، لكنه

تركها وفي جسدها رغبة، فنامت قلقة حزينة الخاطر مكروبة الجسد.

تناقل الجميع حديث عمر إلى زياد، وازدادت لهجة العداء لهم، وأسلوب معاملتهم أكثر وقاحة، وبدأ الفارق بين شخصيتها وشخصية زوجها يدعوهم إلى مزيد من النظرات الوقحة الجريئة، التي تعريها من كل شيء، وكان قد صار لها أكثر من خمسة أشهر دون استلام بطاقة العمل، وما كانت تستطيع فتح حساب بالبنك بدونها، حدثت ضابط الاتصال عنها، لكنه أهملها طويلاً، وعندما خاطبها فبازدراء، ولم يلبث أن تشاغل عنها بآخرين، جنت صرخت به: شو أنت ما ترد عليّ، تظن نفسك الله في سماه، وين بطاقة العمل تبغي، بناخذ فلوس حرام.

استفز الشاب وشعر بالإهانة أمام الآخرين، أجابها وهو ينهرها بصلافة:

- أنت كنك يا مره بتعيطي، تحشمي.

وكان الكيل قد طفح بها، وانفجر كل سخطها وهلعها، ردت عليه وجسدها يهتر غضباً: اخرس، قطع لسانك، مين بدها الي تتحشم، نحن سيادك، شوف بتتكلم مع مين يا كلب، أنت حتى الخط ما تعرف تفكه، اسمك ما تعرف تكتبه، المرة التي بتكلمها هادي، بتفهم كيف مائة من أمثالك.

استدارت تغادر المكان، وجسدها يهتز من الخوف والإهانة، وقد تركته والصمت يطبق على حلقه، عادت لمكتبها، تحاول دون جدوى أن تتمالك أعصابها.

من يومها تحولت إلى نمرة مفترسة، وأصابها توتر شديد متواصل، وصارت أقل حديثًا مع الآخرين، لا تحدث أحدًا إلا مشرعة الأظافر على استعداد للعراك، انكمش الشباب عنها، وعادوا يعاملونها باحترام مبالغ فيه، يفوق احترامهم السابق لها... ولم يكن هذا ليرضيها أو ينهي مشاكلها، الشيء الوحيد الذي أثلج قلبها يومًا، ذات مرة هو فتى لبناني في الرابعة عشرة من عمره، يعمل سباكا بموقع سلاح الإشارة، أحضره الحاج حميدة لمكتب المحاسبات كي يأخذ مستخلصه ويصرف نقوده، هناك رفض، فقد وجد به مغالطات كثيرة، أرسلوه للمهندسة مريم، وأمامها جلس كطفل وديع يحمل وجه فتاة، وقد تكورت شفتاه كحبيتي كرز، وتدلّت خصلات شعره وتناثرت على وجهه، ومؤخرة عنقه، كانت تنهي أعمالًا لها كي تستعد له، وعيونه الشديدة الحور والتي تفيض بالفرح والسعادة، قد أمسكت بعقلها، وهو يجلس أمامها يحدق فيها باسمًا وقد ضم ساعديه وجلس مثل طفل في صف دراسي، ابتسمت وكانت أول ابتسامة لها منذ أسابيع، سألته: شو بتريد؟

تنحج قائلا: والله يا باشمهندسة مريم، بدي أعرف قد إيش لي فلوس هذا الشهر؟

وسرها أن يناديها باسمها: وإيش يعمل أبو الشباب؟
- إيش ما بدك إياه... نجار باطون... حداد... سباك... مبلط...
حتى الدهانات...

- شو أسمك؟

- محمد سلطان الأطرش.

- بتكون قريب سلطان باشا الأطرش؟

- إيه... بصير إله عمه.

- أنت عم سلطان باشا الأطرش؟

- إيه هيك اسم ابنه لأخوي.

ضحكت: والمستخلص باسم من؟

- باسمي.

حدقت فيه استقبلتها عينين عميقتين، وددت لو
قبلتهم... أخرجت دفاتر المستخلصات، أحضرت له مشروباً
غازياً، تناوله قائلاً:

- بالله بدي قهوة إذا بتسمحي.

- ولو يا محمد. شاي قهوة... وكيف ما تريد؟

قال ببراءة: بتكرم عيونك الحلوين... هيك بيكون الرجال.

ضحكة صافية ارتفعت من أعماقها، تنبه زياد، نظر
مندهشاً... استدعت عامل البوفية، طلبت لمحمد القهوة،

فلما استدار خارجا لاحقته قائلة: شوي عبد الرحيم... إيش
لون بتريدها محمد؟

- قدي...

- قدي...!!؟

- إيه. وكأنها تستسلم لرغبته:

- باهي يا محمد... قهوة قدي يا عبد الرحيم.

تناقشا في الكميات، فلما جيء بالقهوة أخرج علبة سجائره
الروثمان، وضعها على المكتب يدخن منها... أفرّ ثغرها عن
ابتسامة واسعة: إيه وبتدخن أبو الشباب؟

تنهد قائلا: إيه يا باشمهندسة مريم... مشاكل... ما بيفرغ
الإنسان من هيك أمور.

بتحب يا بو الشباب؟

ضحك بصفاء: إيه ولو... اللي يشوفك ما عاد يحب حدا.

فتحت عيونها دهشة؟ يغازلها! ودت لو تضمه إلى
صدرها، قالت بحبور:

- إيه... هيك الكلام يكون.

- ولو.

- طب خلينا نخلص لك الي بتريده، كتبت أرقاماً على ورقة بيضاء ثم أخرجت حاسبة، ولما تركتها، أخذها بين يده وراح يقلب فيها ثم سألها: أديش ثمن ها الماكينة؟
- ستاشر دينارا.

- في الأسبوع الماضي اشتريت ماكينة لأختي بأربعين دينار.
- أختك!!

- إيه طالبه في الهندسة، لي أيضا ثلاثة إخوة بالتعليم.
- بأي سنة؟

أجاب بحزن: بالسنة الأولى... أبي مريض وصار عاجزاً عن العمل، أختي مريضة بالقلب لكن بتقدر تدرس... أنا يا أخت مريم أعول في أسرتي... تركت المدرسة وصار عليّ أتحمل تكاليف حياتنا وما تدري أديش أحب إخوتي.

- أديش عمرك يا محمد؟

- أربعناش عاماً.

- ومتى تركت مدرستك؟

- الصف الثاني الإعدادي.

- وليش ما تكمل دراستك؟

- إيه... هذا كلام، لكن الواقع شيء آخر.

- ولىش ما تحاول يا محمد؟

أجاب يرضيها كطفلة يأخذ بخاطرها، وحتى ينهي حديثاً
لا نفع منه: بنحاول وبنشوف... أنا انتهيت من ثلاثة عنابر
نوم للجنود انتهوا سبابة.

- فهمت عليك... لكن الثلاث عنابر انتهوا.

- إيه ولنا شغل ببهو الضباط ومبنى القيادة، أيه بتعرفي
العمال تريد مصاري، والمصري بده أجره آخر اليوم ما ينتظر
لآخر الشهر حتى يجيء المستخلص... يخاف أحسن يرحل
وما يحصل على فلوس.

- وإيش بتريد؟ إذا بيسمح خاطرك الحلو، كل اللي
اشتغلناه، وبيصفي ألكم خصم 10% لحين ما نكمل.

- إيه... كيف ما تريد.

- تكرمي باشمهندسة.

- تروح الحسابات ومعك هويتك لتأخذ فلوسك.

- ممنون كتير... سلام عليكم...

مع السلامة يا محمد.

* * * *

بعد الحوار الذي دار بينها وبين اللبناني الصغير محمد، لم
تستطع مريم أن تبقى بالفيلا الصغيرة الكائنة بحي الفويهات
من مدينة المال... سارت وحيدة حتى أتى الغروب. أمام

البحر دقت مريم الأرض بقدمها اليسرى كمهره كميته، وأفق البحر يتسع بها نحو الماضي... ماذا تفعلين أيتها البائسة؟ أخرج الماضي من قبره... أيتها التعيسة لا تفعلين... وكيف... والعمر جواد يلهث يسابق الريح مسرعاً نحو المنتهى، والموت قابع مطمئن بانتظارنا لا مفر... وكأن ما مضى سيعود... لا... وكيف؟ عذراء... لنخرج الأيام من مقبرة الماضي، ولتطل علينا أشباحه...

فاح لها عقب الأزقة الضيقة لمدينتها... مدينة التل الصغيرة الواقعة على بعد خمسة عشر كيلومتراً من دمشق، وقد تأنق شعرها بالزهور وفاحت لنهديها رائحة البرية، ولون الثلج الرخيم الذي يغطي البراري بالشتاء من كل عام، تسير بالطرقات عذراء تلتهب... نار مقدسة تتقد على طول المدينة الصغيرة بين منزلها الكائن بطرفها الشمالي، وثنوية التل للبنات، والرغبة المشوبة بالخوف والاحترام لعيون الفتية تحاصرها، عيناها الساكنتان في قاع بحر يضطرم جوفه بتيارات الحياة.

منذ ثماني سنوات كان عمرها لم يتجاوز بعد السادسة عشرة، فتاة مرغوبة... موفقة في دراستها... متفوقة... تحمل وجهها رهيفاً، وجهاً أمويًا بدري الملامح، جسداً فارغاً متناسقاً في رشاقة الغزلان وابنة لعائلة من أكبر عائلات التل... عائلة الأحمر... وأب هو ضابط برتبة عقيد بالجيش السوري استطاع أن يحافظ على مركزه دوماً إزاء كل العهود السياسية

التي تعاقبت بدأ من الوحدة وتعقب الشيوعيين وحكم الانفصال وتعقب الناصريين والقوميين، وحكم أمين الحافظ الذي تعقب كل من له انتماء سياسي، ويسار البعث وتولى مجموعة صلاح جديد السلطة... كل هذا التبجيل والترقي الذي تحمله ابنة ضابط ذي مرتبة عالية بالجيش العربية أمر فهمته ووعته تمامًا، فخلق لديها طابعًا من الكبرياء لا يستطيع أحد إدانته، تمامًا مثل كبرياء الأميرات وحملة طقوس الأرسنقراطية.

لم تكن مغرورة، ولم تترك لأحد انطباعًا بكونها حمقاء، وأبوها الذي لم يخنه ذكاؤه بعد، واستطاع دومًا أن يشد الخيط الرابع من عشرات الخيوط، دفعها للالتحاق بشبيبة حزب البعث الحاكم، فالرجل لديه كل أوراقه التي يلزم الحفاظ عليها... وهناك مارست مريم نشاطها السياسي على غرار نساء المجتمع وجميلاته الذين ينتمون إلى الطبقات العليا الحاكمة، من المؤكد أنها على الرغم من ذلك لم تكن الفتاة التقية طاهرة الذيل، هذه التعابير السخيفة لم تعد صالحة لعصرنا الحالي، حيث العفة والعهر ليسا سوى تفسير بالٍ لتلك العلاقات المعقدة والتي تسمى بالعواطف والروابط الإنسانية، كانت فقط زهرة نائمة حان أوان تفتحها.

ومن بين أمواج بنغازي التي تروح وتغدو بين قدميها، انبعث شبح في العشرين أشقر الملامح قوي البنية غزير الشعر مفتول الساعد والصدر، تدل بنيته على ما يقضي به

أوقات فراغه وإجازاته الجامعية... عامل بناء أو باطون، أو كل مهن البناء التي خرج يمارسها منذ بلغ من العمر الثانية عشرة... انهمرت عليها أمواج الوحدة والبؤس... اقترب منها مصطفى في سترته الجينز، وعلى وجهه ابتسامة عريضة بها تواطؤ على سرهما المشترك...

كانت تجلس وحيدة بفناء ثانوية التل للبنات، تضع ساقاً على ساق، بعد أن تركتها صديقتها الوحيدة بدوية، والتي كان الجميع يناديها بـ"دأ"، وقد اجتمعوا لإخراج إحدى مسرحيات سعد الله ونوس... جذب مقعداً وقال في مباشرة أذهلتها: يا آنستي... هل يكون من التبجح أن أقول لك وأنا لست في وضع محدد، يمكنني من امتلاك حقيقة أفكاري نحوك...

جاءته إيماة عينيها تشجعه، فاستطرد مرتاحاً لازدياد الابتسامة على وجهها: إنك وأنت على هذه الوضعية إنما تعطين وجهاً مغايراً لما تعبرين عنه، كابنة لطبقة مسيطرة... الأمر الذي يجعلني في وضع يصعب الأمور، أنت تبعثين الاحترام أينما ذهبت وتقدمين وجهاً مشرفاً للبرجوازية، في الوقت الذي يحجمني وجودك معي من أن أنعتها بما هي عليه من نعوت، مما قد يسيء إليك... ضاقت عيناه وأشعنا بـ"بريق خاطف واستطرد يؤكد... فإذا قدمت لي تفسيراً مقنعاً فقد أقوم على تغيير معتقداتي السياسية.

- ومعتقداتك الأيديولوجية بتحفظ بيها ما يبصير؟ لازم
تغير التنتين.

قال متجهما: بلشنا نختلف؟

دفعت الفتاة الصغيرة برأسها إلى الخلف فتماوجت
جدائل شعرها الكثيف وضحكت ما لم تضحكه من قبل،
حتى جذبت وهي جالسة بفناء الثانوية انتباه الآخرين
وأنظارهم... مدت كفها وقد استندت بمرفق ساعدها على
فخذها وهي تعيد له بذكاء الكرة كمن تصد هجومًا مكرًا.

- أنت تجيء لي حاملاً سيف العداوة وتاج المحبة،
وتطلب مني حرية أن أختار... حرية أن أتحمل مسئولية
تقديم أحدهما على الآخر... حسناً... أنا لا أدعي المقدرة
لنفسي- كي أضعها على مشرحة التفاسير السياسية... لكني إذا
كنت قد استطعت أن أثير حيرتك... فإنني أكون (على الأقل)
قد حصلت في معركتي على أول انتصار.

- إيه... حقاً... لست حائراً.

- بلى... أعلم.

- وأنت أيضاً منتصرة شئت أنا هذا أم أبيت... ابتسمت
لأطرائه... عادت إلى الخلف وهي تضيق من عينها اليسرى
عمداً وتقول: حسناً إذا جاز لي التخمين فإن الإجابة عن
سؤالك تبقى لديك وأكون ممتنة لو أعطيتني إياها.

حل به شرود كثيف وتعاير الصدق التي تستشري على
وجهه تثير فيها الإعجاب والفخر قال: ولكن للظواهر
الحياتية وجوها عديدة والكل يراها كما يريد.

قالت: هو إذن ما يقوله بيراندللو... الأمر إليك.

قال بعمق يخفي توتره: لا... الأمر إليك أنت... نظرت إليه وقد انتقل إليها توتره، استطرد: أكثر من ذلك... الحقيقة أمر كائن موجود، نختلف على تفسيرها بمدى ما نعلمه عنها، المادة شيء كائن خارج وجودنا، خارج ذواتنا فهي حقيقة منفصلة تملك الثبات والإطلاق، ونملك نحن إزاءها وعيا وتجربة يتحدد مستواها بمدى معرفتنا بها... عاد برأسه للوراء وقد رفع حاجبيه، زم شفثيه يصطع البرودة: هكذا تقول المادية... المادية الجدلية... عقب بنفس الثبات... وهذا ما أعتقده.

- ولو؟ ندت عنها صيحة استنكار وضيق، انتهت إلى استسلام.

- حسنا. ماذا تعطيني حقيقتك تلك؟ حل به شرود... قال وهو يبعد عينيه عن ناظرها: قد أملك تفسيراً لما أنت عليه حالياً... أنت وجه لحقيقة كائنة بذاتها وموجودة، لكنك لن تبقي على ما أنت عليه، التغير إذن سيعطي المستقبل حقيقة ما... ربما تكون مختلفة على أحد وجوها.

استاءت للغاية، وضح هذا على معالم وجهها... قالت: أنت لا تقدم المحبة على العداوة... أنت تقدم الأيدلوجيا على... وصمتت.

- اعذريني، ألم أقل قبلاً، إنني سوف أبدو متجحاً.

قأطعته بحركة من يديها... كان يتهاوى أمامها من الوجد،
ذهب عنها استياؤها، قالت: لنترك التبجح لأولئك الذين لا
يجدون ما يختبئون خلفه.

* * * *

الفصل الرابع عشر

مع محمد أنشأت مريم صداقة وطيدة، أعجبتها طلاقة لسانه، وأثار عطفها مسئولياته العائلية وإصراره لتحملها، سألتها أن تزور عائلته ففعلت، استقبلوها بترحاب بالغ، لكن الحاج حميدة أخذ يحوم حوله حومة الضباع يريد له نفسه ولمتعه السرية، أخرج له الفتى سكيناً ضخمة فتراجع الذئب عن مطاردته، لكنه استمر يضايقه، وأتلف له عمله، لم يجد الفتى بُدّاً من تصفية أعماله بمعسكر الإشارة والانتقال إلى مواقع الذخيرة بالرجمة، هناك صادق سائقي الآليات الثقيلة وصادقوه.

ساعات علاقة مريم مع زوجها، وتزايد نفورها كلما رأت تزلفه لأحد ملاحظي أو موظفي المؤسسة من الليبيين، تغضب وتنتابها العصبية وتكالب عليها أحاسيس الاحتقار تجاههم، والغضب تجاه زوجها. لم يكن ليعيرها انتباهاً، كان هذا طريقه الذي لن يحيد عنه، ولن تمنعه حماقة امرأة

موتورة، ترى الحاضر بعين الماضي، تظن أن لها أصلاً مترفعاً، وحسباً يضاهي قوة النفط؛ ذهبه أو سطوة أصحابه، كان في حاجة إليهم لو تشاركه، هذا يخلق مركزاً ضخماً للمساومة، ليس انتقاصاً للفضيلة والشرف، فمن الذي يجرؤ أن يرفع بصره نحوها، لكنها رفضت أن تلعب لأجل خاطره هذا الدور، صدته بعصبية، حتى واجب الضيافة صار يقوم عليه بنفسه.

والوحدة رغم كل شيء تدعو للقلق، زوجها المرهق تأنف مجامعته، والفيلا ممتلئة بمجلات الجنس المهربة، اقتربت منها بخجل وحذر... وتحول المساء إلى غابة من الشوك، أكمت من المتعة والألم، تنتحي جانبا تاركة زوجها في فراشه منهمكاً مُتعباً وترحل إلى غرفة المعيشة، حيث حل الشتاء، تتمدد تحت الأغطية الصوفية تحتسي- الشاي والقهوة، تتصفح تحت مصباح صغير مجلة تلو الأخرى.

وما كانت الأوضاع الجنسية للأجساد العارية لنساء ورجال لتثير لدى امرأة سوية إلا نفوراً عاماً، وما كانت الأعضاء الجنسية التي أبرزت بفضاظة، والأوضاع الشاذة لجنس جماعي، رجلين وامرأة، نساء صغيرات تمارس الجنس معاً بشبق يبعث شعوراً بالخوف والسقوط في مزيد من فضاظة الوحدة، الشعور المدمر بالذنب، المخاوف المبهمة، الضياع، الضلالة أمام القوى المجهولة تمتلك القوة والسيطرة.

بالقاعة الكبرى لمعهد الدراسات الاشتراكية لشبيبة حزب
البعث، احتشد مئات الشباب في المدرجات، وافتروشوا
السلام والممرات، وعلى النوافذ جلس البعض يستمعون إلى
مسئول كبير وعضو بالقيادة القطرية بالحزب جاء
لمحاضرتهم... كان أيضًا من مدينة التل، ومن عائلة الأحمر
الوثيقة الصلة بعدد من العهود السياسية.

حضرت مريم اللقاء، وبجوارها جلست صديقتها بدوية،
لم يكن قد مضى- على حديثها الأول مع مصطفى سوى ستة
شهور، عرفت الكثير، كان أحد قيادات شبيبة الحزب
الشيوعي السوري الذين انشقوا عنه بعد هزيمة 67... تكالب
عليه يسار البعث يحاول استمالته؛ فأمثاله يصيرون نجومًا
في أحزاب البرجوازية الصغيرة، لكنه أبقى على استقلاله...
وكانت ذات أنفة تستكثر على نفسها أن تقع أسيرة هوى
سياسي أحمق، فما بالك بشيوعي مطارِد عبر العصور،
وقاومت، لكن قوة حضوره حطمت الأسوار التي أقامتها
حول عواطفها، فانسأقت نحوه ومقاومتها تنهاوى.

في القاعة حيث اجتمع اللجنة السياسية في لقاء
جماهيري لمحتة في سترة الجينز وكنزته الصوفية، يعتلي
إحدى النوافذ... كان الشباب ثائراً، والقاعة تموج بالصخب
والدخان، والكل يتوثب بالحديث، ومع الصدق التطهري
الذي يملأ صدور الفتية، كانت هناك أيضا حالات الحماسة

والعصبية، ومرض التكرار والتطويل والإصرار على إعادة الأفكار وشرحها مجدداً، وكأن كلاً منهم على يقين بأن الآخر لا يقدر على فهمه، والعديد منهم يكرر ما سبق وأن قاله آخرون عشرات المرات، المقاطعات المتوالية، الفاشية الذاتية تجاه أفكار الآخرين الصديقة والمعادية، ويمين الشبيبة يهاجم المرأة والاتحاد السوفييتي ومطاردة زعماء الأخوان، أما يسارها الجالس على المنصة المسيطر على القاعة، يستهزئ بآراء اليمين ويسفها حيناً، ويبالغ في إرضائها حيناً آخر، يضع عيونه بحرص على العناصر الماركسية المنتشرة، لا يعطي لهم فرصة الحديث قط، مجيداً باقتدار لعبة التوازنات المستندة على القمع السياسي.

عَنْ لمريم أن تتحدث رداً على فتى وقف يصرخ: إلى البيوت كلكن... حيث الأمومة هي العمل الحقيقي للمرأة، وإذا البعض زعم حاجة الدولة لها، فحاجتنا لها الحقيقة أن تصير مربية للأجيال، أمّا للأمة، لنترك للشباب العاطل فرص العمل التي استلبتها منه النسوة بخروجهن من مكانهن الطبيعي.

طلبت مريم الكلمة، وعندما تطلب مريم الكلمة تعطي لها على الفور، فحديث فتاة في السادسة عشر- يكون في الحلقات السياسية متعة تستدعي المشاهدة... لكن قبل أن تقف مريم للحديث هبت بدوية، وكأنها تنتظر هذه الفرصة الثمينة، ارتج الجالسون على المنصة، لقد سرقت الكلمة،

غضبت مريم من صديقتها، لكن غضبها لم يدم طويلا، وهي تستمع إليها تشن هجومها العنيف على المنصة:

إذا بتسمح يا سيادة الأمين... أنا ما أدري أنتم ليش تعانوا من هاي الازدواجية، تتحدثوا عن الجبهة بكل شيء، وما بيصير شيء بالإذاعة والصحف والتلفزيون، إلا عن الجبهة، حتى بالملاهي والكباريهات صار فيه جهات، في الحقيقة أنتم أنظمة ما إلها علاقة بالديمقراطية، الديمقراطية بتصير شيء حلو بالإعلانات والخطب، ولازمة لغوية يتخفي تحتها غول رهيب اسمه السجون وزنانات التعذيب وزبانيته، بدي أعرف إلنا هون ساعتين نطلب الكلمة، والرفاق على المنصة بيعطوها لي بيضمنوا إنه ما بيخرج عن النص... وفي ظل أزمة تاريخية يمر بيها الوطن يصير الكلام كله هيك فارغ أجوف، مجرد طرق طيبة لتفريغ غضب الشباب.

قال مسؤول الجلسة مبتسماً: إيه أخت بدوية... هيك شغلات مو مقصودة، ليش كل هاي الأوصاف؛ فارغ، أجوف، وسيلة للتفريغ... بدنا نبطل هيك توصيفات... نكون شوية موضوعيين... وعلى العموم الكلمة معك... بدك تعطينا الكلام المليون.

إيه. هلي بيصير... نحن هون بنقاش كيف الاتحاد السوفييتي بيعطينا أسلحة غير متطورة، وكأن الحرب ما بتعتمد إلا على هاي العنصر... السلاح... وهذا مو صحيح... الحرب ليست إلا تعبيراً عن تضافر مجموعة من العناصر

والعوامل... الاقتصاد الوطني... الديمقراطية... العلاقات الاجتماعية والطبقية في المجتمع وفي الجيش... هي ليست فقط الضبط والربط، وقوانين الطاعة الصارمة، وإلا هذا ما يتيح للجنود: الشجاعة وحرية المبادرة، فرصة الهجوم، والقدرة على اتخاذ القرارات الملائمة في الأوقات الصعبة، مدى التفهم للسلاح، واكتساب الحد الأقصى - على استيعابه...

بدي أقول لحد هلي الفيتناميين يحاربوا أمريكا من دون طيران تمامًا، رغمًا عن إنها بلد تطابق أيديولوجيتها السياسية والسوفيت، لكن السؤال ما يكون هيك... السؤال يكون كيف استطاع الفيت كونج السيطرة على 168 قرية ومدينة في هجوم الربيع لعام 1968، من دون هاي الأسلحة الجوية اللي بيريدها الأخوان... ثانيا الزملاء هون بيناقشوا حرية المرأة وحقوقها في الخروج إلى العمل... هم يطولوا الأحاديث على مثل ما بدك، ومن دون فايده... إيه كل هذا من دون فايده... لأن كثير عقولهم سطحية، ما بيستطيعوا ينفذوا للقوانين اللي بتصير المجتمعات وتطورها، هذه قوانين رأسمالية... قوانين السوق، العرض والطلب... ولما يجتمع الإخوان من كل صوب ما بيدخلوها بيتها لأن قوانين الاقتصاد تفرض خروجها، ولأن المسألة لما بيصير النقاش؛ أديش المرأة بتلبس، طويل أم قصير، فوق الركبة أم أسفلها، يتوقف كل شيء موضوعي وتتبقى متل هيك شغللات فارغة... أنا بدي أقول يا سيادة الأمين أن هادي موقضايا

مهمة... القضية المهمة واللي تستحق النقاش اليوم هي الفساد... ارتفع صوتها لأعلى حتى بلغ في نهاية العبارة منتهاه... رنت الكلمة بالقاعة... وامتلاً الفضاء بالصمت والتوثب...

قاطعها الرجل: أخت بدوية... استطردت الفتاة التي لم يتعد عمرها السادسة عشر- في حزم وهي أكثر تصميمًا: بلى الفساد الاقتصادي والسياسي.

دوي تصفيق هائل وحاد من المجتمعين... كان ما فعلته بدا هو التوجه نحو الهدف الصحيح... استطردت أكثر عنفا: وأنتم بدكم تتحملوا المسؤولية عن كل ما مضى... الفساد الاجتماعي والسياسي والاقتصادي، وكل ما توج بهزيمة 67.

رمش الرجل وتغضن وجهه، لم يهتز، قال في حنكة وثقة:

- نعم يا رفيقه... أنا معك... كذا الشيوعيين... وإذا بدك تتأكدي، بتطلي بالجزء الثاني من مختارات ماو تسونج... استطرد بسخرية... العم ماو... مكتوب بالصفحة الأولى، الحزب الثوري مسؤول مسؤولية كاملة عن الهزيمة، وكذا عن كل إخفاقة جماهيرية، لا يبرر له أية أمنيات طيبة، وحتى التضحيات الشخصية والجماعية.

شعرت مريم بارتباك ظهر على صديقتها، كان العم المحنك، قد ترك الموضوع، واستدار يهاجمها مثيرا لديها الارتباك، ابتسمت مشفقة على من سرقت كلمتها.

من الخلف جاء صوت جعلها تنتبه... كان مصطفى، يقف منتصبًا بالطريقة الوسطى في مؤخرة القاعة، رافعًا يده يطلب الكلمة، ولما كان يعلم أن المنصة ستتجاهله كي تغلق البركان الذي خلعت (بدا) سدادته، بدأ كلمته غير منتظر الإذن، وجاء منطقته مهاجمًا مستقلًا صلدًا... راديكالي النزعة... هذا الذي أبقى بذاتها على تناقض وصرع بين عواطفها وعقلها... صراع لم تحله قط.

نعم يا رفيق. إن العبارة جد صحيحة... لا يدان البعث الحاكم إبان الهزيمة فقط، ولكن يدان الشيوعيون وكل القوى القومية والثورية الأخرى، نعم يا رفيق ندان جميعًا... نحن وأنتم... كبارًا وصغارًا... وسيسجل التاريخ لجيلكم على شتى حوانيته السياسية الهزيمة وسيجلنا نحن بعارها، وما يتبع ذلك من عصور الانحطاط... ليقطر التاريخ جبينه خجلا مما سطره على صفحاته لهذه الحقبة التاريخية... بالذات الخصائص الذاتية للقوى الثورية... انتهازيين حتى النخاع... موظفين وكتبة لدى السلطات من أي نوع... ملوك للمساومة والتهادن... عشاق للتفتت والشرذمة، أباطرة للمراهقة اليسارية... فاشي النزعة، معادين للديمقراطية حتى النخاع... عجزة على المستوى الاستراتيجي... جهلة على المستوى التكتيكي... نعم، مُدانون بدءًا من الذين اخترعوا حل حزبهم الثوري، واستلقوا في أحضان الناصرية في 1964 بعد أن خانهم العقل والشجاعة... حيث الإقدام على حل حزب الطبقة العاملة ليس سوى اعتراف بانقراضها...

رغم أن ثلاثة أعوام أخرى من الصلابة والنضال والصمود كانت ستغير الكثير... فالذين ظنوا أنه عملاق هائل يملك صفة الثبات تهاوى في أيام ستة، والدود ينخر عظامه... نعم يا رفيق، مُدانون بدءاً ممن حلوا حزبهم ونهاية بمن أصابهم الجذب والجفاف فصاروا يستقون أسسهم الفكرية من الخارج، عاجزين عن تقديم إبداع محلي يقدم حلاً للمشكلة العام...

الحقيقة الوحيدة أيها الرفاق التي ثبتت حتى الآن، هي أن المستفيد الوحيد طوال المرحلة السابقة، والمستقبل القريب هو إسرائيل... حتى أرض الوطن أصبحت تحت الاحتلال، واقتصاده هدف يريد المحتل الاستيطاني التهامه... وهي تهيئ الأرض التي تقع تحت سيطرتها للضم والاستيطان... وفي الوقت الذي يسود المجتمع الإسرائيلي حمى التوتر واليقظة الحادة، وتقاليد الديمقراطية الغربية، فكما ذكرت الرفيقة بدوية يضرب عندنا الفساد الاقتصادي والاجتماعي جذوره في البلاد ويستشري، فتثري شريحة من كبار موظفي الدولة، وحولهم حفنة من المغامرين، وأصحاب توكيلات أجنبية وسماسرة وأصحاب العقارات وأراضي البناء وعشرات غيرهم، حتى يصابوا بتخمة الثراء الفاحش والترهل الجسدي والعقلي، على الجانب الآخر ينتشر الفقر والبطالة، تتحلل الدولة، تسوء الخدمات، تمتلئ

الطرقات بالبرك والحجارة والقاذورات حيث ينمو أطفالنا ويلعبون وسط جيوش الذباب والبعوض، وتنقطع وسائل الحياة من المياه والكهرباء، تتلوث وتتفشى الأمراض، تتحلل القيم وتنهار المستشفيات، يتاجر أساتذة الجامعات التي نخر بها السوس والديدان بالعلم، تستفحل الأزمة، يسيطر غبار ترابي خانق، ويسقط الشباب في الضياع والاعتراب، كأننا مقبلون على عصر الاضطرابات الخصوصية وفوضى المجموع... عدل من وقفته، لماذا لا تقضي عليه الشرطة وتضعه في السجن... لماذا؟

تصاعد صوته جلياً... لماذا يبقى الفقر والجوع والمرض بالطرقات حراً لا يطارده قانون ولا عسكر؟ في الوقت الذي يتيه فيه كبار ضباط شرطتنا وصغارها زهواً وخيلاء؟ هل لديكم إجابة؟

رنت فترة صمت قصيرة جداً... تقدم خلالها مصطفى خطوة، وهو يرفع يده متوجهاً بحديثه للأعناق المشرّبة نحوه من كل أركان القاعة: إذاً، دعني أقل يا رفيق... لأن الفساد الاقتصادي والاجتماعي إنما يرتكن على فساد الحكم... وكلاهما يسقط إذا سقط الآخر.

* * * *

على الطريق الجانبية الصاعدة من معهد الدراسات
الاشتراكية للشبيبة إلى التل تقدّم ثلاثهم متلاصقين، كان
الليل قد حل، ومن المدينة الصغيرة التي اعتلت الهضبة
تلألأت أنوار المنازل تصنع مع أضواء الطريق الصاعد حزمًا
ضوئية مناسبة، لا تلبث أن تنفجر فجأة في اتساع دائري
متموج الارتفاعات والأبعاد حول المدينة الصغيرة، وقد
أحاطت بها شلالات ندف البرد المتساقطة من سماء مظلمة
كابية اللون...

على اتساع الظلام كانت أضواء المدينة الصغيرة ذات
الغالبية المسلمة باهتة، تخبو وتضيء في الظلام، وفي الأرجاء
تأتي الأضواء من قرية المعري وصدفاية المسيحيين، الأولى
قرية الرأسماليين وأصحاب السلطة الكبار، أقيمت بيوتها من
فيلات حديثة أوروبية الطراز، وصدفاية قرية الفقراء، يقام بها
سنويا احتفال تشهده كل المناطق المحيطة في ديرها القديم
الخاص بالسيدة العذراء.

على الطريق الثلجية انعكس نهر من الضوء خاضوه
بأحذيتهم الجلدية الطويلة المبطنة بالفراء، نفث دخان
سيجارتته في قطع الثلج المتساقطة، وهي تفرك يديها
المتجمدتين من شدة البرد، تنفث فيهما بأنفاسها الحارة،
كان آخر ما يمكن أن يتحدثا عنه أمورًا شخصية. قال :

نعم. نحن مقبلون على عصر- الاضطرابات الخصوصية،
وفوضى المجموع، كل هذا ليس نتيجة الساعة، إنما لذلك

تاريخ رفعته وجسدته سلطة الدين والسياسة، وأورثته لنا عصرًا بعد عصر، بالغرب يغترب الإنسان بعد أن حطمته آلة رأس المال على الأرصفة النظيفة سابقًا في هواء نقي وبراميل النبيذ، وعلى أروقة الجنس الصريحة، الصادقة - على الأقل - في مشاعرها الذاتية، في الشرق... نحن مرضى الهروب، يطاردنا الاستهلاك بغربته، نستورد تقنية وماكينات ومصانع حديثة لم تصنعها أيدينا، ولم تخترعها عقولنا. فنحن مجبرون على أن نتعامل سلوكيا مع ما يفرضه علينا نتاج عقل آخر، تصبح لنا قشرة خارجية أوربية المظهر، في الوقت الذي نحن عاجزون ذهنيًا عن أن نتواءم مع هذا الجديد الهائل الضخم... نحن مرضى الازدواجية... ازدواجيين حتى النخاع... من الثوب الذي نرتديه حتى ما نسّميه شرفًا أو بطولة أو كبرياء.

فالذي تفعله الهزيمة فينا أن تعجل بتقسيم مجتمعنا إلى طبقتين، طبقة تسارع سرعة الضوء إلى سرقة كل ما تصل إليه أيديها، تبيع كل شيء؛ الوطن والعرض والدين والأخلاق، تنتزع في طريق صعودها آدمية الآخرين، تتركهم حيوانات مشوهة، تركلهم بلا شفقة إلى أسفل، تسمح أنوفهم طرقات المدينة، يستحمون حياتهم بالهواء الفاسد، الغبار والعفن، أي قذارة هي؟ نحن قديرون يا أنستي لانملك ملكة الدفاع عن نقاء وجودنا، وإنما نسير وسط قطيع سلم قياده لذئابه، حيث يتلوث كل منا ببراز الآخر، اعذريني فهذا أقل تعبير عن

فداحة الهزيمة... استدار لها وعلى وجهه علامات
الإشفاق... هز رأسه وقال: هل توافقيني؟

قالت وقد طواها صدق منطقته: نعم...

جميل... ألا يستوجب هذا أن نكون مجتمعًا خصبًا لوباء
اسمه الأمراض النفسية والبيولوجية، لا يبدو هذا واضحًا،
لكنه يستشري تحت السطح ببطء، تقوده هزيمة 67، تحفر
تحت جلودنا السوس والخواء، تحف جلود فتيات الطبقات
الفقيرة، تتجدد شعورهم، تتقوس سيقان الأطفال، تضمحل
عقولهم في نظام تغذية محوره الغذاء الملوث... نعم يجب
أن نتيقن... لا توجد شفقة... لا يحمل لا التاريخ ولا الصراع
الكويني من أجل البقاء ما يسمى بالشفقة، وإلا لبقيت
الديناصورات والأمم القديمة... تنهب الولايات المتحدة
العالم كي تصنع رخاءها، ويرى ضحاياها فيها نموذج الكمال
المتعذر الوصول إليه، فالحالمون مصيرهم السحق بين
تروس آلة الاقتصاد العالمي، وخاصة شعوب هذه المنطقة،
التي تبدو كقطيع من... قاطعته بدوية بضيق: ح نبلش
مصطفى... ما في توصيف لشعب بهاي الطريقة... هذا
وصف أخلاقي مو موضوعي.

خيم الصمت... زفر زفرة خاطفة، وقال:

- اعتذر... في الظلام يخيم اليأس.

التفتت مريم إلى (بدا)، تلاقت عيناها في تواطؤ، قفزت مريم خطوتين إلى الأمام، واستدارت، أصبحت قبالتها، تضم حقيبتها على نهدين يطلان على العالم بشوق للشجن، كان هذا أول فعل خاص ينبي عن الهوى القادم، قالت تشاركه وجدانيا: ألم نتفق من قبل، لندع الأسف لمن هم في حاجة إليه... شو كل حياتك هيك جد... بتصير متعب للي بيعيش معك.

صاحت بدا بخبث: أديش أنت أحقق... لشو تعمل منها مليوندرا... افرجها يا أخي... أفرجها... هلى بدنا نعرف شو تسوي الناس بهاي الثلج.

قال في جمود: إيش يسوون؟

- آه. ما بتعرف... جميل والله... تعرف كيف نزل جيفارا على السيراستيرا، وما بتعرف كيف يفعل الناس بالثلج في التل؟ التفتت إلى مريم... حمقاء تظنين به يعرف كل شيء، وهو ما يعرف شيء.

قال بسماحة: الله يسامحك يا بدا.

صاحت: ويلى... هلى بتسفع من عيونك الدموع يا مصطفى... ضحك الثلاثة... لكن أنا بخليك تعرف إيش يفعل الشباب بأيام الشتا... مالت على الأرض تعدل من رباط حذائها الطويل... استدار يحدث مريم... صنعت كرة من الثلج وكانوا يسرون أمامها، تابعتهم، نادته بدا: مصطفى.

جاء تحذير مريم متأخراً، ففي اللحظة التي استدار إليها
قذفته بكرة الثلج... ارتفعت يدها تذود عن رأسه في حركة
مضطربة:

- إيه هذا اللي بدك إياه.

صاحت بفرح طفولي هز جموده: إيه... وإيش بتسوي؟

انحنى على الأرض مسرعاً يقذفها بكرة الثلج: إيه... ما
بسوي شيء... تبعها بقذيفة إلى مريم... تصاعدت في أرجاء
الفضاء لآلى من صرخات وضحكات فضية... ولم تلبث أن
اجتمعت عليه الفتاتان...

في هذه الليلة لم تستطع النوم، جسدها السكران بالنشوة
ملقى على الفراش، تتدفق فيه وإرادتها... إرادتها للتذكر
واستعادة اللحظات القريبة أمواج من النشوة اللذيذة لم
تعهدتها من قبل... كيف ارتطم جسدهما؟ كيف التقى
ساعده وأعلى كتفه بنهديها دون عمد؟ كيف قبض بقوة على
ساعدها يشدها إلى أعلى، يعينها على النهوض، ماذا تقول؟
لقد أشرق عليها ضوء الصباح في هذه الليلة.

* * * *

الفصل الخامس عشر

تبدأ الشروخ في حياتنا ضئيلة، ثم تشرع في التمدد في سيطرة عنكبوتية، وكلما حل الظلام تصير رغباتنا السرية آمرة متسلطة قاهرة، وبين الشبع والجوع نسقط في دورة لا تنتهي، ويحل النقص والقرف لتلك الرغبات قانوناً، وكما يملأ العفن المكان والزمان حلت الأحداث على مريم، حتى أصبحت على شفا الانهيار، ففي الرجمة وبين مخازن الذخيرة التي شيدت بين التلال والهضاب الوعرة، وفي أحد أيام الشتاء القارص هطلت به السماء مطراً غزيراً، وامتلأت الطرق بالأوحال، عندما توقف العمل دعا شابان من سائقي الآليات الفتى اللبناني لشرب الويسكي، أخذاه لأحد المخازن البعيدة حيث تتلاشى الأراضي المستوية وتبدو المنخفضات قليلة الغور، والهضاب قليلة الارتفاع، والأرض الصخرية تبرز قسماتها الحادة من تربة صفراء، زينت بالعشب البري، والشجيرات الشيطانية.

جو زمهيري تتجمد فيه الأطراف... أحوال قاسية، ورياح باردة تنشر- الصقيع، وفي صغير يغتصب، وفي كل لحظة ترتطم فيها أردافه بقضيب أحدهم كان عصب من قناة حياته التي لا تلين ينكسر- وحلقه يختنق بنهر من الغصات، وجسده الممتلئ بالآلام يئن تحت وطأة القوة الغاشمة، يُمرغ وجهه في الأحوال، يحل الظلام بعينيه، يخف نور الحياة، يتهاوى ويتلاشى جزء من نفسه، يتفتت حتى يصير أشلاء، لكنه يعود يجمع أشلاءه المبعثرة، رماحه الملتوية وسيفه المكسور للمقاومة، وكيف ولأعدائه طبيعة الضباع الكاسرة.

في تلك الليلة لم تستطع مريم النوم، كانت تختنق هي الأخرى، ذلك أن الصباح كان مرًا يدفعها دفعا إلى الهروب، فبينما كان أحد مقاولي الدهان المصريين يراجع حسابه اكتشف به أخطاء، جزءا من عمله أعطاه الحاج حميدة عن سوء نية إلى مقاول آخر، انكفأت تحسب وهو يلعن ويسب الحاج حميدة، ويتهمه بالظلم، ولكن الضوضاء التي حدثت بالطابق الأرضي بسبب حضور الشرطة، دفعتهما إلى صرف الرجل العجوز، فعاد إلى الموقع، وهو يكاد يشتبك في عراك مع الحاج حميدة، فضلا عن اتهامه له بالكذب والتحيز، الأمر الذي هو أكثر ما يثير غضب وضيق الحاج حميدة الذي سارع بإرسال ورقة إلى المهندسة مريم يطلب فيها طرد الرجل، وتصفية حسابه مع خصم 30% من أعماله، إتلاف للمواد وسوء مصنعية، أما هي فقد فوجئت بأسرة الصبي

اللبناني متجمعة على مدخل مبنى الإدارة، بين باك ومكلموم، عيون تترقق بها الدموع بين الغضب والحزن المستسلم، كاد يغشى- عليها، وهي تستمع إلى تقرير الطبيب الشرعي الذي أثبت وجود شروخ بمؤخرة الفتى الذي يرقد في المستشفى، صعدت من فورها وهي تفرغ ما في جوفها بالممرات، وبالكاد استطاعت أن تصل إلى دورات المياه، لحق بها زوجها وأعادها إلى المكتب مريضة، في المساء عاد العجوز المصري، فأشفقت عليه، وكان أمامها مهندسو الموقع فسألتهم عن قيمة أعمال الرجل، فقالوا: هذا شأن الحاج حميدة، ودفعتها شفقتها إلى تقليل الخصم إلى 20% فقط، تظن أنها بذلك تحل إشكالا، وأنها تسترضي الحاج حميدة، لكن العجوز لم يقبل وراح يشتكى ويرجوها حيناً، وحيناً يتحدث مع بقية المهندسين عن العمال والوقت الذي أمضاه في البحث عن المواد، وخسارته اليومية بسبب تأخير العمل، يحاول أن يستجلب عطفهم، ولكن عمر بوزوي هبط عليهم في هذه اللحظة، واتجه إلى مريم مباشرة، ومن ورائه الحاج حميدة بوجهه الغوريلا، وقامته الربعة القزمية ووجهه القرمزي، لحظة أن حل بوزوي بالمكتب انكمش الرجل واسودَّ لونه خوفاً واستكانة، سألها بلهجة تحمل بين طياتها وعيداً: كلك تدوي مع الشايب هذا؟

لم تنطق سوى بكلمات قليلة: عم أحمد يخدم المؤسسة... ذلك أنه تجاهلها ومال إلى الرجل يصرخ به: شنو تبّي يا تيس... عدي لمكتب العمل يا قواد.

لم ينبس الرجل سوى بجملة: تشتم راجل في عمر والدك
يا عمر؟

كأنه ينتظرها فقد هبط بكفه على وجهه العجوز مهتاجًا،
فدار الرجل حول نفسه وقد قذفت به اللطمة إلى الجدار،
حاول الهروب لكن عمر تابعه بركلة في مؤخرته وهو يسبه
ويهيئه.

- دينك ودين عويلتك... هيا بره يا تيس... عدي لمكتب
العمل غادي. واستدار إلى مريم قائلاً:

- الفوال هذا ما يأخذ من حقه درهم واحد فهمني ولا لا.

هزت رأسها موافقة في سرعة... لا تفهم كيف أن رعباً
مستطيراً حل بها، ترى القوة الغاشمة قريبة منها بمثل هذا
القرب، تكاد تلامسها، تطيح بها، كيف أنها لأول مرة في
حياتها داخلها الخوف والضعف أمام قسوة الآخرين، لقد
أهينت كرامتها، كانت تظن نفسها القوية، لكن البغي غير
الإنساني الذي حل بالعجوز جعلها تنكمش وتصمت وتنحني،
في المساء وقد انفصلت عن زوجها بغرفة أخرى للنوم،
أغلقت الدمشقية الشابة باب غرفتها، نضت عنها ثيابها
وراحت تثبت بالدبابيس وأوراق الصمغ مجموعة من الصور
لإحدى حفلات الجنس الجماعي، مشاهد جمالية وألوان
طازجة على ورق مصقول لامرأة يعترضها رجلان، وراهبتان،
وتركوا في أحشائها جوعاً لا ينطفئ للرجال والنساء معاً، حتى
الحيوانات، فراحت تبحث عنهم حيناً بمالها، وحيناً بجمالها

وأخذت مريم عارية تعيد رحلة اغتصابها لنفسها، تواردت على مخيلتها صور وأشباح الأجساد العارية، وراحت تغوص حتى غرقت في بحر من اللهاث والعرق، همدت أخيراً وقد انتابها ضعف شديد، بعد سكون دام دقائق سكن العذاب في وجهها، ارتدت غلالاتها، وأخذت تدخن في عصبية شديدة، داهمتها موجة الندم التي تعقب الرغبات السرية، بدأت في بكاء صامت... كانت تتمزق وهي تهتف لنفسها:

- يا ربي... شو أنا فعلت؟

في اليوم التالي تخلفت عن الذهاب إلى المؤسسة، كانت شمس الضحى نقية باردة تغسل حجرات الفيلا مشيعة بهجة غامضة في النفوس الوحيدة، لأول مرة راحت تدور في حجراتها سعيدة، وبدت الوحدة بعيداً عن المؤسسة ووسط شمس الشتاء طعمًا يلذ لها تذوقه.

ما الذي دفعها إلى أن تسرع في لهفة إلى الحلي الصغيرة؟ أخرجت وعبق جميل الرائحة يملأ خياشيمها، سلسلة من الفضة الثمينة كان حبيبها الضائع قد أهداها لها، بين القهوة والسجائر استعادت أيام التل والشام والجامعة ودمشق، حياتها التي كانت تملؤها بالتمكن والإشباع العاطفي والمادي، زخم الصداقات الوطيدة والحفلات الاجتماعية التي أقيمت على فترات متباعدة... وأخيراً كل الذي يصنع الأمل في مستقبل كامل جميل.

أين هذا من الظمأ والوحدة والأنياب التي تنغرس في أجساد المازجرية؟ الأمان المعدوم... الصلات المشبوهة... سرقات اختلاسات رشاي قمسيونات نسب مئوية، انهيار كرامة الإنسان أمام دينار النفط... رحلت إلى فراشها مبكرًا لكن قلقًا عارمًا داهمها، تمددت منومة تهرب مما يدفعها إليه جسد يعاني الوحدة، لكنها استسلمت له في النهاية...

في صباح هذه الليلة، وضعت على جيدها السلسلة، ومع كل لحظة كانت تخوض في بحر الماضي، تعود إلى عالمه وتستعذب شجونه، بجانب زوجها على الفراش، في غرفة المكتب داخل السيارة، وعلى موائد الطعام كانت مريم تحقق انفصالها عن كل ما يحيط بها، تستأنس وحدتها بشبح الماضي العذب الجميل... مع كل لحظة كانت تتوتر أعصابها تنفر وتبرز مخالبتها، ويحل قناع الصمت والغضب، فتصبح مثل قطة بركن تواجه حية رقطاء أو جمعًا من الكلاب المتوحشة.

المأزق الذي عانت منه مريم طوال أيام وساعات وجودها في العمل، داخل مبنى المؤسسة وهي في مكتبها وبين أوراقه المبني وحساباته وأوراقه، بأنها كانت متهمه بأنها لا تضع مصالح المؤسسة موضع الاعتبار، ولم تكن تدري عند أي حد تنتهي هذه المصالح، وبدأ الاتهام واضحًا يكاد يقفز من عيونهم، وأخذت الأعمال تخف من مكتبها حتى تلاشت، وبدأ أن وجودها لا معنى له، وما كانوا هم ليقولوا... ارحلي...

أنت شخص غير مرغوب فيه، فقط الإهمال الذي يحملك على الجنون، وحركة العمل تدور من حولك كالنهر، ولا حول ولا قوة، بل أنت شخص منبوذ معزول عنه وغير مرغوب فيه.

* * * *

"إنني واثق بقدر ما تكون الحياة الشخصية ودوافعها الذاتية ممكنة، بقدر ما يكون للروح والفكر قدرتهما على الدفاع عن الذات ضد السلطة العامة".

غاصت بقدميها في رمال شاطئ أشبيلية، رفعت ذيل فستانها الشانيل، تاركة قدميها لأمواج البحر تغسل عنها حبات الرمل الناعمة... خاضت قلب الموج... كان الهواء باردًا فانكمشت بنهديها تستجلب الدفء... هنا على شاطئ البحر عالم خالد النقاء تحرق الشمس أوراقه كل يوم وتغسله أمطار الشتاء الغزيرة... عالم ليست له علاقة بمؤسسة النصر ولا بصاحبها عمر بوزوي.

بالأمس البعيد أتهمت أيضا بأنها لا تضع مصالح العائلة موضع الاعتبار، ولم تستطع أن تفهم كيف تقضي- مصالح العائلة على مصالحها... ومتى يصير لمصالحها مكان... قالوا لها إن ارتباطها بنزيل المعتقلات يهز مستقبل والدها ويعرضه لأشد أنواع الاضطهاد والتنكيل، هذا إذا كانت لا تهتم بحياتها التي سوف يدمرها ارتباط غير مستقر، وطوال سنة كاملة تم حصارها وممارسة ضغوط نفسية هائلة،

ولأول مرة صفعتها أمها ولم يمض وقت على اكتشاف رسائلها المتبادلة حتى شرعت العائلة بمقاطعتها.

ضحكت مريم وهي تغمس أصابع قدمها بين حبات الرمال المبتلة وزبد البحر كانت رسائله لها حادة ملتهبة. وعندما اكتشفتها أمها ولولت باكية.

ولكنهم نجحوا في قهرها، أجادوا ذلك... حتى إن ثقتها بذاتها... ثقتها بكيانها، بالقيم التي تحيط بها اهتزت، ورغم أنهم عقدوا قرانها على ضابط شاب برتبة رائد إلا أنها قاومت وفي عناد، لم يرضخوا لها إلا عندما اكتشفوا محاولاتها للانتحار، ولكن هذا لم يتوج بالارتباط بمن تحب، كان دونه عقبات باهظة، ورضخت... فقد خرجت من معركتها بجراح ثخينة، مهدمة الذات، وكانت صفقة التخلص من الرائد قطع علاقتها بحبيبها، ولم تكن هذه الصفقة مع أهلها ولكن مع ذاتها هي... كانت تقول لنفسها: عليّ أن أستريح من هذا الجحيم... وتستطرد بسخط... وعلى مصطفى أن يفعل شيئاً، ما ساءها أن مصطفى الذي ما زال بعد طالبا بالجامعة ظل غارقاً حتى أذنه في مشاكله السياسية. وهكذا لحظة أن تركها أهلها تتخلص من الرائد كانت قد وطنت نفسها على التخلص من رغبتها في شخص كانت تحبه، وبعدها اليوم لا تدري أي رباط قوي يشدها إليه.

في اللقاء الأخير قال لها مصطفى وهم يسرون داخل
جامعة دمشق متجهين إلى البوابة الرئيسية حيث حان
موعد العودة:

- لكل منا عالمه الخاص... ولا أدري كيف يكون عالمك
السحري؟ كيف سيمتد؟ كيف سيتحطم؟ ولست أتمنى
ذلك، ولكني أثق أنه بقدر ما تكون الحياة الشخصية ممكنة،
وكذا دوافعها الذاتية بقدر ما يكون للروح والفكر قدرتهما
على الدفاع عن الذات ضد السلطة العامة، حتى السلطة
الأبوية... نحن نعاني من القمع، تقهرنا مجموعة البنى
الفوقية، وعلى رأسها السلطة السياسية، هذا الذي خلق
للشرق الخصوصية العميقة للاهوت والسلطة، أليس من
الضروري أن تجيء النتيجة عكسية تمامًا لما يتباهى به
مجتمعنا الأبوي، القدرية والتخلف والهروب إلى السلفية،
نعود إلى المجتمع الحجري، مجتمع حيواني خالٍ من
العواطف الإنسانية لمصلحة من إذن؟ ألا تصبح هذه
الأشياء التي تجري في مجتمع تتزوج فتياته في سن الثلاثين
رموزاً معقدة تخلق مجموعة من الانحرافات النفسية
والعصابية، تبدأ من الوعي حتى أعماق اللاشعور.

نعم... ففي أعماقنا يقبع تاريخ طويل من القمع المتواصل
لتلك الطرائق الصحيحة والسوية للتعبير عن غرائزنا
وحاجتنا البسيطة... إنني إزاءك لا أستطيع أن أعبر عما أحس
به من مشاعر السعادة أو الشقاء، فأنت إذا حق لي القول لم

تتخلصي- من كونك ابنة ضابط ينتمي إلى صلب السلطة، يزن الأمور بميزان متخلف بقدر ما ينتمي لجيش عتيق، لا أستطيع أن أمالك القول، فأنت بتلك المعاذير الاجتماعية تبدين حقا أميره تستحق التبجيل، وهذا أمر أسقط مرغما في عواصفه وأنوائه... أنت سر لا تسمحي لأحد بالاقتراب منه... لم...؟ ليس لك رفاق ولا يوجد لديك سوى صديقة، ومجرد تلك المجاملات وتعابير الصباح الرسمية لا تعني على الإطلاق أنك تعابشين هؤلاء، الشيء الذي لا شك فيه هو أنك تملكين استعلاء من نوع خاص... قد يكون له مردوده الطبقي... أو الذاتي، فأنت على ثقة شديدة من أنك لا تجدين في رفيقاتك من تماثلك الذكاء والجمال... ومن ثم تبدين كملكة.

حسنا، فلماذا لا تملكين حرية الاختيار؟ لماذا تنهزم مشاعرك وعواطفك وحتى اختيارك العقلي أمام السلطة الاجتماعية أو الأبوية...

جمدت ملامحها ولم تنبت بشفة... كان ديوان ناظم حكمت الذي أعطاه لها ملقى على الطاولة بإهمال، وكانت قد فقدته ثم استعاده ثانية، عندما سألها إياه... وكانت علاقتهما تهاوى. أجابت في جفاء وأمام كثير من الأصدقاء: وإذا ما بجدته بعطيك ثمنه أو بحصله من وين ما كان... إنها تقول له... استح... قرر أن يكون هذا هو اليوم الأخير في علاقتهما، ولكن الأمر لم يكن هذا فقط... بل كانت تثبت

لشخص آخر من الجالسين انفصام علاقتهما، لم تكن قادرة أن تمضي- هذه اللحظات العصبية إبان بداية فراقهما معا وحيدة، فاستعاضت عنه بصديق أنشأت معه علاقة عابرة... لقاء ومواعيد، قبلات صالات السينما المظلمة.

كانا قد بلغا فناء الجامعة، استمر في السير تحت شمس خريفية باردة، قال: سيتعين عليك فتاة أو امرأة أن تظلي طيلة عمرك تبحثين عن شيء سيصير منذ هذه اللحظة المجهول الذي لا تعرفينه... لكنه يؤزمك ويطاردك... وكما ظننت أنك وجدتيه، لن تلبثي أن تلهثي معاودة البحث عنه.

كانا منفصلين، هي تسير صامته على وجهها معالم الكارثة، وهو مطمئن هادئ البال، توجد في العالم والزمن المقبل ألف فتاة أخرى، ولم يكن يدرك لغبائه أنه لا يوجد سواها، كان حزينًا لفقدائها وحزينًا لعلاقة امتدت سنوات طويلة، ها هو يفقدها تحت ثقل مجتمع متهتك، كان قد تعود أن يقوم بتوصيلها حتى موقف الباص... اليوم توقف على باب الجامعة... استاءت... هو يمضي- في طريقة هذا الشيء الذي أحسته دائمًا، لم تعد تستحق منه الأمتار القليلة التي تفصل باب الجامعة عن محطة الباص... التفت مودعًا إياها قائلاً: عليك أن تظلي من نافذتك على العالم وتكسري هذا السجن الأبدي حيث الحياة، آلاف غيرك يكافحون السلطة السياسية والاجتماعية، ويهدمون سجونها.

لم تتحدث قط، فضلت أن تكون الخاسرة هذا اليوم، كان باستطاعتها أن تقول... بعدك طالب... ومستقبلك ما بدري شو... وأن تقول لا أستطيع أن أكسر- هذا الإطار الذي أكرهه كما تكرهه أنت، ماذا سيكون مصير إخوتي الفتيات؟ وودت لو تقول سأنتظرك حتى سن الثلاثين... لكن خاطراً منعها... خاطراً خفياً دفعها أن تمتنع عن أن تكبل نفسها بقيد كهذا، سوف تترك للعالم وللمستقبل المجهول مصيرها، فقد ضاقت حقاً بقيد علاقتها به...

وساءه أن يودعها على هذه الشاكلة، استطرد: لكني أثق... على إيه أوضاع واختيارات... أثق بأنه قدر ما تكون الحياة الشخصية ممكنة... بقدر ما يكون للروح والفكر قدرتها على الدفاع عن ذاتها ضد السلطة العامة، وأضاف وهو يستدير إليها ملقياً بعبارته الأخيرة، وكأنه هاملت يتفوه بحكمة بلسان شكسبير عن القدر والموت والآلهة: يجب أن تكوني... يجب أن تكوني ماركسية...

كانت العبارة الأخيرة التي ألقى بها... قد حسمت موقفها تماماً... وكان يعلم أنها لا تستطيع... فقد أراد أن يحدد الخط الفاصل في فشل العلاقة... وكانت هي على يقين من أنها لن تكون... ومضت ولم تفعل... بل تزوجت زميل لها بالجامعة ابن لضابط برتبة لواء يرأس أباه... المهندس زياد.

* * * *

لأننا لا نملك أكثر من حياة واحدة... فإن حسرة تملكنا وأسى عميقا يضرب بجذوره في أعماقنا عندما نصادف لحظة ما حبيبا مكللة رأسه بالغصن الذهبي... ثم لا تلبث الحياة أن تلقي بكوابيسها... الفراق... كيف تأخذنا الدروب؟ ولم تلق بنا الأشرعة إلى تلك المرافئ التي لا نبتغيها؟ وما هي تلك الآلاف من الأشياء والهموم الصغيرة التي تظل تتقاذفنا في سلسلة من الدوامات البطيئة الغامضة، وفجأة نفاجا عندما نرفع رؤوسنا قليلاً فوق تيار الحياة المعتادة في ساعة متأخرة من ليل التذكر، أو تنبهات اليقظة، إن تلك الطرق التي وطئناها حيث عالم الشباب السحري قد غابت عن عيوننا وضاعت معالمها، ولم يبق منها سوى شقوق وجروح وشظايا تثير فينا الحزن والألم... أقدامنا أكبر من الحذاء، ولهذا فإن الألم على الطريق مرير.

منذ عشر- سنوات كانت مريم تحتمي بهوى جعل منها مركزا للعالم وأصل الأشياء والعناصر، كانت وهي تذوب في أحضان فتاها تجن بالتفرد الذي يداهما وهي وحيدة معه.

أما الآن فهي امرأة خاسرة جاوزت السادسة والعشرين، متزوجة من آخر يدعى زياد، تفكر بالانفصال عنه. لماذا...؟ كيف تم ذلك؟ أين راحت سنوات العمر التي لا تأتي سوى مرة واحدة.

ألقت بناظريها إلى أفق البحر... هناك تلتقي السماء والأرض في وهم، والشمس قرص مستدير، وأمواج البحر تأتي

مترادفة عالية، تلقي بنفسها على كتف الشاطئ الذهبي... وفي السماء سرب من الطيور يحلق عاليا إلى الشمال.

عضت نواجذها في غضب، الآن أنا في السادسة والعشرين، والسادسة عشرة لا تأتي سوى مرة واحدة، وأيام الطفولة لن تعود قط، توقف أيها السري الذي لا يأسرك شيء، لا تختف في زوايا السحاب، فاللحظة التي تلمست فيها تلك الاهتزازات الرهيفة لعواطفي، وأنا أحتضن بزي مدرستي حقيبي في صدري، لن تأتي قط، لقد فقدت عذريتي وللأسف أخذها شخص تافه، ورجل من الدرجة الرخيصة وأنا الآن امرأة وحيدة...

وشتان بين الوحدة والتفرد الذين شعرتهم مريم في حياتها... اليوم هي وحيدة تجاه العالم كله وتقبع في قاعه وتنوء بحمله... يداهما خوف وقشعريرة باردة، تسير بحسرة وشقاء إلى شيخوخة مبكرة، تنظر في عجز إلى أيام العمر تبتلعها رمال الزمن.

وأين الأمس البعيد الذي عاشته مع مصطفى، حيث كان يجعلها ملكة متوجة وأميرة صغيرة ذات كبرياء، وتاج وصولجان وخزائن تستطيع أن تهب منها السعادة للآخرين... نوعان هما اللذان يعيشان الوحدة... الملوك والتعساء وبالأمس كانت ملكة وهي الآن امرأة تعيسة.

طوال عشرين يومًا كانت تذهب إلى العمل وتأتي لا تفعل شيئًا... أرادت التوقف نهائيًا عن العمل، لكن زياد دفعها دفعًا

للذهاب، وزادت أيام تغييبها، وأصبحت ساعات العمل لها نارا تتغلب عليها... من الذي على الباب؟ عمر، وتحاول ألا تهتم، فإن كان المهدي فعليها أن تعبت بالورق والقلم، تتظاهر بأنها تعمل، حتى تلفت أعصابها، وعاشت مع زوجها منفصلة، قَلَّتْ أعداد الكلمات التي يتبادلانها، وبدأ أنها مترددة في اتخاذ قرار نهائي، وإن كان وجودها بالمؤسسة صار أمرًا مشكوكا فيه، وما كانت قادرة على أن تحسم الأمور، فبقاؤها في ليبيا بعد ترك المؤسسة غير ذي معنى... حسنا، وماذا سيكون وضعها معه؟

فقدت زمام المبادرة، لم تعد هناك صخرة تستند إليها وسط الأنواء، فركنت إلى التيار، وقد ظنته تيارها، لكن شيئا لم يكن ليخفف من صدمتها تجاه زوجها الذي تركها وحيدة غير مبال بها أمام المؤسسة، وكانت ترى في موقفه المشين دناءة لا مثيل لها، ورهانا خاسرا للتقرب من أصحابها، وتقديم الولاء حتى لو كان الثمن هي... ولم تكن لتظن أن العالم أغلق أبوابه أمامه حتى يضطر لأن يفعل، فتيقنت بأن نفسيته ضعيفة، في هذه اللحظة انبعثت في ذاتها عزيمة لا تلين كي تقاوم، وكان عليها أن تجعلهم يدركون الفرق بين الغراب والصقر... فلما جاءت لحظة الصدام كان انفجارها عاتيا... وكان حظها هذه المرة مع رئيس مجلس إدارة المؤسسة وصاحبها عمر بوزوي.

كانت قد تأخرت عن ميعاد بدء العمل بنصف ساعة، ودخلت باب المؤسسة في إحدى عرباتها، وخلفها مباشرة العربة المرسيديس يقودها بوزوي، لم تهتم، نزلت وأعصابها في ثلاجة، تحدث السائق في أشياء غير ضرورية، صعدت لأعلى، تحيطها النظرات، لم يكن زياد موجوداً، فقد كان بالمواعح حاملاً حقيبته السمسونائيت، لم تمض ساعة حتى جاءها المدير الإداري للشركة يدعوها لمقابلة رئيس مجلس الإدارة، هزت كتفيها وهي تستعد للعاصفة...

طرقت الباب، دخلت وقد تركته مفتوحاً، كان المهدي عمران يستعد للخروج، لكن بوزوي أمره بالبقاء، تحول إليها شذراً، وبصوت جهوري وجه حديثه إليها قائلاً بابتسامة ساخرة:

- كنه يدير فيك زياد بالليل بيش ما يخليك تحضري في ميعادك. ثم صرخ وصوته يعلو بشدة يتردد في كل البناية:

- يا مدام، هذه مؤسسة مش أوتيل للنوم، كافيتريا بيش تشربي بيها فنجان شاي وتعدي... أنا المؤسسة بتاعتي نبيش موظف يجي متأخر عن ميعاده... كيف تظني نفسك؟ عروس ما تبيش تترك فراشها إلا بالضحى، وين ضميرك يا مهندسة؟ أنا نعطيك في راتب... من وين أخذت شهادتك؟ وين الجامعة الزفت اللي عطيتك إياها؟ أخرج أوراقا وراح يمزقها قائلاً: هذه الشهادة، أنا ننصحك تقطيعها هيك، لأنها ما تساوي فلس من دون ضمير الإنسان، أنا نعطيك راتب ما

يحصل عليه عشرة غادي في بلدك... أنت ترى تأخذي في
1000 دولار بالشهر...

تصاعد حديثه عنيفاً ساخراً... وهي تقف أمامه تحديق
فيه في بغض وكرهية، ممتعة الوجه تتجمع فيه معالم
التحدي المشبوب بالازدراء واستمر قائلاً:

- أنا المؤسسة بتاعي... أنا اللي نملكها، وما نبيش حيوان
يعفن مكاتبها من النوم... فهمت يا مريم، هيا عدي، وأشاح
بيده إليها خارجاً وقال مكماً حديثه الجارح وقد خفض صوته
بمستواه الطبيعي، والمهدي يحمر خجلاً ويتسم على مضض:

- أنا نكلم في التيس الآخر (مشيراً لزوجها زياد) بيش يكون
خفيف ويتركك بيش تنامي بدري... من وين يحصل كل هادي
العافية؟ ترى والله أنا ما أستطيع.

وبدا أن بوزوي سحقتها سحقا، وجعل منها خرقة بالية،
وقد خرج عن حد اللياقة، جارحاً إياها كيفما يريد، نال منها،
وقد شربت حديثه حتى الثمالة، وأخذت وساقها ترتعش،
وقلبها يشتد وجيبه في صدرها حتى يكاد يخرج من حلقها،
وصدرها يعلو ويهبط في عنف، توشك الدموع أن تنهمر، ولو
أن كل شتائم طفولتها، وإهانات الشباب أيام مراهقتها
تجمعت ما ساوت جرعة من المليون مما حدث لها الآن، ولو
تركت لنفسها حرية البكاء لروت نهرًا كاملاً، لكنها هي التي لم
تفاجئ، وما كانت لتتركه يستمتع بلحمها شهياً، بل صمدت،

وكان لحمها مريزًا وقالت وصوتها يشهد رويدًا تستجمع أوتاره
حتى صار صلدًا قويًا:

- باهي أنا بعدي مو لمكتبي، لكن بعدي من هون خالص...
لكن قبل ما أترك، بدي تعرف أن مش كيف تفتح الملف
وقت بتريد، تقفله وقت ما تحب... مش هيك حياة الناس...
ما كينة تشتريها، مرسيدس تتخلص منها، والمؤسسة اللي
بتظل تقول بكل لحظة، أنا المؤسسة بتاعي، هادي شركة من
ثلاثمائة شركة في بنغازي مو الكون، وإذا بتظن نفسك إله
ونحن عبيدك، فهذه أوهام نفسيتك المريضة وذاتك
المتضخمة.

حذق فيها عمر يحاول أن يستجلي معاني كلماتها،
استطردت قائلة:

- أنت بتعيش داخل مرايا، تتطلع وما بتشوف حدا غير
نفسك، حتى بتظن أنك مركز الكون، وأنت مش هيك... هادا
شيء، والشيء الثاني، هاي الشهادة اللي مزقتها قطع صغيرة،
إذا بتبيع مؤسستك بالكامل ما بتقدر تحصل عليها، ولو
بتشوف النجوم في عز الظهيرة، وما تقاطعي إذا بتسمح، أنا
ما قاطعتك وتركتك تحكي مثل ما بدك، هيك بتكون آداب
الحديث. الشيء الثالث: ملايين الدنانير اللي امتلكتها في أربع
سنوات، فهادي الملايين ما علمتك أن تكون إنسان متحضر-
مش لكوني امرأة أو متعلمة، أنت ما تتورع تركل شيخ عمره
ستين عام بحدائك، لكن المسألة مش هيك المسألة إن ها

دول المازجرية هم اللي على أكتافهم ومن عرقهم ودمهم بنيت مؤسستك فنحن أهل حضارات... نحن بنملك العلم والصنعة، ومن شان هيك اتعلمنا نحترم أنفسنا، ونحترم البشر، وكل دنانيرك ما تستطيع أن تخفيها العجز اللي أنت بتحملة بنفسيتك، وما تستطيع تصلح هوائيتك وانفعاليتك ومزاجيتك الغريبة، وما بتتهذب ملافظك من شان تتحدث معي بكلها الابتذال والوقاحة... بدي أوضح لك شيء... كل هذا الكلام المخجل اللي قلته بيصير مثل ما يبصق سكير في بحر وبالرغم من هيك يبقى البحر نظيف... بإذنك.

خرجت تصفق الباب خلفها بشدة، وبالطرق كانت رؤوس الموظفين تطل، أرسلت لهم جميعاً نظرة احتقار، تحاشوها، رحلت إلى منزلها والساعة لم تتعد بعد الثانية عشرة ظهراً، انتظرت أن يأتي زياد، لكنه لم يأت قبل المساء، عندما قابلها امتلاً وجهه بالفرحة والابتسامة، فبرغم أن بوزوي قد أعلن مباشرة عقب ذهابها تصفية مستحققاتها بالمؤسسة، وأنه سيرحلها من فوره إلى سوريا حسب ما تنص عليه قوانين العمل، إلا أن المهدي عمران كلف زياد في ذات اليوم بدراسة المشروع الجديد بطريق، وكان هذا ترقية وتزكية جديدة... عاد زياد بعد أن علم بكل ما دار بين رئيس مجلس الإدارة وزوجته فهتف بها مبتهجاً:

- إيه هيك بيكون الشباب.

- إيش تقصد؟

- إيه... هادي اللي حصل اليوم مع عمر. المؤسسة كلها بتحكي بشجاعتك وجرأتك يا معلمة... الكل يقول هادي راجل عرفت يرد الصفعة... هادي امرأة تسوي عشرة رجال... والمهدي عمران قابلني وهو بيضحك ونظراته بتقول، ما كنا نظن أن مرتك نمر متوحش. - وبعد؟

- ولا شي... بتعودي بكره للعمل وبيصيروا يقدروك ويحترموك كيف الواحد منهم، أنا بعرف ها دول الليبيين، ما بيحكم تصرفاتهم معيار ولا قانون، ليش هم ما يعرفوا شيء غير المال، وما على الواحد منا إلا إنه يتكلم أكثر ويعرض بضاعته ويدافع عنها، ولو كانت ما تسوي شيء بيصدقوك... والقوي هون هو اللي يقدر يطوعهم، وإذا بتستكيني وتكوني مثالية، ولو كنت أعظم خبير في الهندسة، ما بياخذ إلا بالكوندرية (الجزمة) فهمت عليّ؟ واليوم جعلت عمر بوزوي نفسه يظل ساكت ما يتكلم كلمة، فكيف بأي لبي آخر بالمؤسسة، لازم يصير مين ما يقف بين إيدك مثل الحمامة الوديع... ها دول المال جعلهم ضباع كاسرة تلبس ثوب الأسود لما تلاقي حدا ضعيف، وتخلعه وترتدي ثوب الحمل الوديع لما بتشوفك رجال.

- وبعد؟ وكانت تتحدث في عصبية وبلهجتها نفور

- إيه... ما تخافي شيء... أنا هيك عمل معي لكني وقفته عند حده... حاول يتدخل بعلمي... عرفت كيف... قلت له: أخ عمر... أنا ما بدني حدا يتدخل بعلمي أيًا كان حتى ولو كان

أنت... أنا اللي بتحمل المسؤولية وأنا لي حرية التصرف
داخل عملي... نعم أنت صاحب المال على عيني، لكن هيك
شغلات بتفسد العمل...

باغتته قائلة: والحاج حميدة ونوري ومفتاح.

أجابها وهو يعلم ما يدور في ذهنها: ها دول أشخاص ما
بعني بيهم... ليش؟ بتعرفي المهدي عمران هذا اللي هو
مدير المؤسسة ما كان شيء، كان سائق سيارة فولكس بيك
آب... إيش لون الواحد يتصرف مع ها دول ناس...
الصمت... أظل ساكت لحد ما يجي الوقت المناسب
وساعتها بيصير كل واحد يقف عند حده... وكلهم هيك...
أطلعي هذا رجل المرور يظن نفسه إله ما بيلمح مازجري إلا
ويعطيه مخالفة... وأطلعي على هاذاك عسكري الجوازات
كيف صفع هاذاك العامل المصري على وجهه كيف ما يكون
اشتراه، وفين بالمطار، المطار اللي هو واجهة البلد الخارجي،
إيش عمل المصري بكى وراح يترجى فيه ويتسمح... ليش
تضربني يا بيه... تذكرت ها الحادث... واستطرد قائلاً:
يستجر حدا يعمل معانا هيك نحن -السوريين- والله بيصير
دم... طب المصري يحتاج لدينار وهيك يعلم العسكري
الليبي، ومن شان هيك صاروا يحتقروهم... بيعرفوا ها دول
المصرية غلابة ما بيديروا شيء... عرفت علي؟.

- لكن...

- شو لكن... بتروحي من الصبح، بتقعدي على مكتبك، ما تعودي تتغيبي أو تتأخري، بتصير المؤسسة مثل ما بدك.

- عرفت شو قال عمر؟

- إيه عرفت.

- وإيش هو اللي عرفته؟

قال وهو يبتسم: بتخللي جوزك ما يتقل عليك بيش تصحي بدري.

- قال التيس جوزك.

- وإيش فيها... هم أصحاب المال والبلد ونحننا مو بالشام... نحن في بنغازي... بدك تتعودي على الظروف اللي نحن فيها... يا مريم افهمي علي... ها دول مثل العجين الطرية تقدري تشكلي منها مثل ما بدك، لكن إذا بدده الإنسان يهرب ليش أجي؟

- أنا ما بهرب... أنا بحترم نفسي.

صاح بها في غضب وقد نفذ صبره:

- يعني إيش تقصدي... ومن اللي ما بيحترم نفسه؟

- كل واحد وشأنه.

- وتوا إيش بتريدي؟

- بترك.

- بتتركي كيف...؟

- بنعود معا على الشام.

- أنا ما بتترك عملي، وما بعود على الشام.

- إذا بطلقني.

صاح وقد انفجرت ثورة غضبه: بطلقك... هيك اللي بدك إياه... إيه بطلقك... بنت العز بنت والجاه شو... ليش أنفك هيك هيك بالسما... على إيش تظني نفسك؟

- ما إلك دخل بأهلي... وما تصيح عليّ.

- إيه بصيح... غلطان! إيش لون أصيح على بنت عميد سرايا الدفاع... توا نروح سجن المزة...

- مو هيك قصدي، وإذا بتريد تعرف أنا ما بظل يوم مع رجل ما بيحترم نفسه، وما بيحترم مرته.

- اخرسي، أنا ببحترم نفسي- كيف ما يكون الرجال، لكن أنا فهمان، وما بعيش بالخيال، بافعل مثل ما بريد أفعل... المسألة مو غباء أو حماقة، كبرياء عاجز... مو هيك أنا بنظر للمسألة... أنا رجل واقعي، بتعرفي ليش أنا واقعي؟ ما بتعرفي... بالشام يوم اللي كنا هناك، ما يستجري حيوان يتعدى حدوده، وما بيقدر واحد، وما بسمح لأي مخلوق وين ما كان إنه يتعدى عليّ في هيك أشياء، الشرف والكرامة أنا بيصير أنفي فوق الكل، ليش إحنا كنا بالشام... وباليوم اللي تركنا تصير الأمور غير هيك، بيصير الإنسان مرن يعرف كيف

يتعامل مع هادول أغراب... لأن الإنسان الغريب بيظل غريب ما إله حقوق، ومهما صار له من زمن، مهما عرق، ومهما حرق من دمه، بيظل دخيل ومش هيك وبس، بيبقى عقدة النقص تبعهم، هادول يملكو المال والسلطة لكن بيظلوا في حاجة إنا، ومن شان هيك لازم نعالجهم، والله بالشام ما أعتبر واحد بيهم في كوندورتي لكن هيك حكم الزمان... بدنا مصاري، بتفهمني؟ كادت أن تقتنع بمنطقه، لكنها حزمت أمرها وقررت ما عزمت عليه قائلة:

- بتفعل مثل ما بدك لكن أنا بارجع للشام.

سألها مغتاظًا: وليش بدك ترجعي... بدك تدوري على حل شعرك... إيه أنا بعرفك... بدك تدوري وسط الشبان المخنثين، بدك ترقصي- مثل الحية، بدك يقولوا هادي مريم بنت العميد، أنت ما بيكفيك رجال واحد، أنت بدك تعيشي- وعيون الناس بتطلع في لحمك وبتاكل جسدك، هيك بتستريحي، بتقولي أنا بحترم نفسي، ليش وأنت بتروحي المؤسسة وصدرك بيخرج من قميصه، وبنطلونك الضيق يحز ياردافك كيف العاهرة، وأنا ما بتحدث معك في شيء، ليش وهذا احترام للنفس بيش ما بيعجبك عمر؛ لأنه رجل عملي ما بيطلع فيك، ما بده يشوف بياض جلدك وما بينظر لأفخاذك...

قاطعته وهي تصرخ، لقد فقد وعيه، وصار ينفث حقه الدفين، يعبر عن عجزه الصارخ: اخرس... أنت كذاب...

كذاب... ليش هيك... كنت باجري وراك من شان أجري ورا
غيرك، أبحث عن هاداك الكلب، وأنت... أنت إنسان
عاجز... عاجز ومن شان هيك بدك تهيني.

انهالت صفقة قوية على وجهها، واندفع يضربها بقبضتيه
ويركلها بقدمه... كانت المؤسسة كلها فوق رأسه، وهي تحته،
ردد كالمجنون: إيه إنسان عاجز، بتعرفي ليش... لأني أدور
مثل بقرة في طاحون إيش أسوي إلك، اتقبل إهانة هذا
وهذاك، وكل ملاحظ بيظن نفسه رب العلوم... بعرف إنهم
يتحدثوا بظهري... بعرف كل هيك... ورأيته بعيني... ليش
تظني أعمى... بدي أهين كرامتي... وأنت بنت الأمويين...
عليش أيجيتي وإيش تظني في، ما عندي أصل... أبي كان يبيع
سجائر ولا يبيع كنادر... إذا هيك بتظلي، وإذا ما هيك
بتروحي وحدك من باكر على الشام.

* * * *

الفصل السادس عشر

والوهن يملأ جسدها أنهت مريم إجراءات سفرها في صباح اليوم الثالث من المشاجرة التي جرت بينها وبين زياد، كادت أن تقلع عين الموظف المسؤول عن إجراءاتها، قبل أن يتدخل زياد لدى عمر كي ينهي لها أوراقها بمكتب الجوازات والجنسية ومكتب العمل، في اليوم التالي كانت على متن طائرة لشركة الخطوط الجوية السورية، ورغم أن إقلاع الطائرة تأخر عن مواعده كثيراً تدافع الشباب والمعلمون حاملين عشرات الحقائب والصناديق والأجهزة الكهربائية في ضجة وتزاحم يليق بالأغنام، كانت وحيدة تحمل حقيبة سمسونايت نسائية، انتحت ركنا في اكتئاب وحزن، في بطء شديد أخذ قطار المسافرين يتحرك خارج بوابة الترانزيت إلى الطائرة، وعلى الباب وقف رقيب يقوم على تفتيش المسافرين تفتيشاً ذاتياً دقيقاً، جيوبهم وداخل ملابسهم بحثاً عن شيئين، الدولارات والشيكات السياحية المهربة،

الأسلحة النارية والحادة، كان الأمر يتم بامتهان بشري مثير للتقزز، وحتى عبرت هذا الباب إلى الطائرة، كانت قد سبت كل الفلسطينيين الذين سببوا بخطفهم الطائرات كل هذا الامتهان الإنساني لكل إنسان عادي، وإلى الليبيين وجلافتهم، على سلم الطائرة، وجدت شاباً سورياً من أجهزة الأمن يتابع تفتيش كل من يصعد إلى الطائرة، وبجانبه وضعت بعض أدوات النجارة، منشار وقادوم، ومقص. وجدهم مع عمال البناء العائدين إلى بلادهم، فإذا بهاتسب الجميع فلسطينيين وليبيين وسوريين وعرباً، وتسب تخلفهم.

وصلت الطائرة مطار دمشق في الثالثة والنصف صباحاً، حاولت الاتصال بالهاتف لكن الخطوط كانت معطلة، خافت أن تصل في هذا الوقت المتأخر من الليل إلى مدينة التل... بقيت حتى الصباح ثم استقلت سيارة أجرة إلى مدينتها الصغيرة.

عبرت السيارة دمشق في الصباح الباكر إلى الطريق الدائري الملتف حول المرتفعات التي تحيط بدمشق صاعداً إلى التل، كانت مياه نهر بردي قليلة الغور، والأعشاب تحيط بشاطئيه، وكلما اقتربت من المنزل شكت في حقيقة أمرها، وأصابها الخوف، وأمامهم جميعاً بكت، أمها وأخواتها، وشكواهم في الأمر، فقد جاءت دون سابق إنذار، وحقائبها لا تحمل سوى ملابسها، لا هدايا، ولا أشياء تخص منزل

الزوجية، وتجاهل الجميع الأمر... وفي المساء تبعتها أمها إلى غرفة النوم.

قالت مريم وهي تنتحب: خربت حياتي يا أمي... ما بعيش مع راجل... أنا قلت له يطلقني.

- ليش يا بنيتي بعدك ما حملتي؟ إذا كان هيك بتروحي أنت وهو على طبيب بالشام بيحلها.

- وليش؟ هي الرجولة الخلف فقط...

- لا يا بنيتي... بخيل عليك.

- وإذا كان، راتي بيصير مثل راتبه، لكن هذا تقولي إنسان قد إيش حقير، بيمسح بكرامته الأرض، تقولي مخنث، بعده طفل، كل ما كان له عنده شيء بيهينه ويذل كرامته، إيش لون أعيش معاه، وكيف يربي أطفاله، هذا إنسان ما بيسوى، بعده بيصير يقدمني للآخرين.

شهقت أمها قالت: وهذا صار؟

- بعده ما صار... لكن وإذا... ما بعرف إيش بالمستقبل يصير...

ظهرت علامات الارتياح على وجه أمها وقالت:

- إيه يا بنيتي، لكن كل هذا ما بيصير سبب للطلاق، دورك تساعديه كيف يصون كرامته، إذا هو ساتر عليك، وإذا هو بيعطيك أطفال بيصير ما في شيء يعيبه، أنت صار لك

سنتين متزوجة، هذا عمر ما بترميهِ الأرض، وأنت يا مريم مو صغيرة، الإنسان بده يتحمل، ليش تظني أن هلى فيه بنت بده بتلتقي مع الشاب اللي بده إياه، لا... هذا صعب يا مريم، بالزمن اللي مضى- كانت الواحدة منا تزوج كيف ما بيقدر لها أبيها وأهلها، وبدا تتأقلم على الرجال اللي بيصير من نصيبها، واليوم بدك تعملي هيك، وما تظني أن حدا راح يعطيك أكثر من اللي عطاه لك زياد، لأن كل شيء بيصير ناقص، اللي يعطيك المال ما يعطيك الحب، واللي بيعطيك الحب وبيرضي عواطفك ما بيستطيع يعطيك المال، واللي بيوفر التنين، إما بيصير عجوز أو دميم أو مو أديب؟

قاطعتها مريم بعصبية: ماما... ماما... زياد ما بيسوى شيء... هلى بقول لبابا بيخلصني منه... بتطلق... بتطلق... بتطلق... أموت وما بدي زواج وما بدي رجالة... بعيش هون لحد ما بروح المقبرة... وإذا ما بتريدوني فإذن هذا شأنكم...

قالت أمها في هدوء: طيب يا مريم طيب يا مريم... طيب... الصباح رباح... بس ما تحدي بابا في شيء... هاذى إحنا طيبنا من شلل نصفي والله وحده هو اللي بيعلم كيف.

- بابا... آجي له الشلل؟

- إيه... لكن لحد هلى سليمة... مريم... بابا بيعاني من متاعب بالجيش... هلى... صاروا يصفوا أصدقاءه اللي بيعتمد عليهم.

* * * *

لم يمض يوم حتى التقت بصديقتها بدوية... وبعد
حديث طويل أعقبه صمت تحدثا عن كل ما دار في حياتهما
طوال السنتين، قطعت مريم الصمت قائلة: وینه مصطفي؟

نظرت إليها بدوية وهي تضيق من عينيها، تدق الفوتيه
بقبضتها الصغيرة، تجز على أسنانها، تحاول أن تنفذ إلى أعماق
مريم: أنا اللي هلي بدي أعرف... أنت ما تعرفي شيء.

قالت مريم ببراءة: من وين بدا؟

أجابت في غل: أشق الفسطان وأشلق منديل رأسي إن عم
بتكوني أنت وإياه متواعدين...

- ليش بدا؟

- لأنه هلي يجي من السعودية بظرف أسبوعين. أنتم ما
تراسلتم... ما صار بيناتكوا خطابات ومراسلات وإيش لون
هيك شغلات.

- إيه بدا... لا والله... وين يروح فكرك؟

- معقولة... معقولة يا مريم...

- لكان...

أجابتها بدوية بصوت أعلى منها: إيه... لكان... إذا أنت
بتجي وأنت هاجرة جوزك... وإذا هو صار له ثلاث سنين

وأمه وإخواته يرسلوا له من شان يجيء ويتزوج... وما
بيجي... إيش لون بقي يجي بعد أنت ما تجي بخمستاش يوم؟

ابتسمت مريم في راحة وصمت، فقالت بدا بسخرية:

- بيجي بعد وصول الأميرة المنتظرة.

- بدا... صدف... والله صدف يا بدا.

- إيه والله... ممكن... ليش ما تكون صدف؟ بس وحياة

الله يحرق هيك صدف... هلي بتشوف شغلات ما بتسوي.

قالت مريم برجاء: إيه بتسوي يا بدا... بتسوي... من شان

الله بتسوي...

* * * *

في الليل لم تستطع النوم، تقلبت في فراش من جمر...
حديث بدوية مطمئن، لا زوجة... لا أطفال... لكن ماذا لو؟
ماذا لو مرتبط عاطفياً؟ يا ربي... العالم مليء بالرجال، ولكن
معه للحياة طعم خاص... طعم فريد، هذا الوجود الذي
دمره العفن والغبار المتصاعد من الطرقات، قبل اللقاء
بأسبوع تهيأت له كما كان يحدث منذ ثماني سنوات... وكأنها
ليست امرأة بعد... امرأة متزوجة بآخر... ليلة اللقاء جافي
عيونها النوم، باتت مسهدة باكتئاب، ليست هي الصبية
الطاهرة، ولا الزوجة العفيفة، وإذا حصلت على الطلاق
فليست هي العذراء البريئة.

كان الوقت عصراً، ونسائم مطلع الخريف تدفع أمامها هواء الصيف الحار... حول نبع بنين الذي يروي البساتين الواقعة بين بنين والتل، التي تسمى بتل بنين، تجمع مجموعة من الأصدقاء بالكازينو المقام حول النبع، كانوا خليطاً؛ بعضهم أعضاء بجناح المكتب السياسي الذي انشق عن الحزب الشيوعي السوري، وآخرين ينتمون لجماعة صلاح جديد ورابطة العمل الشيوعي وبعض المستقلين... أعقاب سجائر كثيرة، ودخان كثيف، وفوضى تشيع بالمنضدين، وقد التهب الجو بنقاش سياسي حاد، كان الجيش السوري يقصف مواقع القوات المشتركة للحركة الوطنية اللبنانية والمقاومة الفلسطينية بالبقاع والشمال اللبناني... وطائرات الميج السورية تقصف مخيم تل الزعتر، بالصواريخ، لمح أحد الجالسين بدوية تقف في مدخل الكازينو، تجوبه بناظريها بحثاً عنهم، أشار لها أن تأتي، قدمت تمد يدها بالسلام لهم واحداً تلو الآخر... توقفت قليلاً أمام خطيبها حسين، والجالسون يلقون بتعليقات سريعة متفككة دفعت الجميع للضحك، وكسرت في الوقت ذاته حدة المناقشة... انتحت جانبا بمصطفى تحدثه، والعلاقة بينهما أكثر متانة... عما قريب سوف تصبح زوجة لابن عمته حسين، وفي ود ضاحك همست وهي تبتسم: مريم بدها تجي بعد ساعة زمان.

تراجع بظهر مقعده إلى الخلف، وعلى وجهه ارتسمت ملامح دافئة، اختلطت فيها أحاسيس الدهشة المجدولة

بالثقة بالذات، يحاول أن يخبي ملامح الفرح الطفولي الذي خالجه منذ جاءه النبأ، أمام ذاته كان يلوح لنفسه منتصرًا، لقد دار الزمن دورته السريعة، وها هي التي تركته في الماضي تعود وقد أمضتها التجربة، مطبوزه ولامح الابتسامة باقية على وجهه لا تضيق، همس: بنشوف يا بدا... هلى بنشوف.

- شو... إيش لون نشوف؟

- بفكرك إيش لون أسوي، بتعرفي عنها شيء، كيف صارت، كيف سوت، إيش لون فعل بيها المال والغربة مع راجل عنين، عاهرة لأثرياء النفط، إيش لون قيمها، إيش سوى الزمن... هه... بتعرفي شيء؟ ما بتعرفي شيء... وما بعرف شيء... الشيء الوحيد اللي أنا واثق منه إنها بتملك مصاري بالمصرف، وخزانة ملابسها ما بتخلص، بفكرك هذا بيسوي شيء؟! ما بيسوي شيء؟

- ولو!

-... إيه ولو... بنتظر، وكيف ما يصير بيصير.

أثار الحاضرين الحديث الخافت الذي يدور بين مصطفى وبدا، ولاحظ هذا حسين، فقال في جدية للأصدقاء الجالسين:

- مصطفى بعده بيدبر مؤامرات غرامية. تصايحوا: هذا صار له عشرة أيام بالتل... لحق بعده يدير في مؤامرات وهيك شغلات.

قال حسين يثيره: ولو خيو... هذا مو يدير مؤامرات على مستوى مدينة التل، أو المستوى المحلي، هذا بيدير مؤامرات على المستوى القومي... الشام... السعودية... ليبيا... هذا ما وصل للتل إلا بعد ما اتأكد إن كل شيء تمام.

غضب مصطفى، وقال بصوته المشبوح: حسين... حل عن سماي... أنا هلي مو فايق إلك.

صاح حسين: على شو أنا ما فعلت شيء.

- شو بدك تفعل يا زلما؟

قال حسين: هدي أعصابك أخي خلاص ما في شيء... واستطرد يحادث البقية... هو أعصابه تعبانة شوي... إيش لون بدك تفعل إذا استدعوك على الاحتياط؟ ضحك حسين بشدة وبدا وكأنه غير قادر على التوقف عن الضحك ومصطفى ينظر مغتاظًا، وعندما استطاع التقاط أنفاسه استطرد: هلي المشكلة بدها تتعقد، هو بده يحارب البرجوازية على جبهتين جبهة مريم والجبهة اللبنانية.

كان مصطفى يعلم أن حسين يعارض عودة العلاقة بينه وبين مريم، وفي حوار سابق له هلي بضيع وقتك، وما بتكسب شيء من مطلقة، زمان مريم كانت بعدها طالبة، الأحلام إليها دخل بتحديد قرارها العقلي، أما اليوم فهي امرأة، ومطالب امرأة برجوازية، وواقعية تمامًا تتحكم بقرارها، وها

هو حسين اليوم يستطرد في التعبير عن موقفه، بسخريته المتواصلة المريرة، قاطعه معترضاً:

- لكان؟

وهاجمته بدوية: أنا ما أسمح إلك، مريم صديقتي.

أجابها حسين بين السخرية والتجهم: إيه لكان... مريم صديقتك، مو صديقتك... المهم مصطفى بده يصير أداة بأيدي البرجوازية سوا بلبنان أو من شان خاطر عيون مريم.

قال مصطفى غاضباً: بدك تحترم نفسك وإلا ما بيصير شيء طيب.

وهلة بدا وأن الجالسين سيتعاركون، وعلى وجه كل واحد تكشيرة ليث يستعد للانقضاض، تصاحبه الزمجرة التي تسبق الهجوم مباشرة، تدخل أبو موفق مهدئاً: أبو الحسن هاذي موقضية... أنت شو دخلك...؟ ضحك مصطفى وقال: ما بدري يا أخي... بتصير... وصي علي... ما بفهم.

قال حسين منسحباً: بعده الخال ما مات... وعقب ناهيا الموضوع بإشارة من يده: أنا ما إلي دخل.

قال أبو موفق معيدا محور الحديث وهو يوجه حديثه إلى مصطفى وعلى وجهه ارتسمت ملامح الجد: ولكن فعلا إيش لون بدك تفعل إذا ما استدعوك بالاحتياط، أنت وين كنت بأي سلاح؟

قال مصطفى رافعاً يده معبراً عن المصيبة: المدفعية...
مصيبة... يعني بدي أقصف... ما في مهرب.

قال فتى في الثامنة عشرة: ما بصدق إيش لون النظام السوري إذا بيدعي التقدمية وإذا بيدعي أن دمشق صارت عاصمة العروبة اللي بدها ترفع راياتها دفاعاً عن استقلالها وإلخ... إيش لون يهاجم المقاومة الفلسطينية والحركة الوطنية اللبنانية بلبنان؟ كيف الإنسان يقطع ذراعه اليمنى... ما الفرق بينه وبين الملك حسين في مذبحة أيلول، إيش لون يسوي المقاتل السوري... إيش لون يهاجم أخوه الفلسطيني أو اللبناني كي يحمي القوات الفاشية الكتائبية... وكل هادا ما بيصير كافي... أنا السؤال اللي بده يحرق رأسي... اللي بده يذلني يا أخي ويمرغ رأسي بالتراب... إذا ما هاجمت إسرائيل وإسرائيل بده تهجم في يوم من الأيام، أو إذا إحنا هاجمنا من شان تحرير الجولان كيف بعد أن قصفت الطائرات السورية المخيمات الفلسطينية... كيف يصبح هادول الفلسطينيين واللبنانيين والسوريين جنود لجيش واحد، إيش لون راح يحاربوا، كيف راح يضحى الجندي الآخر من شان رفيقه؟

توثب الجميع للحديث ولكنه استطرد مهموماً محبطاً...
يبقى سؤال بسيط. إيش لون راح تعلن هاي دول اللي دخلت جبهة مع النظام عن مواقفها؟ رحلة لموسكو... يا الله في سماك... إيش لون سويت هاي المنطقة؟

قال أبو موفق: بقولك أبو العبد، هون ترك الله قابيل، وهون قتل الأخ أخاه... للشـر هنا فخر البداية... لكن هذا ما يبصير تفسير؛ البرجوازية العربية بتلفظ أنفاسها، لكنها بتلفظها كيف القطط على سبع مرات، بكل مرة بتغير جلدتها... مرة بتصير ذات أصول إقطاعية تتراوح بين التحالف مع الاستعمار والبحث عن استقلال ضمن دائرته، ومرة بتصير بيروقراطية بتدعي الاشتراكية والوحدة، بالوقت اللي تحافظ فيه على الرأسمال الخاص كحرز أمين، حتى إنه بتصير وإياه نسيج متداخل، بالوقت اللي كل نظام يحيك المؤامرات ضد جاره، اليوم بتلفظ البرجوازية القومية أنفاسها للمرة الأخيرة، وهي بتلفظ بشكلين إما بتسلم للحركة الشعبية وإما إن الحركة الشعبية تنقض عليها، وهذا كما يذكرنا الواقع غير وارد، مقومات الانقضاض الذاتي غير متوافرة، والشكل الآخر أن تلتقي وتمد جسورها العملية مع الإمبريالية العالمية، مد ذراعيه قائلًا، لكن البرجوازية السورية ما بتستطيع استعادة الجولان ما تتوقف لحظة عن مسارها الطبيعي، لكن إسرائيل لأسباب حيوية وحياتية لها، ولمعرفتها الكاملة بطبيعة المنطقة، وإلصقها الوطيد الثابت على أن تحقق أحلامها المنشودة في وطن يمتد من النيل إلى الفرات، ما تتخلى عن الجولان... وهذه أسس للصراع ممتدة على استقامتها، وهي تخيم بفضاظة على كل حدث، بالطبع وسائل تحقيقه لا تتخذ نفس السمة أو المظهر... حسنا إيش تفعل البرجوازية السورية، حرب

شعبية، مطلقاً، يبقى منهجها البرجماتي، تحجيم وتطويع الحركة الوطنية اللبنانية، وكذا المقاومة الفلسطينية، ومن ثم، فإن الثورة الوطنية الديمقراطية التي كادت أن تلحق بالقوات الفاشية للحلف الكتائبي الماروني في لبنان هزيمة ساحقة، وهي تقوم بذلك بعملية تعويض عن مصالحها، وها هي تقول، واستطردت بدوية مقاطعة أبو موفق: ها هي تقول لإسرائيل هاك رأس المقاومة والحركة الوطنية على طبق من فضة ولكن أعطنا الجولان، وهي تقول أيضاً للإمبريالية العالمية، نحن نفهم معادلات الصراع ونقوم عنكم بدور الشرطي الذي يحافظ على توازنات القوى، واستطرد أبو موفق مواصلاً الحديث... نعم، تماماً كما قالت بدا، ولكن خلف هذا كله يبقى الخوف من صدام مباشر مع العسكرية الإسرائيلية المتفوقة في كل من الإمكانيات التكنولوجية والعقلية العسكرية، وفي التنظيم والإدارة، وهي تخفي خوفها لتحوّله إلى ادعاء مسيطر بأنها المعنية الوحيدة بالحرب، ولهذا فإن لها حقوق السيطرة الأبوية على مقدرات الصراع في المنطقة، وخاصة بعد خروج مصر.

قال الفتى: بس شو... بدا تصطدم بإسرائيل بدا تصطدم، واللي عمله هلي يضعف حلفها القومي.

أجاب حسين: كيف ما قال أبو موفق... بده يحكمها منهجها البرجماتي الانتهازي، ولن نعدم قريباً أن نجد صورة

للأسد وعرفات، وحدة بين المقاومة والنظام السوري، الليبي، أشياء من هاي الشاكلة.

قال مصطفى بسخرية عظم البلوى: بإذنك حسين... واستطرد محدثا الفتى... هلى بوضح لك كيف المسألة؟ كيف التدمير البشع يعمل فعله؟ هذا السؤال اللي طرحته قبل... كيف يذهب الجندي السوري إلى معركة يقاتل فيها حلفاء الأمس رفاق (مفترضين في الغد)، خاصة إذا بتعلم أن منظمات المقاومة الفلسطينية بشتى أجنحتها إلها جماهير غفيرة بين الشباب السوري، خاصة أيام صلاح جديد، إيه المقاتل السوري يروح لبنان، هم يبثوا في عقليته ذهنية العربي القديم، ذهنية الغازي الفاتح... الجندي السوري بيروح، ومعمول له غسيل مخ، نحنا نحارب بلبنان العناصر المارقة عن خط الكفاح الصحيح، وبصوت أقل خفوتا، نحن بنروح لبنان من شان الوحدة، وبصوت يصبح في مستوى الهمس، ولكن أكثر عمقا وتأثيرا، نحن بنروح لبنان من شان استعادة سوريا الكبرى، ساعتها تنحل أزمة الكتائب... إيش لون يسوي أمام الجيش السوري المغوار... وبضم لبنان تتحقق الوحدة، بنصير أقوى، وبقوتنا الجديدة نهزم إسرائيل... هل نجد معادلة مقلوبة مثل هذه؟ وهل نرى تدميرا وتخريبا ينبى عن الانهيار أقوى من هذا؟ ردد ملوحا بإصبعه يتبقى من تساؤلات أبو العبد شيء وهو الجبهة، من بعيد لمح مريم قادمة... كنة قطنية صفراء بلون عصافير الكناريا، تكشف عن الساعدين وتكور النهدين، بنطال من

القطيفة البنية الداكنة، من خصرها تدلت سلسلة ذهبية...
أدار ناظريه إليها مباشرة، وكانت قد لمحت الجمع، فأقبلت
منكسة الرأس، وقد كللت كتفيها شلالات شعرها الطويل...
قبالتهم قالت بصوت خافت: مرحبًا.

حياها الجميع... لم تمد يدها بالسلام لأحد لوجود
مصطفى... وكيف؟ وكفيهما لم يعرفا المصافحة العابرة، وقد
تعود على العناق، سيل الرعشة... ما أراحها وجه مصطفى،
كان نبعا من الهدوء المطمئن وشمسا تشع بالود... لا
كراهية، لا ضيق، لا ألم، لا تشقي، لا مبالاة... تذكرت يوم
قال لها... لا أكره قط... قد أحييد مشاعري تجاه الآخرين،
لكن بداخلي لا توجد سوى كراهية واحدة إلى أولئك الذين يدمرون
الإنسانية...

بابتسامة واسعة، جذب مصطفى مقعدًا بينه وبين بدا،
قال بصوت خافت: إيش لونك مريم؟

ابتسمت بعينيها وقالت: مليح... إيش لونك أنت؟
- كثير مليح...

عاد إلى الجمع دون أن يقدمها إليهم: توقف هنيهة حتى
يتوقف الاضطراب الذي أحدثه وصولها... استطرد... أبداع
الفيتناميون مقولة بسيطة وجد واضحة... في عصر
الإمبريالية لا مكان لبرجوازيات مستقلة بالعالم الثالث، أنتفي
الدور الذي يتعين على البرجوازيات القومية إنجازه، فيما

يختص بقيادة الثورة الوطنية الديمقراطية، أصبح منوطا بالطبقة العاملة أن تقود النضال الشعبي... ألا ينبئ هذا عن ثورة اشتراكية؟ وإذا كان، فلماذا كان الفيتناميون عمالقة في التحالفات... كيف نفهم هذه الازدواجية؟ ولماذا كان برنامج الفيت كونج يشتمل على نقاط رئيسية منها الحياد والسلام وإنجاز الثورة الزراعية والاستقلال؟ هل الحياد واحدة من النقاط التي يمكن أن يتضمنها برنامج لمرحلة ثورة اشتراكية... أم أن طبيعة ازدواجية المرحلة وتداخل مرحلة التحرر الوطني التي يتعين على الطبقة العاملة أن تقودها يفرض موقفا كهذا؟ المسألة الثانية... متى تحدث الفيتناميون في الشمال عن الجبهة وتحت أي شروط؟

هذا لم يتم إلا بعد أن ناضل الحزب من أجل خلق قواعد وطييدة بين الطبقة العاملة وفقراء الفلاحين، وقد صنع بذلك القاعدة الرئيسية التي أمدته بثقله المادي في ميزان القوى لأي حديث عن جبهة قادمة، بل وانتزاع قيادة المرحلة الوطنية الديمقراطية، والآن ينتصر- الشعب في فيتنام بعد نضال دام خمسين عامًا مثبتًا استقلاله عن السوفيت، أي في الوقت ذاته تحالف حر وطييد مع المنظومة الاشتراكية... تمكن إبداعي مكنه من هزيمة نصف مليون جندي أمريكي، الجبهة في منطقتنا ذيل للبرجوازية، ودعم لها، بوق يخفي مساوئها، حتى هزيمة 67، دون البحث عن دور مستقل في الواقع المحلي، الأمر الذي أدى إلى الإخفاق، ومن ثم الانقسام والتشردم والتفسخ.

في البداية جلست مريم منكمشة على نفسها، انهماك الجالسين في النقاش، شعورها بأن الجمع منشغل عنها خفف عنها وطأة اللقاء، تراجعت بمقعدها إلى الوراء محققة انفصالها عما يدور، تتطلع إليه في شوق، تتملى قسّمات وجهه، لكن هذا لم يمنع هجوم جحافل الغيوم السوداء التي أطلقها الحوار الدائر بين الشباب، والأفكار الخارجة عن القانون التي يتناولونها، هذه مصيره دوما سجن المزه، وأعقب هذا مباشرة وطء المعارضة المستحكمة التي ستلاقيها من عائلتها تجاه عواطفها الخاصة. رغم أن هذا كان مدعاة للسخرية والاستهزاء من حياتها، دون مرارة، وبشكل عبي، إلا أنه تعين أن ينمو داخلها صراع قديم، ففي اللحظة التي اكتشفت فيها سعادتها كان هناك موطن تعاستها... فوق عش النسر- الذهبي حية ضخمة، تهم بالانقضاض، وبين رغبتها في الصعود، وخوفها من المخاطر، تعين عليها ثانية أن تعترف بأن شجاعتها بعد مفقودة، وأن عليها أن تحوم في المكان تزرع الحياة القاحلة، دون أمل سوى الاستسلام لتيار الحياة الاعتيادية.

قام أحدهم دون أن يحدث صوتا، ذهب إليها يسألها أي مشروب تريد، شكرت اهتمامه بها، وعندما أحضر لها البرتقال وعاد ثانية إلى مقعده، وانهمك الجمع فيما يدور، قفزت من اللاشعور أفكارها القديمة عن الجالسين، لقد شعرت بعد أن تعثرت علاقتها مع مصطفى أنهم يصلحون أصدقاء نادرين، أما همومهم السياسية فلا تجعل منهما

زوجين أهلا لحياة آمنة مستقرة، وفيما بعد وعندما حدثت مصطفى بهذه الفكرة أجابها بصوت تشوبه المرارة والسخط والتحدي:

- لسنادى لا تصلح للمس، إما مشاركة كاملة في الأفراح والأتراح وإما لا علاقات.

عدلت من جلستها فصارت قبالة منظره الجانبي، أنثت بظهرها إلى الخلف، وبمرفقها على مسند المقعد، تسند فوق كفها رأسها المائل جانبا، وباسترخاء حدقت في وجهه، بعينين تشتتني أن تمتلئ به جميعه... يتسع فمها بابتسامة مضيئة تستعيد اللحظات التي طبعت هذا الوجه منذ الصبا، ففي ليله كان الظلام بها حالكا، نظرت من خلف زجاج نافذة حجرتها العلوية لمنزلهم الكائن بأعلى الطريق، تطل على أسطح المنازل المجاورة للمدينة، وإلى الطريق الهابط في التواء إلى ثانوية البنات، حيث يتعرج بزواية حادة عائدة إلى الجهة المضادة... كانت المدينة الصغيرة قابضة تحت سماء كابية لليلة من ليالي الشتاء الطويلة التي عاشتها سوريا تحت حكم أمين الحافظ، وقد ماجت دمشق بالاضطرابات بعد أن فتح الحكم النار بينه وبين كل قوى المعارضة، وأخذت الإشاعات تتردد عن المنشورات التي توزع ليلا تحت أعقاب المنازل وبالشرفات، وأثارها الأمر، أصرت على أن تبقى كي ترى ما يحدث تحت ستار الليل، وكأنها طفل أثاره الحديث عن

المسحراتي، وفعلت ورغم أنها غفلت مرتين إلا أنها استيقظت...

كان مصطفى يجذبها من حلمها الكائن بالماضي السحيق وهو يستطرد:

أصبحت الجبهة عربات قطار قديم تشدها قاطرتان باتجاهين متعاكسين. قاطرة باتجاه مقولة خاطئة، وقاطرة تسير بقوة واقع موضوعي لا تتحقق معه مثل تلك المقولة، النتيجة تهشم القطار وتوقف عن السير، في كل الحالات، المستفيد الوحيد على مستوى اللحظة البرجوازية المحلية، على المستوى الإستراتيجي الإسرائيلي والإمبريالية العالمية، والآن ماذا نرى على الساحة العربية؟

كان الطريق مغطى بالثلج يغطيه الظلام وهجوم حبات البرد المتساقطة... وفي بداية الطريق أبصرت تحت سماء كابية أشباحًا متدثرة بالملابس الصوفية الثقيلة، يختفون تحت كوفيات وطواق من الفراء يدفنون بها رؤوسهم، وهم يقتربون من أبواب المنازل والشرفات الواطئة ينحنون ثم يعاودون الوقوف، ثم لا يلبثون أن يعيدوا الكرة مع المنازل الأخرى، حتى كادوا أن يبلغوا دارها، كادت أن تصرخ ولكن الخوف أجمها، لم تمض ساعة حتى لمحت آخرين يفعلون الشيء، وساعة أخرى حتى ظهرت ثالثة تقوم على إلقاء المنشورات المعارضة للنظام القائم من تحت أعقاب الأبواب، لاحظت أن الجميع يمزق المنشورات التي ألقاها

الآخرون في طريقهم، أسرع للزول دون أن تحدث أي ضجة، وقرب الباب وجدت صحيفة مطبوعة ومنشورًا للوحدويين العرب، والآخر للوحدوي الاشتراكي والثالث للناصرين... عادت إلى فراشها وكادت أن تنام.

استعادها مصطفى ثانية وهو يقول: البعض مازال يستمرى الجبهة بمفهومها الذليل معطيًا العلاقة الظاهرية بين الاتحاد السوفيتي والنظام صفة الثبات والدوام ناسيا فعل التاريخ وعاجزًا عن اكتشاف مستقبل طبيعة الصراع العربي الإسرائيلي وما سوف يؤول إليه، ومن ثم يصير قصف المقاومة مباركا رغم المعارضة بخيمة الجبهة... وفي مصر، فالذين خيم عليهم عار الحل بظلامه أصبحوا يغردون بأغنية اسمها البرجوازية ذات الأجنحة الثلاثة، ومؤسسة الرئاسة المستقلة عن الصراع الطبقي... والذين لم يوقعوا على وثيقة الحل أصيبوا بمرض الطهارة، في فترة ما حققوا نجاحات بالحركة الطلابية... فأضيف استعلاء نرجسي-مدمر، دعمه مرض الأدلجة، وصنع الفرقاء معا حائظًا ضخماً، على مذبحته ذبحت كلام القضية الوطنية والطبقية... الأمر الذي أدى إلى مزيد من الانسلاخات وللتشريذم، دفع بانسحاب المئات ومن خلفهم الألوف عن الحركة، ومن ثم معترك الكفاح، لقد عجزت الحركة الثورية المصرية أن تقدم قيادة مقنعة، الواضح أن الطبقة العاملة وفقراء الفلاحين هم الغائبون عن المائدة.

عادت مريم إلى النوم، لكن شيئاً أيقظها قرب الفجر...
دافع داخلي، هذا الذي يجعلنا على أعتاب اكتشاف
المجهول... ومن خلف النافذة الزجاجية لمحت في أول
الطريق شبحاً وحيداً يقترب عاري الرأس يحمل على ظهره
حقيبة ثقيلة تشعره بالعناء وهو يصعد الطريق في خط
منكسر- يلقي بحزم المنشورات كما فعل الآخرون، كادت أن
تسقط الحقيبة فمدت يدها كي تمنع سقوطها، لكن حاجز
المسافة بينها كان لوحاً من الزجاج، على بعد ثلاثين متراً
تمالكت أعصابها، وسط لحظات الإثارة التي خلفها مشهد
مطلع الليل، الابتهاج بامتلاك أسرار لا يعرفها الآخرون...
خطر لها أن تمارس لعبتها الخاصة، وتجعل الأمر أكثر إثارة
مما يفعلون، ماذا لو تفزع هذا الفتى القادم عبر الطريق؟ تنبه
الشرطة أم توظف الحي؟ ماذا سيكون حاله، يا لسخفها!
سوف يحتقرها كما سيحتقرها الجميع، حسناً، لتكن اللعبة
بينهما جد خاصة... كان الفتى يلقي بمنشوره من عقب
منزلهم، عندما انتقل إلى المنزل المواجه ضغطت على زر
النور، أضيئت واجهة منزلهم كلها، وصارت المنطقة مثل
الضحى، سارعت تنظر إليه من النافذة، كان ينحني أسفل
عقب الباب المواجه، إلا أن ضوءها باغته، فالتفت مذعوراً
ليلمح شبحها في النافذة، ولمحته هو، عرفته، كان
مصطفى... سارعت تهديء بإشارات يدها من مخاوفه... ولم
يفهم شيئاً، أضاءت النور ثم أعادت الضوء ثانية... كان ما
يزال واقفاً... حيته في اعتذار، فبادلها التحية ثم رحل إلى

المنزل الآخر، وعادت إلى الطريق كوابيس الظلام... فتحت الكتيبات التي ألقى بها إلى منزلهم، كانت للحزب الشيوعي السوري... لم تأبه وسارعت إلى فراشها لتنساب إلى نوم حالم تحتضن في صدرها بسعادة هذا المجهول.

أفاقت مريم على حديثه، عادت تملأ وجهها من منظره الجاني... تلوح على أساريره ملامح شكيمة وقوة وجلد شديدين.

الذي يكلل جبيننا بالعار حقاً أن هذا يتم في وقت أصبحت فيه إسرائيل بعقر دارنا، تحتل مناطق واسعة من الأراضي السورية والمصرية. مستكاملة سيطرتها على فلسطين باحتلالها الضفة الغربية، مهددة بصلافة جنوب لبنان، المشكل عدم وجود كيان سياسي قادر على أن يوجه المقاومة الشعبية إلى مسارها الصحيح... خيم الصمت لفترة وتوقف مصطفى عن الحديث: في رأيي أنه منذ ثورة أكتوبر وحتى هزيمة 67 فإن مرحلة كاملة قد انقضت بهذه المنطقة، وقد توجهت بإلحاق عار الهزيمة بالبرجوازية، وبعار العجز والفشل الذريع بالحركة الثورية، أين كان الشيوعيون في الوقت الذي تعد فيه المنظمات الصهيونية بأوروبا وأمريكا حقائب الرحيل إلى فلسطين؟ أين كانوا إبان الحرب العالمية الثانية وحرب 48، حيث اليهود يلقون بالآلاف في معسكرات الاعتقال النازية وأفران الحرق الجماعية، ومناجم بيجن يدور بالعالم دورة واسعة كي يصل

إلى حدود نهر الأردن، يعبرها ليلاً بعد أن هرب من الاعتقال، وفرق الهاجانا والأرجوان تخلق عبر الحديد والنار دولة إسرائيل ملحقة الهزيمة بسبعة جيوش عربية؟ أين كانوا إبان صعود البرجوازيات القومية وسيادتها على المنطقة؟ كانوا يشدون عقولهم بحثاً عن تحليل لهذه الظاهرة الأعجوبة، وانتهى البعض إلى الحل والانخراط في الأنظمة القومية الحاكمة، أو جبهة ذيلية، أو بتقديم الصراع الأممي على الصراع القومي، كما حدث في الجزائر، في الوقت ذاته كان الكيان الإسرائيلي يعد العدة لإيقاع الهزيمة بهذه البرجوازيات، هذا الذي تم بعد ثلاث سنوات فقط من حل الحزب الشيوعي المصري... أين هذا من فيتنام وكوبا والصين الذين حققوا انتصارات تاريخية مبهرة بقيادة أحزابها، ألسنا مدعووين لسلوك أكثر مدعاة للتواضع وأكثر واقعية لإفساح مجال لدعوة للفهم كي يعمل العقل فعله... لا... على العكس، لقد حمل الجيل القديم كل أوزاره وأمراضه ليروض ويسيطر بها على الجيل الذي خرج رافضاً الهزيمة والذي اتسم في بعض الأقطار بكونه لم يخرج من معطف الحركة القديمة، التشرذم والانقسام والاعتياب والاستعاضة عن التوجه بخوض المعركة الوطنية الديمقراطية، بالمعارك الداخلية والجانبية الطاحنة وإنهاك النفس والذات.

قاطعته حسين متجهماً: هلى أنت بتشيع مرثية للحركة الشيوعية العربية...

حذق به مصطفى ثم استطرد: ما أملك هذا الحق، لا أحد يملكه، هذا تاريخ أنت تجعلني أقف في صف من يدمر أو يقوم بالتخريب... إنني فقط أحدد ما أرى أنه تاريخ العجز، وظيفي أن عمق الأزمة لا بد وأن يدعونا أن نبحث في شروط حلها.

تساءل أبو موفق في تجهم مماثل:

- وشو تظن في رأيك هذه الشروط؟

هذا الجيل الشاب للحركة الثورية من كل القوى وكل الفصائل والعناصر الثورية، وكل من لم يتلوث بعد ببدء الانتهازية العميق، ومرض الأيديولوجيا الذي يؤدي إلى الجنون، والذي يحل الصراع الإيديولوجي بديلاً للصراع السياسي والاقتصادي، على كل هؤلاء أن تتحد أيادهم معاً، وتقبض في قوة على راية الكفاح الهزيلة؛ كي تنقلها من صحراء البرجوازية الصغيرة القاحلة إلى قلب الطبقة العاملة وفقراء الفلاحين، الأرض الخصبة لكل من النظرية والتنظيم، هناك سيلقى بكل الأمراض الوقحة لتنظيمات البرجوازية الصغيرة، لتحل محلها بروليتاريا أصيلة تقضي- بسماحة كافية لأن يضم كل رفيق بساعده للآخر... سماحة مسيحية لا تحل محل قانون الوحدة والصراع... كي يتم تفادي واقع يتم فيه سحق آلاف عناصر الثورية تحت أقدام التشرذم والانتهازية، وألا يصير القتل العمد بديلاً عن الوحدة، هو الخروج الحقيقي عن حقوق الجماهير... كيف نلتمس سبيلاً وسط هذا

الجنون، لقد استطاع الرفاق العراقيون درء داء التشرذم والانقسامية حتى هذه اللحظة عبر كفاح ضارٍ، عشرات الألوف من شهداء الطبقة العاملة العراقية هم الذين درؤوا هذه الخطر، الرفيق هذا الذي عمد كفاح حزبه ببيع الطعام الفقير للعمال على أبواب المصانع، في الأحياء الشعبية الفقيرة... ربما يتعين على هذا الجيل الشاب أن يشرع في وضع برنامج الحد الأدنى لنضاله، ملقيا إلى الخلف كل دعاوى الوصم والطعن والحروب الداخلية للحركة، أن يشرع في بناء مؤسساته الشعبية المستقلة التي دونها لا تصبح للثورة إمكانية موضوعية... وإلا فالويل لنا ففي ظل الوجود الصهيوني، وفي ظل المتغيرات الدولية القادمة ستحمل العشرين سنة القادمة لنا خرابا وشرًا مستطيرًا.

قال حسين: هل حملتك الغربية بكل هذه المرارة؟

أجاب: المشكل أن الحركة الاشتراكية هي القوة الوحيدة القادرة على إلحاق الهزيمة بالصهيونية والإمبريالية العالمية... الوحيدة القادرة على إنجاز حلول جذرية وواقعية لمشكلة الفقر والانهيار الاقتصادي والاجتماعي... السؤال هل حملنا مسؤولية هذا الشرف كما تمليه علينا مصائر شعوبنا... وطبقاتنا المقهورة؟ أم أن الشرف كلمة أسقطناها بعملية من قاموسنا اللغوي؟

صاحت به بدوية: إيه شو بك يا أخي؟

- ما في شيء... بتأذونا لي؟

- سرحل جميعًا؟

بينما وقف حسين، تنحى الثلاثة مريم وبدا ومصطفى
جانبا، قالت بدا: ستلتقون...

أجاب مصطفى: إيه... سنلتقي...

- اتفقوا إذن

قالت مريم: بأي وقت؟

- اللي بدك إياه.

- الاثنين القادم... نعم

- نعم... وين؟

صمتت... استطرد: ساحة العباسيين... أي ساعة

تناسبك؟

- الخامسة.

- موافق. ترحلي الآن؟

- نعم... مع بدا وحسين.

- مع السلامة.

- إلى اللقاء.

* * * *

الفصل السابع عشر

بلغ المكان المحدد قبل ميعاد اللقاء بثلاث ساعة تقريبًا، جلس ينتظرها وروح الألفة تشيع داخله، ومشاعر الحب التي اقتلعتها الغربة وعقلانية التجربة، وكان منذ فراقهما قد خمن حولها آلاف الأشياء إلا أن يبقى على حبه لها، رغم ذلك كان في شوق لرؤيتها.

كان قد مضى- على الخامسة خمس دقائق عندما لمحت عربته البيجو البيضاء من طراز 504 في الجانب الأيسر- من الساحة... في مرآة عاكس السيارة لمحها قادمة تسير الهويني منخفضة الرأس، عارية الأكتاف والساعد، تميل برأسها جانبًا، وشعرها الذهبي ينسدل طويلًا مجنحًا حول كتفيها، وعلى صدرها كانت تضم حقيبتها.

عندما قاربت السيارة فتح فمه دهشة، أشعل المحرك، فتحت مقبض الباب، جلست بجانبه على المقعد الأمامي

للسيارة، نظر إليها في ودّ ويدها على مقود السيارة، أضاء ضوء التحذير الأيسر، عدلت جلستها على المقعد، ترتب ذيل فستانها المائج بالخضرة، التفتت وتلاقت عيونهم، اهتز فكها بعصبية، ومن عينها انطلق هذا الضوء الخاص بها، ضوء يقارب البرق، وكأنها سوف تنشب أسنانها فيه، عاد بوجهه إلى الطريق، وهو على شفا الارتعاد، تخفت من حالتها النفسية... نظرت إلى الطريق وقالت:

- إيش لونك مصطفى؟

- يا هلا مريم... إيش لونك؟

ألقت بحقيبتها إلى الخلف واستطردت: إيش لون الماما؟

متوسطة... ما في حدا حالته عال.

* * * *

ازدحمت الطريق الرئيسية التي تربط بيروت بدمشق على مدخل العاصمة بعشرات السيارات، فانصب اهتمامه على القيادة حتى خلا الطريق أمامه... ضحك... تحرك بالسيارة باتجاه طريق بيروت... كان يقود باقتدار... سألته: ليش بتضحك؟

- بعدك كيف ما أنت... ما تغير فيك شيء... جميلة مثل أميرة...

قالت بعرفان: أنت كلك ذوق.

- أديش حلوها الفستان.

ردت بطلاقة وقد رحلت عنها مشاعر الاضطراب ليحل
ود وألفة وصفاء:

- من بكير وأنا عم بفكر... إيش يا ربي البس ها اليوم...
فستان ولا كثره، بنطال ولا جوب... ما بعرف... الحيرة
تملكتني... آجت الظهيرة وأنا عم بغير في تياي، أنا ما حدث
لي هيك مع أي إنسان، ما كنت أهتم إيش البس، البارحة ما
عرفت أنام، غيرت ثلاث فساتين وبنطلونات وأختي عم
تبخلق في، جمعت شعري وعدت أطلقتته، سووته ديل
حصان، وبابا عم ينظر إليّ بدهشة حتى أن قال... كفي يا
بنتي، بعدك نازلة ع الشام من شان تزوري حدا، ولا من شأن
تصادي رجال...

انهمرت عليها شلالات السعادة، ضحكت مثل طفلة
مثلما لم تضحك منذ أعوام، وهي تحدق بالطريق، تقوس
ظهرها منحنية إلى الأمام، تضع ساقاً على ساق، تستند
بذقنها على يدها للحظة لا تحيد بناظريها عن الطريق،
وكأنها تحدث نفسها بصوت متواطي، تشير بحركتها إلى
أسفل جذعها جهة الظهر...

استطردت: أصل الفستان ظهره عاري، وما برتدي
سوتيان... تركت شعري مفروداً من شان ما يطير الهواء
حرملة الظهر...

همس في سره وهو يحدق بالفستان بطرف عينه... يخرب
بيتك مريم... هلى بلشنا... سمانة ساقها... كفلها... يا الله
شو... بتنحرق... بعدها قوية مثل الحصان.

كان الفستان ينساب من تحت الإبط واسعاً وقد تجمع في
كشكشة حول عنقها تاركاً شقاً ينساب طويلاً من الأمام حتى
أسفل الصدر، ومن الخلف تددت حرملة معلقة من الأكتاف
باستدارة حتى منتصف الظهر... قال متداركا مشاعره: إيه
أحكي مريم، إيش لون سويت بهاي السنين؟

تقلص جذعها منحنيا إلى الأمام، عادت للخلف، تحرك
بؤبؤ عينيها في قلق، وانسابت مع صوتها رنة حزن عميقة:

- إيه... أنا ما بعرف أشتكي... وما بدري إيش لون يشتكي
الناس، ولكن إذا بستطيع البكاء بيمنك يمتلى نهر أو ينطفي
جوفي.

صار لك تجربة ببلاد النفط، الغربية بتصهرك، بتخليك
ناضجة... أنت اشتغلت... موهيك؟

- نعم وياريت... ولم تكمل...

- هاي اللي أقصده... أنا أدري... هاي بلاد النفط، وهون
بلاد القحط... هون صحراء بالمادة، هونيك صحراء
بالنفوس، الحياة بتصير عذاب مو بعده عذاب، وبده الإنسان
ينضج، بده يفقد رومانسيته وأحلامه، حتى قيمه، أحياناً

يفقد إنسانيته من شان يكون نمر وسط ضباع ما تنهش إلا
بالظلام وباللحم الجيفة...

سألته بسعادة: حصلت الماجستير مصطفى؟

- إيه... امتياز.

- شو كان البحث؟

- أساليب التنمية في العالم الثالث.

- هلى بتحضر دكتوراه، بدا خبرتي... مو هيك؟

- نعم.

خيم الصمت لفترة حتى تنبعت أن السيارة قطعت شوطاً
طويلاً، تساءلت:

- وين نروح؟

- بتركيني أسويها اليوم؟

- بدي أرجع بالساعة الثامنة.

- وهلى هي الثانية... إذن بتسوي.

- وإذن وين رايعين؟

- بلودان... آيه... بلى...

- بلودان. آيه... بلى...

إذن بصره خيو... قالها دون أن يدري... وبحكم العادة مد كل منهم كفه يطرق كف الآخر... وحدث ما لم يتوقعاه، كان ساعده مستقيما بجوار كفها، انثنت بجزعا وتقاطع الكفان متعامدين، شدت على كفه بقوة، استجاب لها... لحظات طويلة وكل منهما يضغط على كف الآخر بقوة لا يريد أن يتركه... منذ هذه اللحظة انبعث لهيب الشوق، هذا الذي بدا وكأنه سوف يقهر كل تحفظ بينهما... صمت آخر قطعه، وهي تمسك وجهها بكفيها الاثنتين بقوة، وقد اتسعت حدقتا عينيها بضباب التعب والإرهاق:

- بس بالله شو أنا تعبت كثير... شو اتعذبت... بتعرف أنا لحد هلى ما في حدا من الرجال اللي عرفتهم... واستدركت قائلة... بقصد اللي تعاملت أنا وياهم بالعمل (أثار قلقه الفارق بين لفظي عرفتهم وتعاملت وياهم بالعمل) وهيك مناسبات، ما في حدا يعوضك عندي، ثلاث سنين وأنا بانتظر فيك، ما بعرف كيف أتصل بيك بعد أن سافرت، حتى خفت أصير عانس، صارت أمي تأخذني، تزور في عائلات من شان يتقدم لي عريس، إيه بلى... بعرف إني مخطئة بحقك، لكن كل الظروف يا حبيبي وقفت ضدنا، أنت ما غبت عني لحظة، ساعات أتوه أتذكر أسعد أيام حياتي اللي قضيناها معاً... بتعرف إيش مشكلتي؟ مشكلتي إنك أول إنسان تعرفت عليه في حياتي... من بعدك دورت وما لقيت مثلك، صرت تايهة، كل شيء بيدور حولي، وأنا ما بدري كيف... ليش

الحياة معك بيظل إليها طعم خاص، وليس أنت بتظل بصماتك عليّ لحد ما اموت...

حديق إلى الأمام، مع كل كلمة تتفوه بها تتدفق أمواج الدهشة، تلك التي صارت مغموسة فيما بعد بالمرارة، لم يكن يتوقع هذا السيل الجارف من العواطف، لا حجمها، ولا المباشرة التي خالها تشن بها هجوما عليه، فكر تريد الطلاق، وتريد أن تتأكد من أنها ستلتحق بمعية آخر، ومن فورها، لم لا؟ لم أعد الطالب السابق، وصرت أملك ما يؤهل لها حياة مادية معقولة، لماذا تردد بهذه السهولة ألفاظاً مثل حبيبي وحياتي؟ هل تعودت التفوه بهذه العبارات مع آخرين أم أنها صادقة.

زاد من نيران قلقه، اللهب الذي كانت تشعله بأناملها تنساب سريعة متلاحقة على كفه تتلوى فوقها قطة بأوان الخصاب، وكفها الأخرى على ركبته تفعل الشيء ذاته... تراوح ذهنه محدثاً، وكأن الأمرينم عن حنكة بالغة لامرأة غانية أو خروج عن الوعي... لو كانت متحفظة قليلاً...

تمنت لو يصدقها... قالت في انفعال: أنا... أنا ما كنت بعرف أن هذا اللي بيحصل اليوم بده يحصل... كنت أظن إن بدنا نتقابل... وبدي أعتذر لك... إيه أنا بعرف أنك تعتبرني جبانة وقذرة وسافلة وقليلة أصل... لكن أنا مو كان ذنبي... بتذكر يوم اللي سألتك... إذا كل شاب بيريد يتزوج بنت حلوه إيش لون تتزوج البنات الوحشين؟ أنا بعرف أنت ما تحب

المرأة إلا أن تكون جميلة... تذكر إيش قلت... إيه أنا
أذكرك... قلت الحلوين يتجوزوا الحلوين والوحشين
يتجوزوا الوحشين... وأنا في هاي الأيام كنت مريضة... أجي
الدكتور وقال بدنا أشعة، صار يسوي أشعة مرة أبيض وأسود
ومرة ملونة... كان... كان يشتهه بسرطان...

كان الاضطراب قد بلغ بها مبلغا عظيما، وصارت تتلوى
على المقعد، وقد تخرج صوتها بحمى الاضطراب، فصارت
تنترعه بصعوبة من جوفها، وقد بلغت ما أعتقده أكذوبة،
لقد فسر- دائما تراجعها بكونه ناجما عن الصراع الدائر داخلها
بين حياة مضطربة تقطعها والسجون معه، والرغبة في حياة
سوية تعيشها بأمان مع شخص يمتلك ما يستطيع
إشباعها... هكذا قدر الأمر... استطردت وهي تنترع الكلمات
الأخيرة بجهد بليغ: بلى كان يشتهه بسرطان، وما كنت
بحملك هاي المريضة، وما كنت أقبل إني أخبرك لأني كنت
واثقة أن حبك إلي يتحول لشفقة.

قبل بلودان بقليل صف السيارة بطريق خال تحفه
الأشجار على جانبيه، وهي بجانبه تحكي قصتها بعصبية
بالغة، تقفز يمنة ويسارا، مرة تصير على مقعدها، وأخرى
ترتكن بظهرها إلى الباب، وفي لحظة تلقي برأسها إلى تابلوه
السيارة، تستند عليه، ثم تستعيد جلستها ثانية لتسقط في
المقعد تخلص شعرها من الاشتباك بحافته.

اختنقت الكلمات بحلقها، بحثت بعصبية عن علبة سجائرها الأجنبية، أشعلت سيجارة ويدها ترتعش من الجهد الجهد الذي تبذله كي تفضي- إليه باعتذار مقنع يخفي حقيقة جرحهم.

لم يقتنع، حتى ولو كانت صادقة فإن شكاً بسرطان لا يسمح لها بأن تعرض حياتهم للدمار بشكل قدرتي، أخذه بها تيار جارف بالحنان، لم يكن ليتركها تعاني المزيد، يكفيه اعتذار كهذا، سوف يوضح لها فيما بعد رأيه الكامل والصريح، أما الآن فكفى... ربت على ساعدها العاري الملقى على مسند المقعد يهدئ من روعها، فكأنه أشاع بها برداً وسلاماً، مدت كفها تخطف كفه، ترفعها إلى شفيتها تلمسها بنهم بشفتين مخضبتين بالرضاب، تؤكد طلب المغفرة.

فكر... فماذا تستطيع أن تقرر... غجرية بشعرها الغجري، جعلته بمهارة ليصير منفوشاً وقدمته ملكاً للريح... لفترة طويلة ردد داخله دون وعي بغير مناسبة بالإنجليزية **whores**.

مد يده على حافة مقعدها، وفكره يموج بالآلاف الأفكار، أفاق ليجد باطن ساعدها وقد أناخته على امتداد ساعده الذي أصبح سجين نارها... التهاب ظهر كفه، كانت أنامله بالقرب من إبطها، فراح يعبث به، ويدها اليمنى اندفعت في حركة لا إرادية تبحث عن مكان عارٍ من صدره، لم تجد، تراجعت مهزومة، ربتت على مقدمة فخذه، عادت تعبث

بشعره، تفرك أذنه اليمى... عنقه... تتحسس وجهه بلهفة عاتية؛ أم تفحص ابنها العائد من الحرب... مال بوجهة، يلثم كل قطعة في باطن كفها، يشممها كالعطر، تتلوى حول فمه في طراوة الفراء، تتحسسه كالأعمى الضيرير.

ردد لنفسه... لست أحبها، مضى- زمن بعيد، ولي معها حساب عسير... لن أقبل أن تعبر المطهر بكذبة صغيرة، بلطف حرر ساعده من تحت إبطها، مد ذراعيه، جذبها إلى أحضانها، اندفعت إليه بلهفة، وثغرها مفتوح، التهم كل منهما شفاه الآخر، تتأوه من قوة العناق، تذكر ظهرها العاري، مد كفه أسفل الحرملة إلى ظهرها العاري... مسده برفق... كان لدينا ناعما نادر الحدوث، شيء كالسحر... لاطفها صامتاً وهي تهتف به... أحبك... أحبك... أنا وأنت لبعضنا، وما في حدا في العالم بيفرق بيناتنا، وفي العناق الرابع هتفت: أرجوك... أرجوك، جسدي لا يتحمل، تركها فعادت تستند بظهرها للباب تسوي من ملابسها وشعرها... سألها أن يغادرا السيارة إلى الطريق المضاء بالنجوم...

ساعتان معه جعلها منها امرأة مجنونة، امرأة يلهب ظهرها سياط سنين من حياة العجز التي أمضتها مع زياد... أسعدها تدفق مشاعرها واستعادة رعشاتها البكر، الرغبة في العناق، الذوبان بين ذراعي رجل، النوم في أحضانها، جوي، هوي، انفعالات تطمئننها بأنها بعد أنى طبيعية، امرأة ليست باردة

كما يحلو لزوجها أن يوهمها مخفياً عجزه... امرأة سوية،
امرأة مشتعلة، تملك أحاسيس الحب...

خرجنا من السيارة ليتلقينا بالمؤخرة، تعلقت بساعده
سعيدة، تسحق نهدتها عليه، سارا ملتصقين والوادي يمتد
أسفلهم، وأمامهم امتدت بلودان تعتلي الجبل، جلس على
السور الحجري، وقبالته وقفت... لف ساعديه حول
خصرها، جذبها برفق، فانصاعت له تستند بساعديها حول
كتفه... كنا بالأعلى من درجات السعادة، وكانت تستعيد
زمننا فقدته بعد سنوات من الجفاف، ولم يكن ليهتم بالتيقن
من مشاعره تنحوها... كان سعيدا بها وبسيل التمازج الذي
جمع بينهما، وفيض التدفق الحسي، يغوصان فيه بلا
توقف، كان قد عودها جمالاً في تناولها، وهامها يستعيدان
حرية التعبير في العاطفة وارتباط الجسد، حرية في مواجهة
المكان، وحيثما يكون هناك بشر- يصفو العالم عن سماء
مرصعة بالنجوم وضوء شاحب...

كان وجهه في مستوى نهدتها، لمحتة ينظر نحوهم،
جنت ثانية، جذبته إليهما بجنون، تسحقهم على رأسه...
حلم يتحقق في غفوة من الزمن... ظهرها العاري ينساب بين
كفيه قارباً يسبح بنعومة على صفحة البحر، ينشب أظافره
على سطحه برقة ويرحل إلى كفلها تاركاً اهتزازات الموج...
تأوهت... خفف الضغط عنها... تراجع بجزعها للخلف
قليلاً، لهثت بحثاً عن عيونه، مبقية على نصفها الأسفل

يحتضنه بين ساعديه... رفع رأسه ينشد عينيها، لمح بهم
حزمة الضوء النارية، وعبير البرق، وذقنها يسطك من
الانفعال، أمامه انفرج شق الفستان الأمامي قليلاً عن نهدها
الأسير، يتحداه عاريًا كاشفًا عن نفسه... لمحت إلى أين
ترحل عيناه، توقفت تحديق به في انتباه، تنتظر ماذا سيفعل،
جذبها برفق وحرص شديد، وهي تستسلم له، هبط بشفتيه
على النهد العاري يلثمه كصنم مقدس... عاد برأسه للوراء
يرفع عينيه نحوها... التقى ناظريهما... كانت عيونها تقول
له... خذه... تناوله ثانية ... إنه لك... فأعاد الكرة بشغف...

* * * *

جذبه إليها على نحو متسارع جموحها تجاهه، وبدلاً من
أن يعترف بأن حبه القديم قد بعث من الماضي، تحدث معها
بلغة أخرى، في ثاني لقاء لهما بنفس المكان حدثها قائلاً:
اليوم ما يبصير كيف أمس... إيش لون تسوي العواطف
بحياتنا... ما تسوي كل شيء. ومن شان هيك بثقل
الرومانسية بقراراتنا، بعد خمس سنين بحياتي صار للحب
عندي مفهوم آخر، أنا ما استطيع أن أقول بحبك، طوال
هاي السنين اللي مضت أنت ما كنت موجودة بحياتي...
سألتها عبارته هذه التي كثيراً ما ردها، سألتها حتى بدأت
تلوم نفسها على الليالي التي قضت مضاجعها تسترجع
ذكراه... وإذا بيكون قوي، ليشب يتكلم هيك؟ ليش
يصفعي؟

اليوم بالعالم يعيش الشاب مع الفتاة حياة كاملة لسنين...
أكل وشرب ونوم وبعدها يقول لها: فقط أنا معجب بك...
سنين تمضي- قبل ما يعرف كل واحد عن الآخر خصوصياته
معرفة عميقة، ساعتها يقول بحبك، و فقط يصبح للزواج
معنى، ورباط للحياة بنفس قوة الحب وعمقه، هيك بشوف
الحب... وما تنتظري مني كلمة الحب بالبداية... هذا صعب
كثير علي...

ردت مستفسرة: بتعرف بنات كثير؟

أجاب بثقة عمياء: نعم.

ابتلعت غصة في حلقها: إلك قصص مع البنات اللي
بتحملهم وياك بالسيارة، أحكي لي إياها.

اضطرب... كانت بشكل لا تقصده تقتص من حديثه
السابق، أجابها مبرراً موقفه: لي حاجات يجب أن تلي، فإن
لم أعر على حب يشبعني فلن أمتع نفسي- بنفسي-، وحتى
أجد الفتاة التي أحبها، سأذرع الطريق بحثاً عن متعة سريعة
تكتنفها الغربة.

- كنت أظنك لا تخطيء... تعرف هذا... عادة أتقبل أن
أبي... أمي... واحداً من إخوتي يخطيء... كلهم يخطئون... أما
أنت فلم أكن أشك لحظة في أنك قابل لأن تخطيء... تماماً
كآله... تعرف... هذا يخفف عني.

استاء أن تحمله أكثر مما هو عليه، أجاب مدافعاً: من
المُضار... أنا ما بدنس شرف فتاة بكذبة، ولا أنوي أن أفعل...

استطردت: الرجل النظيف لا يتشمم أذيال النساء...

ودَّ أن يصرخ بها... لا تنسي- أنك زوجة رجل لا تحببته...
زوج يبعد عنك الآن بألفي كيلومتر، وبعدهك تجالسي- آخر...
لكنه خاف... خاف أن يترك بها جرحاً لا يندمل... قال
مستعيضاً عن ذلك:

- لا تنسي أنك السبب.

- ما تعبت وحدك... أنا الأخرى عظامي تنسحق...

ران صمت طويل... نظر إلى كوب العصير الذي تناولته،
كانت كعادتها قد تناولت منه رشفتين لا تستكملة قط...
قطعت أفكاره صوتها تسأله: بتظل تعمل هيك أشياء؟

أجاب بحنق: سأقطع كل علاقتي بهم... همس لنفسه:
أليس هذا اعترافاً بحب؟

قالت وعلى وجهها علامات العنف والتوعد: لو اكتشفت
أنه لك علاقة بواحدة أخرى، ستجد الرجال على مخدعي
طوابير... واستطردت تؤكد... والباقي على لائحة الانتظار
وبالحجز.

ألقي برأسه مختنقاً... عن أي شيء تتحدث هذه
المأفونة؟ ألا تستطيع أن تعقل الأمور؟ لم يتحدثا عن
ارتباط مشترك أو زواج، وهي لم تذكر له أنها سوف تنفصل

عن زوجها، لم تسمع منه بعد تعبيرًا عن الحب، هل تريد علاقة ثلاثية زوجًا وزوجة وعشيقة، أيعطي مظهرها انطباعًا بهذا؟

في طريقة الكازينو وعشرات العيون تتابعها، بعث هذا لديه شعور بالاستياء، كانت ساخنة، ترتدي ثوبًا حريميًا من لون الموف المضلع، ينساب لأسفل ناعمًا وقد ضمته في الوسط بحزام من نوع القماش، ديكولتيه واسع يكشف عن العنق، وجزء كبير من الكتف، ونهر الصدر، يترك ساعدها عاريًا... لم تكن ترتدي أسفله سوى أصغر قطعتين من ملابسها الداخلية، شعرها الطويل الذي جعدته كان يؤكد انطباعًا بكونها امرأة شبيقة ماجنة.

سألها مبتسمًا وهي تسير بجانبه في خلعة:

- لماذا يحدق بنا الجالسون؟

هزت جزعها في دلال... عقب قائلاً: بالطبع لست أنا السبب...

على مائدة الغذاء تساءل متعجبًا: تريدي نعيد ترتيب علاقتنا... بتحدث عن الزواج، لا الحب.

صاحت بفرح طفولي وعلى معالم وجهها بريق الأشواق:

- بنفع إلك عروس؟

- الأمر يعود لك.

قالت بطريقة جعلته يطرق رأسه مندهشًا: بس هذا
صعب كثير...

فكر... لم لا تكون هذه المرأة مستقيمة؟ الأعيب
نسائية؟!... قال حانقًا: لكن مو مستحيل؟

قالت بلهفة: بتعرف أنا أتمنى بصير لي ابن مثلك.

فقاطعها قائلاً: بريد إجابة.

- إحنا هلي بنتقابل تاني.

أجاب بدهشة: مو بقدر أفهمك... أدار وجهه غاضبًا...
قالت بعد صمت: يا حبيبي، أنا كل ما أنظر بوجه ماما وإخوتي
أتساءل كيف أطرح عليهم الأمر؟

أدار رأسه ساخطًا: ليش بتقولي هاي الأشياء العقيمة...
ليش بتصرفي هيك؟

قالت بخوف: بلي... بنشوف كيف نسويها...

- اتركيني أسويها.

كان مستعدًا أن يطرق بيت أبيها ويأخذها عنوة ولو اضطر
لمقاتلة زوجها في سبيل ذلك...

قاطعته: لا... أنا...

قاطعها هو الآخر: إيه... خرينا هلي نتقابل قبل ما نأخذ
هيك قرار.

بالسيارة وفي وسط دمشق، عرجت تشتري بعض حاجياتها قبل عودتها إلى التل، كان ذهنه مشغولاً بشدة وضيق، ويحاول تفسير ما تريده حقاً، فكر أنها بحاجة إلى الضرب... هتف دون وعي:

- بعدك مایعة... ولما نتحين الفرصة أنا بربيك.

- بتقول إيه؟

- ما في شيء.

لم تكن متأكدة مما قال، وكانت تريد أن تعرف هذا الخاطر غير الواعي، أصرت أن تعرف: لا. لازم تقول...

- ما في شيء.

قالت في غنج وصوتها يقطر شبقاً:

- لا يا حبيبي... والنبي لازم تقول...

قال بعد فترة صمت: بتعرفي أنت هيك... ومد صفحة كفه بأفقية، حركها متموجة مستطرداً: ... كيف الموج... زيد البحر... بتعرفي إن فينوس صنعها زيوس من زبد البحر أو الزبد، وأنت هيك كيف فينوس...

ضحكت منتشية، لم يخف عليها قط المعنى الأصلي لكلماته... هذا الشيء الذي كرره لها كثيراً وأساء لها حتى البكاء، بعدها أخذت رغبتها الجامحة به تخبو، صارت أقل

خلاعة وأكثر تزمنا، أصابته سعادة تعيسة، كان يعشق فيها
غنجا يملكه وحده، بلغا شارع الصالحية عائدين، وبالشارع
الرئيسي- بدمشق المضاء بواجهات أفخر محلات الملابس،
والأحذية ومكاتب السياحة، ودور السينما واللهو، وقف
مصطفى بسيارته على جانب الطريق، كانت قد تأخرت،
أرادت أن تشتري أشياءها في عجلة، نزلت وحيدة لكنه تابعها
بإصرار قائلاً: سآتي معك.

قالت ضاحكة: لو رأونا بيقتلوني...

تعلقت بساعده جذلة، وهما يخترقان زحام المشتريين
على الأرصفة، شعرت بانثشاء يسري في جسديهما معاً، لكنها
لم تلبث بعد فترة أن سحبت ساعدها من تحت إبطه، تقول
بابتسامة:

- ما يريد تكون طعنة الخنجر في الظهر... بالأقل بريدها
من الأمام.

كانت تريد محلاً بعينه ولكنهما تابعا الواجهات على
عجل، مدت أناملها تتشابك بأنامله، تعلقت بهم ثم جذبت
نفسها إليه بقوة فارتطم الجسدان شعر بكتفها، ونهدها
اللدن في صدره، وكفها يجذبه فتوهج الاثنان بمشاعر
حارقة، جف حلقها، أمام المحل الذي تريده قالت على
عجل: يا حبيبي، عندي فستان بنفسجي، بدي أشترى من
شأنه حذاء وحقيبة، حدد اختيارك في ها اللون، وبسرعة لأنه
ما في وقت... هيا بتختار اللي بذوقك يا حياتي...

نظر في الواجهة، كان بها حذاءان بلون البنفسج، أحدهما تخفي مقدمته أصابع القدم، والآخر مكون من سيور رقيقة تتجمع في وردة بالمنتصف، يكشف عن القدم، أشار إليه لها ولحقيبة أنيقة ناعمة، دخلت بسرعة، كان المحل يعج بنساء من نوع فاخر، تتطلع إليهما، وهي تدل البائع على ما تريد، نادته من مكانه مفسحة له مكاناً على المقعد الجلدي الطويل، فجلس ملتصقاً بها تجرب مقاس الحذاء، لمحتة ينظر إلى امرأة أمامها، قالت بعذاب وعلى وجهها دلائل عصبية بالغة.

- يا حبيبي، لا تنظر لأي امرأة وأنت معي، أنا أموت هيك.

دفع ثمن الحذاء، وذهنه المشتت يحدثه... قد يساوي قضاء ليلة معها، أو يبقى لها باعثاً للذكريات، ودفعت هي ثمن الحقيبة، وعندما فقدتها نادى عليه الصبي قائلاً: يا أستاذي... المدام بعدها بتدفع ثمن الحقيبة... سرهما أن يظن الصبي أنهما زوجان، ابتسما في تواطؤه...

في طريقهما للسيارة، علقت ساعدها بساعده، تشد عليها بسعادة... افترقا عند مفترق الطريق الذي يؤدي إلى التل، ودعها وهي تركب إحدى سيارات الأجرة، وعاد هو من طريق أخرى.

* * * *

اللقاء الأول تجمعت فيه كل سعادتها، بعد اللقاء الثاني سقطت في صراع عنيف، لا تجد فكاكاً من سيل الأفكار المتشابكة... أكمات غزيرة تفوح بأشهى الثمار، وتعشش فيها الحيات السامة... في ثمارها ترتهن سعادتها، لكن في كل خطوة تخطوها عشرات الجروح، خوف غامر يجذبها بعيداً عن الموت المتربص بها... هكذا ينشب الصراع، حياة محفوفة بالخطر، أو حياة يكتنفها إلى الأبد تعاسة وحسرة وجوع يشتهي هذه الثمار... ولأنها عجزت عن أن تريح ذهنها المضطرب، فإن مصطفى فشل هو الآخر في فهم ما تريد، فكانا جبلين يرتطمان بقوة فتتناثر منهما عشرات الصخور، سحابتين محملتين بشحنات عاصفة تدمر كليهما.

- آه... بلى أخبرني شو بتنوي بمستقبل حياتك...

- من النادر أن ألقى بمناضل وأسرته إلى الأرصفة أو الجوع، حياة التقشف... لا ثريات ولا سجاد وفازات فاخرة... هذا طبيعي... السجن... ضحك... مدد كهذه تجعل للحياة الزوجية معنى، تعيد الشوق، تجدد من رتابة الحياة ومللها، ستكونين مسؤولة عن الأطفال، يجب أن يكون هناك ما يشغلك... أبحاث... دراسات... أعمال حيوية بعيداً عن الأشياء المعتادة... ما بريدك شعري بالسأم أو العداء لاهتماماتي... بدك تعلمي أنني سأمارس السياسة بالحياة العامة... «مط بوزه» وأدار كفه... مكملاً حديثه في تجهم

صارم... وقد أكون الآن أو مستقبلاً عضواً بإحدى المنظمات السرية...

استمر في حديثه يقدم لها بناء محكما يحدد فيه دور كل منهما، ساردا تفصيلات موقفهما المالي، ما ادخره للمدد التي تهدد حياته مستقبلاً... السجن... التشرّد عن العمل... منبها إياها إلى أن هناك دخلها، ومعونات الرفاق، ومشاريعهما الخاصة التي يحتمل نجاحها، ومن ثم أمنهما المادي...

وكانت مريم على يقين وعلى ثقة من أن ما يقوله سوف يفعله... لا اضطراب ولا لحظة وجل، وإن فشل فسوف يركل العالم كله مستريحا إنه ما يعتقد أنه الشرف، ولهذا صمت، لم تتحدث، لم تعقب على حديثه سوى أنه عندما تحدث عن السجن همست:

- أنا هلى بشوفك أكثر...

لم يفهم هذا الخلط الذي يجعلها تلفظ بعبارات مبهمة، مشتتة الفكر، مشوشة التكوين... بقيت صامته وفي ذهنها استحضرّت أقوى سياط العالم، قيده على عمود بساحة تجمهر فيها عدد خفير من المارة، نزعت قميصه بغلّ مكتوم، انهالت عليه بسياطها، والمارة تهلل... بطيئا فعلت في البداية، ثم اندفعت تضربه بعنف وهياج، تحطمت سياطها، ركته، صفعته بكل قوتها، حتى تهالكت، فسقطت وبجهد جهيد نشبت أظافرها في عنقه، تمت لو قتلتة...

... دمرني، جعلني ترسًا بعجلته، أحافظ على الأطفال من أجل سجنه، من أجل قضيتته، أي قضية هي، إحلال حكم محل سلطة أخرى، أي شيء يهمني، ليسحق الجميع... ليس لأحلامي وأمنياتي وجود... لقد نثرتني على ريح معتقداته.

استعادت قوتها، وقد سقط أمامها بالساحة... هل مات؟! ارتفعت موجة سخط في حلقها، رفعت رأسه بلهفة تضمه إلى نهدائها، كان لا يزال حيًا ينظر إليها بحزن وتساؤل عميق، وقد خيمت على وجهه التعاسة... ماذا فعلت لك؟ أنا... أنا لم أبحث عنك... لشوتأتين دومًا وترحلين؟ ليش ما توقفي هذا العبث؟ همست بعينيها:

- مشكلتي أنك أول رجل عرفته.

أجاب بنظرات حزينة: أعرف... قلت هادا من قبل... أريد موقفك...

أمسكت بأقرب مقرعة تلهب ظهره، وقد امتلأ جوفها ببركان صاخب... سقطت على صدره تبكي، وهو يلثم وجهها ويمشط شعرها بأنامله، اختلطت دموعها بدمه... عندما تسلل الفجر من نافذة حجرتها كانت بعدها مستيقظة، تبكي عجزها عن الفكك من دوامات أفكارها السوداء...

* * * *

مد خرطوم المياح الرفيع بين أعمدة الخرسانة، يضع علامات اعتبارية يأخذ منها ارتفاع شدة السقف الخشبية،

تعثر بأرتال الخشب وأسياخ حديد التسليح المتناثرة... منذ أن علم بعودتها تميز بالعصبية... والاستسلام لما سيأتي به المستقبل... قالت له بطريقة أثارت سخطه: أنت ملتزم بقضية، مثلك ما يتزوجون، بدن يلتزموا بواجباتهم السياسية... ولأن العبارة خرجت منها بلا وعي، وسط حوار عن أمور متناثرة شعر بالسخط... لا بد أن أتزوج... لا بد أن يكون لي منزل، ومستقر وأطفال هم أجمل أطفال العالم، معك أو بدونك... كان يقيم عروق الخشب المصلبة بارتفاع جسور السقف تمهيداً لشد باطن الكمرات الخشبي... جذب عرقاً خشبياً بشدة فاخرقت ذوائبه الحادة كفه فسالت دمًا... ألقى بالعرق الخشبي ثائراً... تظننا دمي للمس... تحفًا للمشاهدة! المرة الأخيرة كانت ترتدي كنزة قطنية بلون البنفسج وتنورة تخب على أردافها الريانة فتنسال واسعة بذات اللون وذات الحذاء البنفسجي الذي أهدها إليها وذات الحقيبة التي اشترتها في ذات اليوم... خمسة لقاءات مرت بعد هذا اليوم، وها هي تأتي كل مرة ترتدي طاقما مختلفا من البنفسج، هل تتحمل خزانها مثل هذا العبء... شرد قليلاً... أوجب عليّ أن أهديها حذاء وحقيبة من لون آخر، كي تتحرر من عبء البنفسج!

صعد أعلى السلم يمد ألواح الشدة الخشبية، كان يضرب المسمار بقبضة يده وأصابعه القوية يثبتها في قلب الخشب ثم يتابعه بضربه شاكوش، من أسفل سمع صوتاً نسائياً يناديه من أسفل، صاحت به بدوية:

- مصطفى... مصطفى... تعال هون.

- إيش فيه؟

صاحت بأعلى صوتها وهي تضحك وسط الذين أرشدوها إلى مكانه: قضايا نسائية.

انتابه الغيظ وشعر بالإحراج، كان المعلمون والصبية ينظرون نحوه وعيونهم تمتلئ بابتسامات التواطؤ، فاصطنع عدم سماعها وكرر لها غاضبًا: مو سامعك.

فقالت تتعجله: يا أخي، انزل هون...

- يلا... أنا قادم...

أدار رأسه بالمكان الذي امتلأ بتلال الرمال والطوب والزلط وأطنان الحديد، وبقايا مواد البناء، لمح بآخر المنطقة الممهدة سيارة فولكس واجن من طراز الجولف صفراء اللون، وبجانبتها كانت مريم تقف ترتدي قميصًا من البنفسج الفاتح وبنطالًا ضيقًا طويلًا... قضم شفثيه وقد ازدادت عصبيته... عندما بلغ أسفل البناء كانت قد حلت على وجهه ابتسامة سعيدًا بوجودها، واختفى سخطه...
صاح:

- هون يا باشمهندسة... ما تريدي تشوفي الشدة...

أقبلت مريم ضاحكة، رأته يرتدي بنطالًا من الجينز به رقع، وفانلة بيضاء انحسرت أعلى كتفيه أكمامها القصيرة عن عضلات ساعديه المفتولين...

- إيش لونك مصطفى... بتعمل نجار باطون(14)؟

- مو مليح...

هزت كتفيها بغنج مما أثار غيظه، كانت الأنظار تتجه نحوها... شعر بالزهو وبقيت مشاعره لا تخفي إعجابه بدلالها... قالت:

- كل شيء تفعله مليح.

- بإذنك باغتسل وبغير ثيابي وهلى أجي.

قالت بدا متعجلة: انتظر، أنت مو معك سيارة. نعم...

- إيه اتفقنا... أنا برحل بالفولكس وهلى مريم معك، سلام.

في صباح هذا اليوم تنبهت مريم لصوت سيارة تقف أمام باب منزلهم... سمعت طرقاً على الباب... أطلت ساخطة من نافذتها... لماذا يأتي البعض باكراً هكذا؟ لماذا لا يستخدمون الجرس...

من فرجة من وراء الستارة لمحت سيارة جيب عسكرية عليها شارة قوات سرايا الدفاع، وجنديا يطرق الباب... ظنت أن أباهما سيرحل مبكراً، نزلت لأسفل بسرعة، عندما فتحت

(14) باطون: (خرسانة مسلحة).

الباب الخارجي وهي ترتدي روب النوم، تراجع الجندي لينزل ضابط برتبة رائد ويتوجه إليها... قال في صرامة:

- سيادة العميد شوكت موجود؟

- نعم...

- أخبريه بوجودي إذا بتسمحي.

- تفضل.

دخل من فوره، فداخلها شك... هذه زيارة وليست عربية لنقل أبيها إلى عمله، زيارة غريبة.

- مين نقول له؟

- رائد عبد الله حسين، من قوات سرايا الدفاع...

شعرت بقبضة قوية ترتطم بصدرها، صعدت لأعلى، كاد أبيها أن يسقط من طوله، لاحظت كيف ترتجف ركبتاه، وقد ظهرت على وجهه علامات شيخوخة مبكرة.

ارتدى ملابسه العسكرية على عجل، ونزل ليقابل الرجل، ظلاً منفردين عشر- دقائق، عاد أبيها ثانية لأعلى يتبعه الرائد الشاب، وهو لا يستطيع أن يحمل جسده، كان كل من في المنزل قد استيقظ، ظل الرائد واقفاً على باب حجرته، ولم تمض دقائق حتى خرج من حجرته مرتدياً ملابسه المدنية، كان يتوكأ بصعوبة على ترابزين السلم، وامرأته بجانبه، وقد ارتسمت على وجوههم ملامح الكارثة التي طالما انتظروها

عقب كل انقلاب أو اضطراب سياسي... على الباب وقف الجميع؛ أمها، أخواتها البنات الثلاثة وزوجة أخيها الأكبر، أصغر أشقائها، ثلاثة من أحفاد أبيها الصغار، يشاهدون جدهم، الرجل الرياضي يصعد السيارة الجيب مستعينًا بذراع الجندي، تابعوا السيارة حتى بلغت منعطف الطريق، دخلوا وقد روعتهم الأزمة.

سارعت الأم تطلب من يعينها في هذه اللحظات من أصدقائه ذوي النفوذ، لكن أحدًا لم يجبها، والذين أجابوها تهربوا بمشاغلهم... طفا إلى السطح الخوف الذي وطنته الأيام السابقة... كان الاختناق مثل أنشودة تشد على رقاب الأسرة، والغليان المكبوت غمامة سوداء تحط على حلوقهم جميعًا، لقد رحلت السلطة، وصاروا الآن مثل عامة الشعب، حتى ولو كانوا أثرياء، ولسوف تقترب منهم أزمات التمويل الطاحنة، ولن تستقبلهم المجتمعات بالاحترام والتبجيل والتملق الذي تنفرد به الأسر التي تنتمي للسلطة، ولسوف يصبحون أيضًا أمام القضاء متساوين أمام خصومهم، وهم لن يجدوا طارقًا بالباب يستجديهم خدمة، أو معروفًا لا يملك أداءه سوى ذوي النفوذ والسلطان... لماذا طفا على السطح حديث مصطفى لها عن القناعة؟ لماذا راح يهاجمها شعور عارم بعقدة الذنب والقصاص تجاه زياد؟ لماذا يملؤنا الكبرياء والحماسة عندما نملك؟ والبكاء الممالة والخضوع عندما نصير ضعفاء؟ وما الذي كان يقصده عندما سألها: كيف حالك وزياد؟

ابتسمت قائلة: يا حبيبي، أقولك إيه... هو أديش يعاملني برقة وحنان، وأديش ما يرفض إلي طلب، وأديش يتحملني لما أن أصير كيف النمرة معه، إحنا نادر إن خرجنا مع بعض، هذا ببغاوي، بتدري هو ما بيرضى يخليني ألبس ها الفستان، لكن أنا ألبسه من وراه، هلى صرت أكذب عليه، مرات يجي بالبيت وأكون لسه راجعة من الشارع، هذا معناه أي ما خرجت، وإذا أجي وأنا بعدي بالخارج فهذا لأن المواصلات كلش صعبة وما في تاكسيات.

ساد صمت، وهلة وتحدث بلهجة دفعتها لها أن تصيغ له السمع جيداً: يجب أن تعلمي أن السعادة حلم مستحيل المنال... علام تعتمد السعادة؟ هز له إصبعه مرات متتالية وهو يستطرد على الكيفية التي نستطيع بها أن نشبع رغباتنا... واستطرد في استنكار: ولكن من ذا الذي يستطيع أن يشبع رغباته في هذا العصر الذي يتحكم فيه قانون الاستهلاك... الرغبة تستدعي رغبات، والسلعة تقدم لك على ألف لون وألف شكل، والفساتين صارت للصباح والظهيرة والمساء والسهرة وللعمل وللمنزل وللتجول وللرياضة، وللصيف والخريف والشتاء والربيع... لطاء الأظافر صار عشرين لونا... والسيارة تستلزم فيلا والفيلة تستلزم كابينة على الشاطئ وكابينة الشاطئ تستلزم يختا واليخت يستلزم هيلكوبتر، وهي تحتاج سلاحاً للدفاع عنها، والسلاح يدفع إلى قتل الآخرين من أجل مزيد من إشباع الرغبات، هل تعلمين إلى أي حد صنعت الرأسمالية من

قوانين الاستهلاك قيمًا تتحكم في نفوسنا إلى الحد الذي جعلت من الزوج لدى الزوجة رجلًا يستحق تذوق غيره... والعكس كذلك... فبرغم أن الجميع متشابهون، إلا أنه في عالم الرتبة والضياع قد يعطي التغير دفعة من الإثارة، هل تظنين أن بإمكانك الحصول على رجل سوبر، مطلقًا؟ هذا بالسينما الأمريكية فقط... والذي يكون اليوم مجرد معيد بالجامعة خاليًا من الوسامة والمال سوف يكون بعد عشر سنوات استاذًا جامعيًا تنظر إليه الفتيات صغار السن في لهفة... ومن لا يملك سيارة اليوم، قد يحصل عليها بعد عامين أو ثلاثة... علام يستوجب هذا... ألا يتطلب هذا أن نغذي قلوبنا بالقناعة.

كان مصطفى يريدُها أن تقتنع بما هو عليه فاستمر قائلًا:

- ألا ترغبين في رجل يؤمن لك حياة وبيتًا وأطفالًا...
ورددت في سرها... نعم... وزياد أيضًا يستطيع هذا...

عاد زياد يطل من نوافذ ذهنها ليصير ثالثًا لهما... سقطت في جُبِّ سحيفة من مرض المقارنة بينه وبين مصطفى، تنشد في نفسها القناعة بزياد والرغبة في حبها بمصطفى الذي صفعها فيه، وجاءت إحالة أبيها إلى الاستيداع كي يثبت لها نتيجة لم تشأ الاعتراف بها، وكان الكل قد انشغل في المصيبة التي حلت بهم، واستطاعت أن تخطف ساعة زمان كي تراه، توقع أن تأتي بفستانها البنفسجي وقد فعلت، تحمل الحقيبة وترتدي الحذاء الذي اشتراه لها.

كان ثائرًا لقلّة الوقت الذي تعطيه له، طلب أن تحضر- لمنزله مباشرة، أن تعلن علاقاتها به، دون موارد، وكانت ترى في ذلك المستحيل، قبل أن تتركه عائدة، كان ينحت بأظافره في كفها، أحست بألم على كفها الأيسر- ربتت عليها تهدئ من روعه، تمسحها بكفها الأخرى.

سألها: تعالي معي إلى البيت؟

- صرنا متأخرين... الساعة هلي ثمانية.

- بنتيجي وتظلي معي.

اختلجت كفرخ مذبوح للحظة، ما ميزها عن نساء العالم أنها وبسرعة اللحظة تجاوزت مع حلمه، قالت في نعومة:

- إيه وبتاخدي على فراشك، بنام بحضنك لحد الصباح... واستطردت بلهجة بها شقاوة ونهى:

- وما بستيقظ بالساعة السابعة من شان تخرج أو تروح عملك، واستعادت نعومتها: بدي أنام بحضنك لحد الساعة اتناشر أو بالتنين... قبض على كفها وقد جف حلقه، عصر- كل منهما كف الآخر، وهي تستطرد قائلة: وما بستيقظ من شان حضر- لك فطار، لأني بريد أعود لحضنك ما بتركه... قالت هذا في حزن... وافترقا مقهورين قرب محطة الباص الخاصة بسيارات التل.

عندما عادت في هذه الليلة وبّختها أمها بشدة، أخبرتها أن والد زياد حضر- إلى المنزل ليطمئن على صحة أبيها، وتساءل

إذا كانت أعصابها قد هدأت أم لا؟ ومتى تنوين العودة إلى بنغازي؟ وأخبرتها أيضا أنه جلس مع أبيها طويلا على انفراد، وقد حدثه برغبة زياد في شراء قطعة أرض من تقسيم أراضي البناء بمدينة المعري التي استولى عليها محافظ دمشق لنفسه بأبخس الأسعار وصار يبيعها بمبالغ طائلة، وكانت الأرض تستحق؛ فقد كانت من أجمل المناطق التي يُرغب في السكن بها، وكان خال مريم شريكًا لمحافظ دمشق في هذه العملية المربحة، وقد سأل والد زياد والدها كي يطلب من خاله حجز قطعة أرض لهما مضيئًا أن زياد قد أرسل له شيكًا بمقدم الثمن... انتهت أمها من الحديث وتركها دون تعقيب... صعدت تصفر لحنا إلى غرفتها، أَلقت بملابسها أينما كان... تحاول أن تبقي على أحاسيسها التي تبقت لها من لقاء مصطفى الذي لم يمض عليه قليل... لم تشأ أن تفكر في شيء، واستلقت على الفراش مدغدة الأحاسيس حتى راحت في سبات عميق وفي أحلام نومها معه بلغت الهزة.

كانت الساعة بلغت الواحدة عندما انتهى مصطفى من تناول الغداء، مع العمال قبل أن يعود إلى الطابق الثالث من البناية... أخذ قادومه معه وثبت حقيبته الجلدية حول خصره، أفرغ بها ربح كيلو من المسامير، وصعد وخلفه طاقم النجارين، كان مقاول الباطن هو أخوه، يخرج لمساعدته ويعمل معه منذ ثلاثة أسابيع... مضى- على آخر لقاء معها شهران، سافرت بعدها إلى أخيها بإيطاليا لقضاء بعض صيف

التل الحار بروما، وكانت قد عادت منذ أسبوع ولم يسع إلى لقائها...

عندما ألقى بجسده إلى مقعد القيادة كانت تجلس على المقعد الجانبي وجذعها منش إلى الأمام ورأسها باتجاهه... وفي عينيها حزمة الضوء تنظر باتجاه عينيه تماما... قال:

- إيش لونك مريم... حول عيونك هالات سوداء... مجهدة.

قالت ضاحكة: ما بتعلم... أنا هلى بحب نجار باطون.

واستطردت بإرهاق وهي تحديق إلى الطريق وتفرك يديها:

- ما بنام... اليوم بالصبح بكيت حتى إن أختي سمعت بكائي.

صمت ساهماً... لا يزال يخالجهما الصراع... يجب حسم الأمر وبسرعة، عليه أن يبتعد عنها حتى يمكنها من التراجع والعودة لزوجها... والسيارة تخترق شوارع دمشق قال بجلاء:

- بدي اليوم أعرف قرارك وإذا ما بتستطيعي أنتظر لحد الأسبوع القادم...

رددت في عصبية: لا... اترك إلى عشرة لقاءات...

أجاب بحسم: لا... في الأسبوع القادم... وبيصير آخر لقاء بيناتنا...

- ما بقدر خلاص مو ضروري... اتركني ألتقي أنا وإياك
خمسة لقاءات... خمسة مو كثير. بدي قوة من شان أواجه
بابا وماما وأخواتي.

خمن بإحساس داخلي أن النتيجة لن تكون في صالحه...
سيكون الأسبوع القادم آخر لقاء بينهما... على الأقل سينهي
علاقتهم هذه المرة بيده وليس بيدها... بعد فترة صمت
جاءه صوتها وبه رنة غياب عن الوعي ينسال: هل تحبني؟.

وكان يجب أن يقول نعم... رغم أنها لم تملأه بمشاعر
الحب تمامًا... أجاب بصوت عالٍ كلاهما شعر به مفتعلًا:
نعم... ضرب بقبضته فخذها مؤكدًا افتعاله وعدم صدقه...
تأوهت وأخذت قبضته بين كفيها الاثنتين... استطرد بعد
هنيهة متراجعًا في صوت خافت:

- أريد أن أقول لك: أحبك... لكنني أخشى— أن تنكريني
لثالث مرة...

مدت كلتا يديها بحركة عصبية تمنعه من الاستمرار
رددت:

- لأ... لأ... طيب... لأ... ما تقول...

- بدي ألاقى عندك أرضًا صلبة، أحبتك مرتين وأنكرتني،
أخشى— لو أقولها لثالث مرة أن تنكريني... هه. ضحك في
تعاسة واستطرد قائلاً: كيف ما فعل بولس بمسيحه...
اعذريني... أنا غير قادر... أريد منك موقفًا...

- وليش ما تتفرغ للسياسة... وإذا بتريد تقضي- حاجتك بتلاقي كثير... كانت تعني نساء الطريق... غضب... صاح بها يملؤه السخط والضجر: ليش أنت هيك ليش أتحمل منك هذه الإهانة لثالث مرة... مو حقا تستكثرين عليّ الزواج... أن تصير لي زوجة وأطفال... إيش بدك من علاقتنا؟ نبقى بالشوارع نتبادل العناق والقبلات نستلفت المارة نهرب منهم... بدي استقرار... أستمر في طريقي، لا يعوقني أزمة عاطفية أو احتياج جنسي... ما بتشعرين بهاي أشياء...

قالت كالتائهة: أنا متزوجة.

صدمته عبارتها ودّ لو يقول لها... ولماذا أنت هنا؟ قال بضيق:

- ما بفهمك...

أجابت خائفة: أنا مريضة.

ليش إذن كل هاي المشاعر التي واجهتني بها... حبيبي... حياتي... أنا وأنت لبعضنا، ليش ما تتحكمين في نفسك... ليش تفرطين بألفاظ كهذه.

قالت كالعائبة: أنا قلت هيك؟

نزل عليه سهم من الصمت. قال متصلب الملامح:

- ينتابك التردد؟

أنا مشغولة بين اثنين. زياد بيحبنى وبيعاملني برقة... لو شفته بدك تقول إلي... هذا هو الإنسان المناسب لك.

قاطعها بنظرات نارية: مشغولة بين مَنْ وَمَنْ... أنا لم أطرق بابك... بعد عشرة أيام سرحل إلى البقاع اللبناني وسيكون السبت القادم آخر لقاء لنا... إما أن تعطيني ردًا نهائيًا وإما ما نعود نلتقي ثانية... واستطرد يثار منها:

- هل ظننت أنني عاجز عن الارتباط بأخرى...

- وإيش بده يمنعك؟

- أنت.

قالت بلا مبالاة: لا تتوقف...

قال محققا فيها: لا... لن أفعل... لمحت بعينه ابتسامة اتهام موجهة إليها وكأنه يقول... لن أتيح لك فرصة التبرير حتى إذا ما جاء رفضك للمرة الثالثة فسوف تكون مسئوليتك واضحة دون شوائب... أجابت بعاصفة وغضب هائج:

- تظن أنني أتلاعب بك... حتى لو كنت شرموطة... ما بتركك ما بتركك... ترددت أن تكمل عباراتها وعزَّ عليه أن تكمل ليكون المعنى آخر... أكملت وهي تجذب الألفاظ من حلقها جذبًا... ما بتركك من دون ما رد عليك...

وتمنى... وتمنت لو تقول لن أتركك مطلقًا... كان مندهشًا لثورتها المفاجئة، ظل ينظرها وعيناه متسعتان... فلما هدأت قال:

- ليش مريم... ما أخطأت بحقك...

هزت رأسها كالمذبوحة وهي تلهث، قالت بهدوء وأسف:

- تقصد هون بصيح عليك، وأصير مثل الفرخة بالبيت...
بأدري صرت عصبية كثير... تعرف أنت بتظن إني بريدك
تتخلى عن مبادئك من شان تهتم بي... مو صحيح... أنا
بعرف أن رأسك عنيدة، وحتى ما بتصورك من دون مبادئك،
وأظن لو فقدتها يمكن رأيي يتغير فيك...

قضمت شفيتها بأسنانها، وهمست: يمكن ما يعود
بحبك.

وضع كفه على جانب خصرها وضغطه برفق، اضطربت
بالنشوة، سارا متجاورين، وهي متعلقة بذراعه تشده على
نهدها، واجهته وهي ترفع عينيها إليه، يشعان بابتسامة
حزينة مستسلمة، قالت بصوت رخيم:

- بتعطي للسياسة ثلث حياتك وللدراسة الثلث. وبدي
أقتنع بأنه يصير إلي الثلث الأخير، هزت رأسها وقالت: هيك
أفضل من شان ما تلتفت لنساء أخريات... واستدركت، مع
أن بالله لو تدري أنا بستحق أكثر من هيك...

فيما بعد لعن نفسه؛ لأنه لم يقل لها... وإنما تستحقين
حياتي كلها... بعد فترة قالت دون أن تدرك ما تعنيه:

- زياد بده يشترى أرض بالمعري...

- هذا قرارك؟

كان يقصد شيئاً وفهمت شيئاً آخر:

- لا مو قراري، هو أرسل لأبي من شان يشتريها إله...

- بتعبرني أنا تعبت معك. وبدي أقول ألك شيء... لا تكوني
المرأة التي تقف بالباب...

كان كلامه غامضاً، قالت وهي تهوم:

- مو أنت فقط اللي... أنا مشكلي أنك أول راجل قابلته...
قاطعها على غرة ضايقتها:

- إيه... سمعت هذا منك من قبل... بدك تتخذي موقفاً
واضحاً...

صاحت غاضبة: دمك سخيف.

كان من المتوقع أن يلتقيا للمرة الأخيرة، لكن كبرياءه
منعه أن يدعها تراوغه، أو تعطيه موعداً وتتخلف عنه،
ويظل ينتظرها مثلما فعلت من قبل، كان يعلم أنه بلغ النهاية
معها... وها هي للمرة الثالثة تختار بإرادتها الطريق الذي
تمليه عليها مشاعرها، ورغم أن كل ما حذرنا منه وحاول
شرحه لها إبان الجامعة قد عانت به بقسوة في حياتها مع
زوجها، إلا أنها تستسلم له ثانية. الاستعلاء بممارسة الكبت
تجاه رغباتها الحسية ومشاعرها وعواطفها، هذا ما فعلته
السيدة البرجوازية كي تصنع استحكاماتها ضد العالم
المجهول الذي تحلم به مع من تحبه... عالم تسوده عدالة
وحقوق متساوية بين البشر... العالم الاشتراكي الذي لم

يتحقق بعد، ولم تكن تعاني هي من أزمة طاحنة تدفعها للحلم به.

كان عليها أن تخلق قمعا ذاتيا من طراز خاص، كي تعود طائعة إلى علاقاتها الاجتماعية السابقة، ومن ثم أزمتهما الخاصة، وبشكل مدهش كان عليها أن تعادل وسائل الكبت بفقدان جزئي للشعور... وهذا ما عانته في ساقها اليسرى دون أن تدري أسبابه الحقيقية.

* * * *

بعد عشرة أيام استدعي للاحتياط وألحق على الفرقة التاسعة الميكانيكية، بحث عن أمامية اللواء، قيل له تحرك إلى البقاع اللبناني حيث تواردت الأنباء بقصفه لقرى ومواقع القوات المشتركة.

وبعد شهر أمضاه في المستشفى العسكري بدمشق، وقفت بباب حجرته بالصباح الباكر، كان مستلقيا ونصف جذعه مستندا إلى الوسائد يتابع القراءة في أحد الكتب، حدق رفاقه الجنود بالبواب يتطلعون إلى الغانية ذات الشعر العجري التي تقف به، ثوبها البنفسجي المصنوع من الشيفون وشعرها المعلق به وردة البنفسج، وقد تدلت من عنقها سلسلة من الخرزات الخشبية الملونة، نظر كل منهما للآخر طويلا، وعندما ابتسم مدت خطواتها إليه، وذهنه يعمل... المرأة التي تقف بالبواب لا هي تستطيع الدخول ولا هي تستطيع الابتعاد... نظرت إلى ساقه المجبرة: فعلتها!

أنا ما استسلم لهيك شغلات قذرة... لمين بدي أقصف...
أعز الرفاق اللبنانية والفلسطينية.

- وين الجرح...

- بالفخذ وما لمس العظم...

- قوست نفسك...

- رصاصتين ببندقية نصف آلي وقت الخدمة...

- بتسويها.

- وأنت إيش بتسوي؟

اختنق صوتها وذوت عيناها بالسحب... كانتا على وشك
أن تسفح بالدموع واختنق صدره هو الآخر، بالغضب
لضياح حلمه... مدّ يده فجذب كفها... ربت عليها مهدئا...
استراحت وعادت مشاعرها تتدفق... هذا هو مصطفى... أله
دائما...

قال بهدوء وهو يدير رأسه عنها: بترجي بنغازي؟

ولم تستطع الإنكار، هزت رأسها تؤكد بصوت خفيض:
إيه.

- إذن لشو عبثت بي؟ أنا... أنا لا أستطيع أن أمنع نفسي-
من احتقارك... أدار رأسه عابسا.

ربت على كفه هي الأخرى... كانا رجلا وامرأة... كلاهما
مستقل، وكلاهما ندا للآخر.

قالت: هدى نفسك حتى أنا لا أستطيع إلا أن أحتقرها...
أنا أجب من أن أقوس ساقى بالرصاص كما فعلت، لهذا أخاف
من الحياة معك، أخاف أخلي بك في منتصف الطريق...

- هه... زفر، زفرة حارة... وراح يفرك رأسه بعصبية يمنية
ويسارًا... ماذا تظني قطعة من الصلب... يا لغباها... لشد ما
احتاجها... مضى- وقت طويل وهي جالسة بجانبه وكان قد
أغمض عينيه لفترة طويلة ثم فتحها. قال:
- سنبقى أصدقاء.

صاحت فرحًا وكان هذا ما تنتظره منذ الصباح: أحقًا؟!

- ولو يا مريم... كان صوته هادئًا مملوءًا بالثقة، لم
يستكمل مشاعره حتى لا يفسد عليها لحظة الوداع... أو
يعطيها ما ترغب به في قاع ذاتها... خطأ تنتظره منه حتى
يرضي لديها شعورًا بالذنب... هكذا سوف تبقى أبدًا مقيدة
على الأقل لسلكه معها، هل تستطيع يومًا أن تكتشف
الدوافع العميقة لهذا السلوك؟

شدت على يده مودعة: وداعًا مصطفى... سوف نلتقي.

خفق قلبه بشدة وهي تعبر الباب... كانت ريانة... عصرية
جميلة... خزانة ملابسها ممتلئة... وهي تعبده... كان يتعين
عليه أن يهديها حذاء من لون آخر حتى يخفف عليها عبء
البنفسج... لقد خسرها على أية حال...

حتى باب المنزل بقيت تائهة... حيناً تبتسم، وحيناً آخر
تتجهم، وعلى وجهها ملامح تقلصات صلدة، وفي حجرتها
شاهدت الحقائق الكثيرة المعدة للسفر، تغابت عنها وقد
خنقتها أمواج متلاطمة من الضيق والإحساس بالجحيم
الذي سترحل إليه، ولم تنفجر بالبكاء إلا على فراش النوم...

* * * *

الفصل الثامن عشر

بعد سبع سنوات عاد ونيس بوزوي من بعثته الدراسية بألمانيا الغربية، كان قد أمضى- الثلاث سنوات الأخيرة كاملة بالخارج، فكان شوقه لأهله عظيمًا، على الطريق من المطار إلى منزل أخيه عمر، راعته حركة المعمار الجبارة التي تمر بها بنغازي، اللافتات السياسية التي امتلأت بعبارات دعائية لثورة الفاتح، اللجان في كل مكان، التمثيل تدجيل، لانيابة عن الشعب، لاديمقراطية بلا لجان شعبية، شركاء لا أجراء... عبارات وشعارات كثيرة لم يستطع هضمها، وهو الذي تقولب بالديمقراطية الغربية.

أمام فيلا أخيه عبر الحديقة إلى المدخل، طرق الجرس، خرج خادم سوداني أسود يرتدي جلبابًا أبيض مزخرفًا بالزخارف الحمراء، سأله: هل هذه فيلا عمر بوزوي؟

أجاب الخادم بالإيجاب... أخبره بأنه أخوه... اضطرب الخادم ودخل مسرعاً، ارتد هو خطوات عن مدخل الفيلا، كانت امرأة أخيه ثريا تنظر من شرفة علوية إلى الحقائق الملقاة على الطريق بدهشة، رآته يندفع إلى أمه، وهي تصيح به باكياً: ونيس... ونيس... كان لقاء مؤثراً اختلط فيه الضحك مع البكاء اجتمع حوله أخوه الأصغر حميدة، وأخته صديقة، وأقبلت عليه امرأة أبيه تعانقه، على عتبة الصالة الكبيرة الممتلئة بالرياش الفاخر وقفت ثريا وطفلتها الصغيرة تنظر بوجه جامد، حيته بابتسامة باهتة، وحيها ضاحكا، يعانق ابنة أخيه الصغيرة صباح التي سارعت بالعويل، جاء ناصر، وبعده عمر وأبوه، كان لقاء حميماً انتقل بعدها إلى حجرة بالطابق الأرضي أفردوها له.

مرت الأيام وهو محل اهتمامهم، ترعى أمه شؤونه بنفسها، وإخوته متحمسون للسمع عن الحياة بأوروبا، تضطرم رغبة حميدة للسفر، ويدور بأخته خيال جامح عن الحرية، يختلف وناصر حول المرأة الأوربية، ناصر يرى فيها الفجور والانحلال، ولم يكن ليقبل بحرية المرأة، وونيس يرى الشرقية امرأة بائسة، وأن ما يسمى انحلالاً ليس سوى فهم خاطئ عن طبيعة المرأة الأوربية، صنعناه نحن كي نخفي قبحنا... أما عمر فكان كثير السفر إلى الخارج، وعندما يكون ببغازي، يعود متأخراً لا يستطيع رؤيته بسهولة، الوحيدة التي تتجنبه وتتجنب الجميع هي ثريا، تقصر علاقاتها بهم حول شؤون الفيلا، وزيارات العجائز، ساعات طوال تظل

وحيدة بطابقها الأعلى، إلا حينما كانوا يجتمعون للطعام، أو حول التليفزيون مساءً.

كانت ثريا تراه غير متزن، كثير الحديث عن نفسه، ضحكاته التي تنطلق عاليًا أكثر مما يليق بطبيب، عندما شعر بها تتحاشاه وتجلس بعيدًا بجانب أمه أو امرأة أبيه وطفلتها تلعب حولها، تجنبها هو الآخر، ابتعد عن الأماكن التي تجلس بها، فصار يراها نادرًا، ولم يلبث أن نشأ حاجز من الاحترام البارد بين كليهما.

انغمس ونيس في علاقاته القديمة مع أصدقائه، رحل إلى الجبل الأخضر- وتجوّل على الساحل الشرقي، سوسة ورأس هلال وشحات حيث الطبيعة الخلابة، والجبال المكسوة بالخضرة والآثار الرومانية القديمة، ولما لم تكن هناك الملاهي والنوادي الليلية والحياة الاجتماعية المفتوحة التي عاشها بأوربا، وبارات يتناول فيها المرء كأسًا من النبيذ الأحمر القوي الذي يعشقه، بدت الطبيعة وسط الأصدقاء الشبان فقط، ودون كل هذه المتع الجميلة التي تخلقها العلاقات الاجتماعية لنساء تمارس الحب بطلاقة، مناخ ذكوري باعث على الإحباط. وجثم كابوس الملل، لم ينقذه الوقوف على نواصي الطرق الرئيسية بالمدينة، مع جماعات الشباب يتصايحون في رعونة جوفاء وبطالة مقبضة للنفس، ما كانت السينما لترضيه، أما التليفزيون فقد كان يمضي- يومين وثلاثة في نقل الاحتفالات الشعبية لإحدى المعارك التاريخية بين

المجاهدين والطلّيان، أو لعرض ساعات طوال من الأخبار السياسية المملة.

دار في المدينة الصغيرة بسيارته على غير هدى، حتى أصبحت عادة لديه كما هي عادة الكثيرين من أهالي المدن الليبية، مال إلى بعض أصدقائه الذين عاش لفترة معهم في أوروبا، كانوا يعانون مثل حالته، لكن هذا لم يؤثر على روحه المتوثبة، وظل محافظًا على صفائه وابتسامته الواسعة المشرقة، موزعًا سعادته الشخصية على الجميع، وأخذ يسعى للعمل، إلا أنهم أشاروا عليه بالانتظار. حتى ينتهي زواج أخيه ناصر...

عندما شعروا بملله وقد صار يضحك متندرا وهو يردد:

- كساد... والله كساد...

دعته امرأة أبيه أن يذهب لإحضار أخته الصغيرة صديقة من المدرسة يوميًا فوافق، وفي اليوم الأول أمام المدرسة تغامت الفتيات عليه، ابتسموا له في تواطؤ، أما أخته فقد جاءت مسرعة وهي سعيدة تضحك، وفي اليوم الثاني وجدهم على مدخل المدرسة يبتسمون له بصراحة، وفوجئ بأخته تطلب منه أن يأخذهن معه في طريقه إلى المنزل، فهتف بها: توا نبدأ بالأعمال الصببانية.

زجرته قائلة: (صاحباتي) شنو عبء عليك، ترى أنا نخدم فيك، وأنت ما تفهم، كك ما تبيش؟ باهي لا تفعل... أنت الخسران...

- منو قال لك نريد شيئاً منك... أنا ما نبيش خدمة منك بوكل... أنا نساعد فيك... باهي... يجن بس من دون خدمات... فهمت؟ نبيش تطليبي مني خدمة كيف الخدمة.

«مطت بوزها» مطلقه صوتاً ينم عن الغيظ، أسرعت تدعوهم باستعلاء تعلم الخدمة التي تقدمها لصاحباتها، جنّ مسرعات... أخذ يجيب على تحيتهم المعهودة... خير وقد ألبس وجهه وقارا ورزانة، إلا أنه لم يملك نفسه من الابتسام، وقد تعددت إجابته، تساءل: أهناك أخرى...

فجاءه صوت من الخلف: ما عاد مكان يساع.

تبو أنزل وأترك لكم مكاني... لكزته أخته التي جلست بجانبه بغيظ: هيا.

أجابها: صرت أقود في باص مو سيارة... هيا بيش تجمعي في التذاكر...

من الخلف أجابته ضحكات مكتومة:

- ندفع لك... كم تمن التذكرة؟

قالت صديقة: أيووا... ما تقدرن عليها...

زم شفتيه وهو يهز رأسه: باهي... باهي

بعد فترة من الصمت تجرأت إحداهن قائلة:

ألمانيا الأفضل أم ليبيا يا دكتور؟ نظر بمرآة العاكس.

بعد صمت خال فيها الجميع أنه لن يجيبها قال: تبي الصراحة.

- نعم.

- ليبيا.

ارتفع الهرج والمرج بين الفتيات، وامتلأت العربة بمشاعر الإعجاب والدهشة:

- صحيح... بلدك... معقولة!!

- أيوه... صحيح بلادنا أجمل...

- شنو حقا يسمحون للفتيات بالسهر خارج منازلهن مع الشبان؟

- نعم... من سن الستاشر.

- يعيشن... يعيشقن... حدائق وسينمات ومسارح وباليه ونوادي رقص، يأكلون ويشربون معًا يسافرن... يدورون العالم معًا... وأحيانًا يذكرون معًا.

ندت عنهم صبيحة خافتة: أااااا

- ذاكرت مع واحدة منهن.

لكزته أخته مرة أخرى وهي تنظر إليه شذراً... وبعد
صمت قال:

- نعم...

- وحدكم...

قاطعتها صديقة... لا... عند باتها...

لكن الأخيرة أصرت على أن تسمعه هو، فعادت سؤالها:

- وحدكم يا دكتور؟

- نعم...

عاد الصخب إلى السيارة... هو خبير، تعالت صيحات
التعجب والاستنكار، واحمرّت وجوه الفتيات، ساد الصمت
ثانية وقاطعته ثالثة: وإيش ترتدي الفتاة؟

- كيف ما تشاء...

- كيف شنو؟

وحبست الفتيات أنفاسهن... نظر إلى أخته يستنجد بها،
إلا أنها تشاغلته عنه هذه المرة، فأجاب مكرراً: كيف ما
تريد... ودّ لو ينتهي الأمر، لكن إحداهن كسرت الصمت،
وسألت بصوت خفيض تحدوه الدهشة والرغبة في المعرفة:
كيف شنو؟

أجاب حانقا: طويل قصير وأحيانا ما في شيء بوكل.

عادت الشهقة الضائعة: أأا اااا اا ه ه...

- وفي أي مكان.
- بأي مكان؟

- أليس لديهم ما يردعهم أليس لهم آباء... ألا يوجد لديهم دين؟!
عقبت أخرى: كيف الحيوانات.

- شنو؟

- ما يعيش هيك غير الحيوانات... استطردت تهاجمه...
صحيح هيك...

- الحيوانات تاكل... مو هيك؟

- نعم.

- والإنسان ياكل... صحيح؟

- نعم.

- ما نقول الإنسان حيوان لأنه ياكل كيف الحيوان...

شهقن: ككك موافق؟

- عادي... المرأة في أورها مثلها مثل الرجل تعمل في كل شيء وهي رقيقة على نفسها، تسافر وتعمل وتسكن وحيدة، وتصادق من تريد، عندما تزوج تخلص لزوجها، فقد تزوجت عن حب ومعرفة متبادلة، فالزواج ليس كما هو لدينا بداية التجربة، ولكنه لديهم تويج لنجاحها، وهي

صريحة ليس لديها ما تخفيه، والخيانة فعل يتضاءل، لسبب بسيط أنها تستطيع الانفصال بسهولة... والانفصال السهل أفضل من معايشة رجل تخونه... كان على وشك الارتباك وقد خشي أن يخطئ.

- هل تسمح لصديقة أن تحيا مثلهن؟!

كان السؤال مربكًا للغاية، نظرت أخته إلى صديقتها بغضب، لكزتها بقوة تأوهت لها، ضحكوا جميعًا، كانت في الحقيقة تقصد، هل يتعطف الرجل اللبي ويعطي للمرأة اللببية حريتها...

زمن طويل مضى- كي يستجمع ردًا صحيحًا: الحرية قناعة شخصية، سلوك ذاتي أصيل، لا يكفي أن يقلد المرء آخرين كي يصبح حرًا مثلهم، والسلوك الشخصي- للمرأة العربية يلزمه قبول اجتماعي، في مجتمعنا لا يسمح لها بهذا السلوك، لكنني أوافق على أن يكون لها حق الاختيار لحياتها الخاصة، دراستها، الشخص الذي سيكون زوجها لها... خصوصًا التعرف عليه قبل الزواج، حتى يصبح الزواج رحلة جميلة، وليس قيودًا ذات طبيعة مجهولة...

صاحت الفتيات في ابتهاج... قال: وين نذهب توا...

بعد توصيل فتاتين سألته إحداهن، والسيارة تقرب من منزلها:

- أنت خاطب؟

وأجابتها أخته بسرعة: نعم.

أرادت الفتاة التأكد فتطلعت إلى يده، ثم صاحت غير مصدقة:

- ما يلبس حلقة...

ضحكن جميعاً... وبعد ساعة انتهى منهن، في اليوم التالي لاحظ أن إحداهن استندت بمرفقها على ظهر كرسيه، ومدت أناملها على كتفه، عندما غادرت السيارة، أعطته ابتسامة خاصة، قرر ألا يفعلها ثانية، وتوقف عن الحضور لأخته بالمدرسة... سألتها أمه:

- ليش ما تذهب بيش تجيب في صديقة أختك...

أجابها: لن أفعل... صاحبت به امرأة أبيه: لشنو؟

قال راجياً: لا تورطوني في أعمال الأطفال هذه.

ملأت أخته الفيلا حديثاً عن إعجاب الفتيات به، مما دعا ثريا للتيقن من أنه لعوب، مستعد لمطاردة الفتيات، فلما سمعت قراره بعدم الذهاب قررت أنه ولا شك مغرور... فكرت أمه بأن من المستحسن أن تبحث له عن عروس، حدثته فأجابها محتجاً في صخب:

- عفواً عفواً... لا تؤرقي نفسك بهذه الأمور بوكل.

- ليش يا بني... أنت توا ما ينقصك شيء.

- في الوقت المناسب سأقوم بهذه المهمة بنفسى.

- معقولة؟

- نعم، معقولة ومعقولة تمامًا.

- كذك مش كيف أخوك؟

- كل واحد وله طريقه وأسلوبه.

* * * *

بعد أسابيع أصابته نوبة من القرف الشديد عندما دعتة أسرة ألمانية للذهاب معهم إلى شاطئٍ أشبيلية، كان فضلاً عن إجادته الألمانية بتميز بحضور قوي، وسلوك مهذب يدعو للإعجاب والألفة، ولا تشوبه سماجة المتفرنجين كسخطهم على أحوال بلادهم المتخلفة، على العكس كانت هذه الأمور مثار تندر وليس انسلاخاً، كان يرتاح في علاقته مع هذه الأسرة، إحساسه بدفاء الحياة الزوجية السعيدة، الصدق في العلاقات الإنسانية... يوم ذهبهم إلى الشاطئ تخلف الزوج، واعتذر داعياً أباه للذهاب مع زوجته وابنه الصغير، ذهب على مضض، وحين ارتدت الشقراء البكي، وتمددت تحت أشعة الشمس، التف حولها الشباب العاطل، يلقون حولها بالألفاظ الجارحة، والعبارات البذيئة، وعيونهم تأكل جسدها، التف كثيرون يخطبون ود الطفل بطريقة مكشوفة، جلس يقتله الخجل، واشتد حنقه، ود لو يختفي، لكنها فهمت حالته، وأخبرته بأنها تعودت مثل هذه التصرفات، في المساء دعتة إلى السينما، وكان زوجها لم

يحضر- بعد، رفض ضاحكًا وبحزم ألا يخوض تجربة كهذه ثانية.

عاد لحياته المملة ثانية، أحيانًا عندما يصيب المرض ابنة أخيه ولا يوجد سواه، يأخذها إلى دكتور للأطفال بالفويحات مع أمها، يخيم عليهما الصمت طوال الطريق، فقط كانت ثريا تلاحظ تصرفاته البسيطة الواثقة، وهو يلاحظ ابنتها في حنوينم عن تذوق للسعادة، فتود لو تنال منه، عندما كان الصمت يطول، كان يفكر... هي جميلة وشابة وجد صغيرة، ما الذي يدعوها إلى تجنبهم، بل هي تتجنب الحياة، وتملك ثلاثين ألفًا من الدينارات بالمصرف... ولا يجد جوابًا... مرة كسر الصمت واستدار يسألها:

- كيف تقضين وقتك؟

دون أن تلتفت إليه: أي وقت؟

- وقت فراغك...

- شنو عندي أنا وقت فراغ... ما تشوف في؟

نادرًا ما تأتيك صديقة.

قالت في ضيق: لا أريد.

كانت تود لو تقول... وهل تذهب مثلي لأحد دون زوجها... لكنها فضلت الصمت...

قال: قصدي دايمًا أشوفك وحدك...

رفعت إليه عيونها باتهام، ثوان قبل أن تكتفي بالقول:

- بعد ما اشتكيت...

فوجئ بقسوة إجابتها، قال يبتلع التوتر الذي ساد بينهما:

- ليش ما تزوري أهلك؟

بلغ الضيق بها مداه... ماذا يظن نفسه حتى يتدخل في شؤوني
الخاصة: وهل أضايقكم؟

أصيب بصدمة، قال مندهشاً: ما قصدي هيك... آسف...

بقي طول الطريق صامتاً، بينما داخلها الفرح... لقد
اقتصت منه...

لم تمض أربعة أيام حتى دعت امرأة أبيه وسألته أن يقوم
على توصيل ثريا إلى منزل أبيها فسيارتها عطلى... شعر
بالدهشة، لكنه فعل، طوال الطريق لم يتحدث، قبل أن
تغادر السيارة سألها:

- متى أعود وآخذك؟

- انتظر... سأرى إذا كانت فيه سيارة... دخلت وهلة، إذ
خرج الأب يرحب به ترحيباً شديداً، ويصر- على دخوله معه
الحوش، حاول ونيس الاعتذار بشتى الحجج دون جدوى،
يطارده الخوف من رد الفعل غير المتوقع من زوجة أخيه،
لكن الرجل رفض أي اعتذار مغلقاً عليه جميع المنافذ، مما
اضطره في نهاية المطاف للدخول.

حدثه والد ثريا بحرارة وود في أمور شتى، طرق الباب فخرج الشاي لدقائق ثم عاد ليدعوه للجلوس بالصالون الداخلي، وكان هناك ثريا وأختها خيرية، وعمتهم التي رحبت به كثيرًا، سرق النظر لثريا فوجد وجهها خاليًا من التعبير، فتيقن أن حضوره لم يكن على مرادها، تسلت ابنة أخيه إليه، جلست على ركبتيه تضحك.

قدموا له الشاي والكعك والعصائر وقطع الجاتوه، في البداية جلست خيرية صامته وقد بدلت من ملابسها بعد أن علمت بوجوده، كانت أنيقة، فحدث نفسه... كلهن أنيقات يمتلكن أنوثة فياضة... وفي الصالون الفخم تحدث والرجل دون أن يرفع عينيه في وجوه النسوة اللاتي كن يتفرسن فيه، وجاءت ابنة أخيه تجلس على ركبتيه، نبهه حديث الشاي عن التجارة، وبدا أن الرجل مهتمًا بالأمر اهتمامًا شديدًا، يسأل عن الشركات الألمانية، ومنتجاتها، وأسعار السلع المختلفة في الجملة والتجزئة، وتكاليف الشحن، وفيما إذا كان يمكن له الحصول على أحد التوكيلات الألمانية رغما عن كونها مرتفعة السعر بالنسبة لمثيلاتها...

كان ونيس يعبر عن إعجابه بالسلع الألمانية، والرجل يعيد ويدور حول تفصيلات تافهة... السلع... الأجهزة الكهربائية... الأواني والخزف والأدوات المكتبية... هل سيربح؟ كم سيربح؟

بعد فترة وجيزة كان قد كرر أسئلته للمرة العشرين، وأجاب ونيس عشرين إجابة، لكنه لا يلبث أن يعيد ذات الأسئلة، ربما لأنه نسي، وربما لأنه يريد أن يطمئن، شعر بالضجر، وفهمت المرأة والفتاة، حدثت خيرية أباهما بزجر خفيف، قالت:

- اتركه يشرب الشاي ويستريح شوي...

لحظة أن صمت الرجل، وبسرعة هاجمت ونيس هي الأخرى وبشدة، أخبرنا يا دكتور كيف حال الألمانيات؟
أجاب مبتسما: بخير...

قالت في صوت ممطوط: أيوه ه ه... استمتعت كثيرا
إمعاهم؟

أجاب بدهشة تخفيها ابتسامته: شنو؟

عبست ثريا: لكنها بقيت صامته لا تعقب بشيء، وكأن الأمر لا يعنيه، استطردت خيرية، هيك أنتم يا لبيبين، ما تجي فرصة السفر حتى تركبوا الطائرات كيف اللي يطارده عفریت.

- عفوا يا آنسة، أنا سافرت ببش الدراسة.

- أعلم... لم أقصدك بالطبع... الدراسة هناك ممتازة؟

- نعم... معامل ممتازة وأجهزة ذات تقنية عالية ومستوى راقٍ من العلوم... ويستخدمون الكمبيوتر...

قاطعته: كنت أحب أن أدرس الطب.

- الطب مهنة إنسانية...

- صرخت في غنج: ربي... لكني أخاف الجثث...

- معك حق...

- لكني ما أحب أن أصير معلمة.

- التعليم مهنة مقدسة... أشاحت بيدها: أيوه... هذه

سخافات... أجد نفسي- وسط ثلاثين شيطاناً، شيء يخليني

أصير مجنونة... أنا ما أحب الأطفال، ما أطيق رؤيتهم...

دهش ومدَّ بصره إلى ثريا، ولكنها أدارت رأسها بعيد...

قالت الطفلة: نذهب؟ فأجابها: هيا...

قامت، ثريا لكنهم أصروا على بقائهم وتعلل ونيس بضيق

الوقت، وعلى الباب قالت خيرية: سراك. مو هك؟

أجاب: حسب الظروف...

قالت تشير إلى ثريا هامسة: لا تعتمد عليها، لو عرفت أن هذا

يسر أبي، فلن تأتي بك.

اصفرَّ وجه ثريا وهي تسمع الحديث، قبلت عمتها،

وخرجت تركب السيارة، أما ونيس فقد شعر بالغضب

والضيق من الفتاة، ولم يرتح لها، وطوال الطريق حاول أن

يكسر- الصمت، لكنها لم تستجب له، فقد كانت عيناها في الفراغ.

* * * *

الفصل التاسع عشر

في ركن قَصِيٍّ- من حمام السباحة جلس المهندس فؤاد صليب المصري الجنسية، الذي تخطى الرابعة والأربعين من العمر على مائدته وحيداً منبوذاً، في حالة ذهول مما آلت إليه أوضاعه بالمؤسسة بعد أربعة أشهر فقط من تعيينه، وهو العقيد المتقاعد بسلاح المهندسين المصري، الذي خاض غمار حرب 67، 73، وأصيب من جراء انفجار بالجبهة، والحاصل على أحد الأوسمة الرفيعة، قبل إحالته على الاستيداع.

كل شيء يجري من دونه، والذين كانوا أصدقاءه منذ شهر يتجاهلونه الآن، على الأكثر ابتسامة مسروقة، إيحاء بسيطة، عندما بلغ الحرج به مبلغاً، اقترب متلصبا من مدير

المؤسسة المهدي عمران يرحوه أن يسمح له بمقابلة بوزوي، أجاهه بتهذيب بأنه سيلغّه حالماً يفرغ، وعندما عاد إلى مائدته وجد بها مهندساً مصرّياً يعمل بالأشغال العسكرية... سأله مستفسراً:

- نويت على إيه؟

- ح أقدم استقالتي.

- هزموك...

- هم كثير... أعمل إيه.

- عمر عرف بسرقات زياد ونوري.

عرف... وبخهم شوية، زياد قال: الكميات الزيادة على المستخلص مساعدة للمقاول، وإنه ح ينفذها... والله ح يخربوا الشركة... تعرف رصيده في البنك تحت الخط الأحمر...

- بلغته بخسارة مشروع الرجمة؟

- نعم... ما طرف له رمش.

- ممكن تكون وسيلة لتهريب أمواله.

مش عايز أتورط في مسائل من النوع ده... استطرده منفعلاً:

كلهم ببسر قوا، المهدي عمان بسرق عربات الخشب والأسمنت، من أسبوع واحد أهده عمر شاحنة نقل مرسيدس.

- أمنت لك عملاً؟ عشرات المقاولين محتاجة مهندسين.

- لا... قطاع خاص تاني! بحاول وزارة الإسكان... يكفيني متاع القطاع الخاص.

المتاعب التي واجهت المهندس فؤاد كانت مثيرة حقاً، شهر كامل يجلس على مكتبه بالمؤسسة وحيداً مهملًا متجاهلاً من الجميع، ورغم أنه عين من قبل بوزوي مسئولاً عامًا عن المرحلة الأولى من المشروع بعد أن تأخرت تسعة أشهر كاملة، وأنزل منشورًا بكل المواقع باعتبار المهندس فؤاد كبيرًا للمهندسين، وأعطى سيارة فولكس صغيرة، وسائقها فقد كان لا يجيد القيادة، وفي الحقيقة كان محتاجًا لأكثر من قرار صاحب المؤسسة كي يستطيع أن يسيطر على هذا العالم من المهندسين ومقاولي الباطن والملاحظين ومديري المكاتب الإدارية والحسابات والعمال وسائقي الآليات الثقيلة والشاحنات، وأخيرًا تكتل السوريون ضده بالمواقع لصالح المهندس زياد فرفضوا الاعتراف بسلطاته... وشنوا عليه حملة تشويه ضخمة.

ورغم أنه استعاد أطنانًا من حديد البناء من تحت أكوام التراب بالمشروع بعد أن أكله الصدأ، ووجه الجرارات لجمع وتصنيف مئات الأمتار المكعبة من الخشب الذي لم

يستخدم سوى مرة ثم ألقى في التراب، في حين كان النجارون يلهثون بحثًا عن متر خشب.

حاول تنظيم خط سير الخلطات الخرسانية، ووقف بنفسه على معالجة سلم بهو الضباط الذي صار على وشك الانهيار، مفرغًا نفسه لحماية سمعة المؤسسة، فضلًا عن عشرات المشاكل الفنية لمبانٍ على وشك التسليم، وجد بها قواعد وأعمدة قد أغفلت، ومباني رُحلت من إحداثياتها، واختلافًا بالمناسيب يعيق تنفيذ الطرق وشبكات الصرف، رغم كل هذا ورغم صراحته وإقباله كالأحمق الأمين على خدمة رب عمله، فإن هذا كله لم يجده فتيلًا، إزاء عدم فهمه طبيعة المؤسسة، والحيوية التي كان يظهرها إرضاء لصاحبها، كانت سبب بلائه، فبمراجعة مستخلصات معسكر الذخيرة بالرجمة اكتشف أن قيمة ما صرف من الأعمال أقل مما هو موجود فعليًا، وبمجموعة حسابات صغيرة وجد أن هناك عجزًا قدره خمسمائة متر مكعب من الخشب بمعسكر المدفعية، أي ما يوازي خمسين ألفًا من الدينارات، والمتهمون محددون، بينما الأسمنت بلغ عجزه مائة ألف من الدينارات، وكان كلما أخبر المهدي عمران بمعلوماته، كانت النتائج تأتي مختلفة، فالهدايا تنصب على من تحوم حوله الشبهات، في حين يتم توفير آخرين من العمل، على أن ما أثار لديه نوعًا من الذهول كان بعد أسبوع واحد من تعيينه، فقد دفع إليه بوزوي التقرير الخاص بأعمال لجنة استلام النهائي فيلات الضباط للقاعدة الجوية

شرق طبرق، والتي شكلت بتاريخ 1973، وكانت أول أعمال عمر بوزوي مع الجيش... كان عليه أن يقدر تكاليف صيانتها... عندما قرأه أصابته الحيرة، وسارع إلى أحد أصدقائه الذين كانوا ضمن أعضاء اللجنة، الذي راح يروي له القصة الكاملة لمساكن القاعدة...

ينص محضر أعمال لجنة الاستلام بعد ذكر أسماء أعضائها وخلافه على الآتي...

بمباشرة أعمال اللجنة، ومراجعة ملفات العملية، ودفتر الموقع، تلاحظ وجود مجموعة من الملاحظات، والرسائل التي وجب الإشارة إليها، واشتملت على أهم الملاحظات الآتية:

1 - ينبه مهندس مديرية الأملاك والأشغال العسكرية على ضرورة تسليم الأعمال قبل البدء في صب الخرسانات ومراعاة الدقة في تنفيذ المواصفات، ويطلب ضرورة وقف العمل وسحب الأعمال من المقاول المنفذ. للأسباب الآتية:

أولاً:

أ- ترحيل محاور البلوكات رقم 2، 9، 12 عن مواقعها وانطباق البلوكات 7، 14، 20، 22 على محور الطريق مما يتطلب تغيير شبكة الطريق وإعادة تصميمها.

ب - ظهور القواعد الخرسانية المسلحة فوق منسوب الطرق.

ج - وجود شروخ كثيرة نافذة ذات خطورة بالخرسانات المسلحة.

د - بلغت كفاءة نتائج اختبارات الضغط للخرسانة 50% من الكفاءة المطلوبة.

هـ - صب كميرات وجسور كاملة فوق الحوائط دون حديد التسليح المطلوب.

و - النسبة العامة للنقص في الحديد تبلغ 20% وفي بعض المناطق 50%.

س - ضرورة الاعتماد على عمال مهرة في تنفيذ الأعمال.

ثانياً: لوحظ أن العمل استمر من تاريخ 1971/7/20 إلى 1972/3/30 وحتى تاريخ نهاية العملية دون إشراف في من قبل المديرية.

ثالثاً: أن المشروع قد تم العمل فيه بمدة تقل ستة أشهر عن المدة الأصلية.

رابعاً: منذ انتهاء العمل بتاريخ 1972/3/30 وحتى تاريخ تشكيل اللجنة الحالية سبق وأن شكلت عدة لجان بالخصوص ولم تستكمل أعمالها.

خامساً: بالانتقال إلى موقع الأعمال، ورغم عدم تعاون المقاول مع اللجنة، فقد أجريت الفحوصات الفنية حسب مواصفات الإسكان، وتقرر اللجنة أن الأعمال غير مطابقة للمواصفات، وعليه، ترى اللجنة إعادة دراسة الأسعار،

وتخفيضها مع زيادة مدة الضمان إلى الضغف، مع وقف ختامي العملية إلى أن تنتهي مدة الضمان.

سادساً: تشير اللجنة بأسف إلى أن المهندس زكي المهداوي الذي ألحق بتاريخ لاحق على اللجنة، قام بما يخالف أصول المهنة والعرف الهندسي وأخلاقيات الزمالة، وذلك بعرقلة أعمالها، وتسفيه ما اجتمعت عليه آراؤها، وما تشير إليه الفحوصات الفنية، وهو الأمر الذي يخل بأصول التعاقد بين المؤسسة والمديرية.

واستمر صديقه قائلاً: في اليوم التالي منعنا من الخروج من المعسكر، ووجدنا عربة عسكرية تنتظرنا أقلتنا إلى أمر الحامية، مما أوقع الرعب في قلوبنا، وكل منا يلوم حظه الذي ألقى بنا في هذه المشكلة... هم لبييون مع بعضهم ما لنا نحن وإياهم، وكان بوزوي قد قام بضرب المهندس المصري الذي كان يشرف على أعماله من قبل الأشغال العسكرية، ركله بقدمه في قلب الموقع وأمام العمال، وألقى به خارج المشروع، بعد أن أوقف الأعمال لرداءتها، وكانت الإشاعات تتحدث عن علاقاته القوية ببعض رجال الجيش، فلما دخلنا حجرة أمر حامية طرق بالنيابة استقبلنا بترحاب، وألقى إلى كل منا بنسخة من تقرير اللجنة قائلاً: أعيدوا قراءة هذا التقرير، وبالله عليكم خبروني هل ما زلتم مصرين عليه أم لا، ولكنني أذكركم أنكم تتهمون زميلاً لكم بالتواطؤ مع المقاول دون أدلة كافية، وهو ما نستطيع أن نحاسبكم عليه جيداً،

أنتم تدفعون بعدم مطابقة المواصفات، وأجريتكم تجارب بالخصوص، ولكني أيضا أستطيع أن أثبت العكس، وفي المختبرات الحكومية، وساعتها سأقدم المسئولين عن التقرير لمحاكمة عسكرية... لكن ليس هذا هو الأمر، إنني أقول لكم إننا نبي مرتكزات اقتصادية ولسنا على استعداد لتشويهها بترهاتكم، هل تظنون أنكم تهتمون بأموالنا أكثر منا، أنتم تطلبون إعادة الأسعار، وهذا يعني إفلاس المؤسسة، لا مرتبات، لا مستخلصات لمقاولي الباطن، ولا أقساط الآليات والمواد، وهذا محال، أوافق على زيادة مدة الضمان، وبذات القيمة مع إضافة بعض الخصومات الخاصة بأعمال التشطيب، وسوف يعطيكم المهندس زكي المهداوي وهو مصري مثلكم تقريرًا بديلاً عن تقريركم بالخصوص... وأرجو أن تنتهوا من الأمر كله خلال ساعة؛ لأني عائد إلى طرابلس، واستطرد صديقه... وفي التقرير الجديد أضيف بند ينص على مكافأة للمقاول عند انتهاء الأعمال قبل موعدها بستة أشهر...

صاح فؤاد مبهورًا: وهل قبلتم؟

- لقد تم إنجاز محاضر أخرى تحت تهديد السلاح.

- وما صلة أمر الحامية بعمر؟

- لا أعرف وليس لي شأن.

في الوقت الذي أيقن فيه من قوة وعلاقات صاحب المؤسسة التي يعمل فيها حدث له ما بلبل تفكيره، فالنقيب مساعد أمر معسكر قار يونس استقبله بغضب، كانت الكهرباء لا تعمل، والأسلاك غير متصلة، والمراوح سدت من قبل أن تستعمل، والأسقف الخرسانية انتشرت فيها الشروخ وظهر حديد تسليح الأسقف، تجول الاثنان في القاعدة بين المساكن، وجدوا الأبواب قد اقتلعت، وأزالت الأمطار البيضاء من الحوائط والأسقف لعدم وجود طبقة عازلة، وقد هبط بلاط الأرضيات، في لحظة غضب استدار له النقيب قائلاً: أنتم في حاجة إلى محكمة ثورة.

ولأن المهندس فؤاد قد بلغ درجة كبيرة من الحمق ضيع فرصة عمره الذهبية، ففي منتصف فبراير استدعاه عمر بوزوي إلى مكتبه، حيث وجد قائد المنطقة وبرفته المهندس زكي المهداوي، وبعد أن عرفهم عمر بوزوي كل بالآخر تحدث الرائد قائلاً:

- نحن نقدر المهندسين المصريين؛ فهم أساتذة وأهل خبرة، هذا حق يجب أن يقال.

وعندما تمتع المهندس فؤاد بعبارات الشكر استترد الرجل قائلاً:

- أنا نقول الحق، ولا أقول كلاماً على عواهنه، نحن ننتهج في استراتيجيتنا العسكرية ثلاثة أمور، أولها الدفاع عن الوطن، والثاني أن نكون قادرين على تحمل الرسالة التي يلقي

عبئها علينا عربوتنا، والإسلام، والثالث أن نكون بحق العمق الاستراتيجي للجبهة المصرية...

قال زكي المهداوي: بالضبط... عشت في حرب 73 بطبرق، وكانت القوات البحرية المصرية تعسكر في القواعد الجوية والبحرية، هذا حقيقي، ورغم كل الخلافات الحالية بين الزعماء، فنحن نعتف بأننا هنا في بلدنا، لكن توجد أيدٍ خفية تقوم على زرع الشقاق وبذر الخلاف بين البلدين، لقد طردنا الروس وحررنا السيادة المصرية.

ضحك الرائد وهو يردد: توا نفعل يا مهندس زكي.

بعدهما انتهوا من فض البكارة حسب الأصول المرعية قال الرائد لعمر: سأقدم للمهندس زكي احتياجات المرحلة الثانية من المعسكر، ويقوم هو والمهندس فؤاد بزيارة الموقع وعمل الخرائط والمسائل التفصيلية الأخرى... عقب المهندس زكي: سنتعاون معاً إن شاء الله، وإن كنت سأترك الأمر للمهندس فؤاد، فالرجل اختصاصه مثل هذه الأمور.

سأل المهندس فؤاد المهندس زكي بخجل: كم تبلغ الحدود العامة للتكاليف؟

أجيب بالصمت، استطرد قائلاً: بصفة حضرتك ممثلاً لمديرية الأشغال العسكرية.

أجابه زكي المهداوي بسرعة: بخصوص المديرية، الأمر لا يختص بتكاليف محددة، وإنما بتلبية الاحتياجات الفعلية

للمعسكرات، سيادة الرائد يقدم احتياجاته من المباني والورش والمنشآت والساحات، ونحن نقوم بعمل التصميمات والعقود، ثم يكلف أحد المقاولين من ذوي السمعة الحسنة والكفاءة لإنجاز الأعمال.

قاطعهم بوزوي موجهًا حديثه لفؤاد: تنتهي من عمل خرائط الموقع العام بعد غد... موهيك؟

أجاب فؤاد مندهشًا: لا أستطيع... مش قبل أسبوع، وسأقوم بمراجعة المهندس زكي والسيد الرائد... أجاب الرائد:

- باهي... تعال إلى مكّتي في أي وقت تشاء.

عندما خرجوا استبقاه عمر: راعي... أنا يهمني مصلحتي، ومصالح المؤسسة، التي صرت تمثلها أنت... فهمت ولا لا؟ أنا الآن رصيدي بالبنك على الأحمر، توا المصرف يدق باب المكتب، ساحات من الخرسانة العادية وتفضل المسلحة... وأسوار، ومنشآت، خذ النماذج التي تحوي مكعبات خرسانية أكبر، وحدد عرض شبكات الطرق والمرافق لتدخل ضمن الاعتماد، وانته من كل هذا بسرعة وقدمه للاعتماد فورًا.

قال المهندس والعقيد السابق بوجل:

- اسمح لي بسؤال في غاية الأهمية بالنسبة لعملي...

- شنو؟

- التكاليف العامة للمرحلة الثانية، ما هي الحدود القصوى والدنيا؟

- لا توجد حدود عليا، أمامك مساحات واسعة من أراضي الغابة، ازرعها خرسانة.

طوال ثلاثة أيام انهمك المهندس فؤاد في العمل وراح يخطط المناطق الثابتة كالإعاشة وبهو الضباط والمسرح والسينما ومطعم الجنود وعنابر نوم الجنود، ومنطقة الخدمات والمسجد وساحة جمع الجنود ومخازن المياه الأرضية والعلوية وغرفة عمليات القيادة، ومباني القيادة الفرعية وراح يعتصر- من خبرته، في تخطيط سرايا الميكانيكا والكيميا والنقلات، مخازن التموين ومستودعات السيارات الضخمة، ووضع التخطيطات المناسبة لسرايا الاقتحام وزرع الألغام وفصائل المهندسين، الأمر الذي أثلج صدر أمر السلاح ودون اعتراض، لا لتلك الخصائص الفنية، أو التي تختص باستخدام السلاح، ولا التقديرات المالية بل أعطى ترحيبًا وموافقة إزاء الشروح الفنية والعسكرية الصحيحة والمغلوطة، التي راح يزينها له كل من المهندسين فؤاد وزكي المهداوي.

* * * *

في مساء هذا اليوم استدعاه عمر، سأله بمسمع من مريم التي كانت تعمل: كم ستبلغ تكاليف المرحلة؟ أجاب في فرح طفولي: أربعة ملايين ونصف مليون دينار...

- باهي انتهى بسرعة بيش ما نخلص ع العقود والمقاسات والاعتماد.

- ح أعمل كل جهدي. شكرًا.

- ح أموت... هذا الغر سيقضي علينا...

بكت مريم بداخل حجرة الرسم، ولم تستطع أن تخفي دموعها، واجتمع حولها السوريون يواسونها، يعلمون أنها تبكي أيضا زوجها الذي أصبح مقيما بالمنزل لا يحضر. إلى العمل، وقد تصلبت رقبتة ولم يعد يستطيع تحريكها، واسوها، وقبلت مواساتهم عن الرجل الذي تكررت حالات إغمائه، وأصيب بمرض نفسي، كادت أن تستسلم، لكن ظهور المهندس فؤاد الذي كان الوحيد الذي يعرف الدافع لبكائها أثارها... اقترب منها متشفياً، ها هو ينتصر. عليهم... أتبكي زوجك وضحكتك تملأ المكتب... كل يوم تأتي مشرقة لا يبدو عليك أية آثار حزن، أزاح الجميع وقال لها مواسياً: أخت مريم، الله يعلم بسرنا، لا تبكي فليس في البكاء فائدة، سيشفي ياذن الله.

كفكفت دموعها ونظرت إليه في استهانة وازدراء وقالت دون أن تهتم بالحشد:

- من يعتقد في رجاء الله كمن يعتقد في وجود السعادة... أما من ينتظرها فهو خاسر.

بعد أسبوع استدعا عمر المهندس فؤاد، فذهب مسرعاً وقد حمل بين يديه المخطوطات، ولدهشته وجد مريم هناك، وقد مدت أمام عمر نسخة مكتملة من المشروع تعتمد على تخطيطه هو، مضافاً إليه تعديلات بسيطة، كاد يغمى عليه...

قال عمر بصوت خالٍ من المعنى: هل انتهيت من المخطوطات؟

- نعم... ها هي.

فرد عليه في سخرية: غير كاملة...

- سيقوم الرسامون بتحجيرها غداً.

- آه... كم تبلغ التكاليف النهائية؟

أجاب في سرعة: أربعة ملايين ونصف مليون دينار...

- والساحات؟

أجرى الرجل حساباته الشفهية في سرعة وارتجال، قال مبتهجاً:

- أكثر من ربع مليون.

هزَّ عمر رأسه واستدار إلى المهندسة مريم التي قالت:

- حافظت هون على كل الخواص الفنية والعسكرية التي يريدها الرائد آمر المعسكر، ومع إضافة إمكانات جيدة لحرية

الحركة وسهولتها في الساحات فانتسح إلى 30000 متر مربع خرسانة عادية، وتصل تكاليف الساحات حوالي المليون وثلاثمائة ألف دينار، ومع اعتبار 25% يصير بإمكاننا الارتفاع بقيمة العقد الخاص بالساحات إلى مليون وسبعمائة ألف دينار، أما بخصوص إجمالي المعسكر، فالمرحلة الثانية حسب التعديلات التي أضفتها، من دون شبكات الصرف والمياه وصرف مياه الأمطار والطرق إحداش مليون دينار، وهذا ما سوف يتضمنه العقد، والذي يمكن زيادته بمليون دينار حسب نصوص العقد الفعلية، وكما هو موضح بخرائط الموقع العام والخرائط التفصيلية.

وكده تبلغ قيمة المعسكر الإجمالية بعد إضافة شبكة الطرق والمياه والصرف خمسة عشر مليوناً من الدينارات قابلة للزيادة بنسبة 25% وهو ما يحتاجه العمل بالفعل، أي تصير القيمة الكلية حوالي عشرين مليون دينار تظل قابلة للزيادة.

حاول المهندس فؤاد أن يقول إن الأفكار الفنية تخصه، إلا أنه كان مذهباً، فالأرقام تنطلق حوله كالكذائف الثقيلة، تقفز كروليت الحظ، فانسحب مطأطئ الرأس، عندما مرت به مريم لم يستطع أن يرفع لها عينه...

جلس على مكتبه لا يحدث أحداً، ولا يقترب منه أحد، يتجاهلون المرور عليه بالصباح، سحبوا منه الفولكس، فركب اللاندروفر بين بقية المهندسين والسائقين، لم يقل له

أحد إنك غير مرغوب فيك، ولو قالوا لاستراح... وأخيراً عزم على أن يستقيل.

اقترب منه المهدي بعد أن هدأ الرقص بالحفل قليلاً وهمس في أذنه قائلاً: عمر ينتظرك.

قام خلفه مرتعداً من اللحظات التي ستمضي - إبان المقابلة، لقد كان الشعور بالنقص والخوف الشعور الملازم للمصريين إبان أول هجرة بالتاريخ أعقبت هزيمة 67.

عبر فؤاد مجموعة من الغرف إلى غرفة استقبال وثيرة، وقف بابها خمس دقائق، وهو متوتر قبل أن يسمحوا له بالدخول... قال فؤاد وهو يفرك أصابعه: سعدت تمامًا بالفترة التي قضيتها بالمؤسسة... استطرده بصوت خافت... لم أكن أظن بعد أن خدمت خمسة وعشرين عامًا بالجيش، إنني لم أتعلم وفي حاجة للخبرة، طرفت عيناه محاولاً أن يستدر عطف الشاب، حتى دون أية رغبة في البقاء، مجرد عطف، استمر يوغل في تمثيل دوره العصبي، قام ليقدم استقالته وهز يده يمثل دور الشخص المرتبك:

- باهي وما هذا؟

- أقدم لك استقالتي.

هز عمر رأسه وكان فؤاد يتمنى لو يرفض بوزوي، لو يوبخه على عدم احترامه لعمله، وعدم دفاعه عن مصالح الشركة، لو يرجوه أن يقف معه ضد هذه العصابة قائلاً

برجاء... يا مهندس فؤاد، أنا ضائع، الكل يسرقني، ولم أجد حتى الآن إنساناً نزيهاً مثلك، أنا أعلم كل شيء، لكن يدي مغلولة في حاجة إلى مساعدة شخص عارف ونزيه مثلك، شخص على خلق... لن أسمح لك أن تتخلى عني في هذه اللحظات العصيبة، وساعتها سوف يملي فؤاد شروطه... طرد السوريين... طرد الحاج حميدة... وضع نظاماً جديداً للأعمال... الإعلان عن أعمال مقاولات الباطن بالصحف في مناقصات... الحصول على أحسن العطاءات وأقلها سعراً شرط الكفاءة وجودة الأعمال... لكن عمر بوزوي تناساه... أراد فؤاد أن يلقي بسهمه الأخير حتى لا يندم فيما بعده، جمع عزمته قائلاً :

- قبل أن أمشي- أريد أن أقول شيئاً حتى لا يثقل ضميري، ليس لإزعاجك، ولكني أعتقد المصلحة تستدعي ذكره.

أبقى بوزوي على صمته فاستطرد قائلاً: راجعت أعمال معسكر الذخيرة بالرجمة وكان إجمالي الاتفاق أربعمائة وأربعين ألف دينار، في حين أن قيمة المنتج ثلاثمائة وأربعين ألف دينار، أي الخسارة سوف تبلغ قيمتها مائة ألف دينار... فهل تعلم بذلك؟

انتبه له لأول مرة، نظر محققاً، ولبرهة ظل صامتاً ثم قال:

- أعلم، مدّ يده يجذب الاستقالة، ووقع عليها بالموافقة، قرأها المهندس فؤاد، وجدها مذيلة بمكافأة تبلغ راتب شهر،

لم يستطع أن يفهم هذه الألباز المتراكمة، وللحظة ظن أنها قد تكون رشوة صغيرة، طرد خاطر سريعاً عن ذهنه، كان متيقناً أنها نوع من الرثاء والشفقة لحاله، فالمعروف عن بوزوي أنه يحب المصريين.

بالخارج استقبله صديقه، كان فؤاد قد توجه مباشرة إلى البوابة الخارجية، سأله: ماذا حدث؟

- قبل الاستقالة...

- أخبرته بخسارة الرجمة...

- نعم.

- وماذا قال؟

- إنه يعلم.

- يعلم... لم... ولم يحرك ساكناً، أعتقد أنه يسرق نفسه.

بعد وهلة قال وهو شارد: أظن أنه ضالع بنفسه في هذه المسألة.

- يسرق نفسه... أو يهرب أمواله... لماذا لا تكون نصيب رجال مهمين.

- لا أفهم... أنا غير قاد على التفسير.

* * * *

الفصل العشرون

بمناسبة الانتهاء من المرحلة الأولى لمعسكر المدفعية وتكليف المؤسسة بالمرحلة الثانية، والتي كان لمريم فضل عملها، أقام المهندس زياد وزوجته المهندسة مريم حفلاً خاصاً دعوا إليه رئيس مجلس إدارة المؤسسة عمر بوزوي ومديرها المهدي عمران وميرفت وأسرتها وعلي جمعة ومفتاح بوراوية المدير الإداري، والذي بدأ نجمه بالصعود، فاطمة بعد أن توطدت بعملها وارتفع راتبها الشهري إلى مائة وثلاثين ديناراً، واستخرجت بطاقة العمل والإقامة، وأصبحت في المرتبة الثالثة من أهل الثقة بالمؤسسة... هذا البند الذي ينص عليه عقد العمل بالمؤسسة... الحفاظ على أسرار المؤسسة، حضر- مجموعة المهندسين وبعض مقاولي الباطن السوريين، كما حضر- الحاج حميدة، ذبح خروفين ووزع الويسكي في تحفظ، كما حضر- فيما بعد مهندسون

مصريون بالأشغال العسكرية، أحدهما يشرف على تنفيذ بعض مواقع المؤسسة، والثاني زكي المهداوي، وأحد كبار قادة فروع الأسلحة ببغازي، ومعه ملازم أول بالمخابرات...

انهمك كل فرد في حديث مع الآخرين، تناثرت الفتيات القلائل بالمطبخ، ساعد بعض المهندسين الحاج حميدة حول النار في شيء اللحم بعد أن قام بسلخها، وفي أحد الأركان بالحديقة وقف كلب ينتظر العظام، لم تحضر امرأة ليبية الحفل، والنساء اللاتي حضرن بقين بالداخل، عدا ميرفت وفاطمة فقد كانوا على معرفة بالجميع، ولهذا طرقتهم جميع الأمكنة دون تكلف أو وجل، أما مريم فقد كانت أكثر تقديرًا لنفسها، ولهذا لم تخرج إلا لاستقبال رئيس مجلس إدارة المؤسسة عمر بوزوي، الذي جاء متأخرًا عن مواعده كثيرًا، كان قد مضى - عام على عودتها للمؤسسة ولم تكن قد وجدت نفسها بعد...

في هذه الليلة ارتدت ميرفت فستانًا عاريًا كشف عن ظهرها ومقدمة نهدية، بعد أسبوعين سترك ببغازي إلى القاهرة، ويبدو أنها قالت: اليوم لا أبالي ولأجعلهم يلتوون لفراقي.

عندما أعلن المهدي عمران للمدعوين بالحفل الصغير أن ميرفت سترك العمل بالمؤسسة، قدم لها هدية رمزية عبارة عن شعار المؤسسة، وقد رسم على طبق من الفضة، وساعة نسائية أنيقة من طراز روكس يتجاوز ثمنها ألفي دولار، ثم

أضف عبارة صغيرة فسرها المدعون تفسيرات شتى... لقد أضف قائلاً: لكوننا نعتز بها لأنها من أكفأ موظفي الإدارة بالمؤسسة، وكانت دوماً أمينة على أسرارها، فإننا ورغم أنها قررت العودة إلى مصر- وترك المؤسسة، فلن تنقطع علاقاتنا بها على المستوى الشخصي-، وسيظل الباب مفتوحاً لها عندما تشاء العودة في أي وقت.

قال البعض: لقد زُكيت بالأحذية في أرادفها، هكذا هي عادة المؤسسة عندما يتركها إنسان، وقال آخرون، إنها اختلست أموالاً، وقد بكت وتضرعت إلى عمر شخصياً، حتى لا يثير لها فضيحة، وقال آخرون: إن المهدي دخل غرفة مكتبها، فوجدها في وضع مريب مع أحد الموظفين، قال الشباب: إنهم يقصدون بالعلاقات الشخصية التي لن تنقطع العلاقات الجنسية، عندما تعود ستبحث عن زوج قواد، حيث تستطيع استقبالهم بحرية، الحقيقة كانت على خلاف من ذلك، وعلى غير ما أشيع، فقد استدعاها عمر بنفسه إلى مكتبه، حيث بقيا منفردين، ودار بينهما حديث طويل، طلب منها في نهايته أن تترك العمل في بنغازي، وترحل فوراً لملاحظة الأعمال الجديدة في القاهرة، أفهمها ضرورة الحصول على الخبرة اللازمة حتى تتمكن من تحمل المسؤولية في بعضها... ولم يكن قد حدد هو بالضبط مسؤولياتها، لكنه ترك الأمر للظروف، وبقي البحث عن بديل لميرفت، فرشح المدير المهدي عمران فاطمة كي تحل محلها في منصبها كسكرتيرة رئيس مجلس الإدارة وأمينة سره...

وفي الوقت ذاته أعلنت استقالة زياد ومريم... كان يبدو أن المؤسسة تفرغ صفها الثاني.

عندما التأم الجمع، كان الحفل في أوله انتحى المهندس زياد جانبا على أحد درجات السلالم، وأمسك جيتاره، وراح يدندن ويضبط أوتاره، ثم غنى إحدى أغنيات الحب الأوربية الحزينة... سمعت مريم صوته، وصوت التعليقات المكتومة الساخرة، والنكات التي أطلقها وتغاضى عنها، وعبارات التشجيع التي تحمل معنى السخرية، فامتعضت وأرسلت في طلبه من الداخل... في حجرة النوم نهرته قائلة: ما تفيدك هذه الصببانية بشيء، دعنا ننهي هذا اليوم بخير، وما تذلل بكرامتنا الأرض بهاي أفعال مشينة...

- ليش بدك تؤنبيني؟ ما قلت لك دعيي أتحدث أنا وياه شخصيا؟

- ليش ما تفعل؟

- قلت لي: اكتفي بالحديث مع المهدي عمران، وقد فعلت، هلي بنخسر خمسة آلاف دينار على الأقل.

- ليش تظنه كريم، ما بدني شيء... يكفيني أنني أرحل عن هاي المباءة.

- مباءة... ولكنها هي التي جعلت منك صاحبة عشرات الآلاف من الدنانير.

نظرت إليه بغيظ شديد، قالت وهي تضغط على أسنانها:

- ولكنني لا أعتبرها فقط مباءة، بل عصابة من عصابات المافيا.

- الآن تتحدثين في شجاعة.

- على الأقل لم يصبني الجبن لحظة.

ارتفع صوته قائلاً: ستعودين إلى ذات الاسطوانة.

- سأعيدها مرات. أنا ما جينت أمامه، وما تركت له فرصة واحدة من شان يهيني أو يمسح بكرامتي الأرض كما يمسح فراش قاذوراته، وإما اللي أخذته، أخذت أنت أضعافه... كان قانونا تلعبون به جميعاً، لكني لم أرق ماء وجهي، ولم أركض خلف مقاولي الباطن، ولم أبحث عن عربة أسمنت كي أبيعها مناصفة، ولم أمد يدي رجاء وتوسلاً كي يرفع راتي.

- عجز... عجز... كل اللي بدك تقوليه عجز... تظني أنك بتقدري تنزلي المستنقع من دون بيتل رداء الشرف تبعك.

أجابت وهي تنتفض من الغضب والعصبية ورياح البغض تملؤها: لك... أنا ما أصير ألعوبة بين يدي الآخرين، وما أخذته ما يعادل اللي فقدته من عمري وشبابي، ولن يمح ما لوثت به نفسي، ككلم ملوثون بقاذوراته ولوثتموني معكم، أنت أخذت مالاً تعتقد أنه حقك، وأنا أخذت مالاً بعرف أنه مسروق، وسواء أخذت أو لم آخذ فلن يغير من الأمر شيئاً، كنت تسبح في بحر من النهب... لكني على الأقل رفعت له

مشروعاً من ثمانية ملايين إلى ثمانية عشر مليوناً من
الدينارات.

صفق لها، قال في سخريته: عظيم... ولما أنت على هاي
الدرجة من المهارة في سرقة أموال الدولة الليبية ليش ما
تحلي محل بوزوي نفسه.

استمرت دون أن تلتفت إلى سخريته وهي ترغب في أن
تثيره... تستفزه... تلعنه.

- أما أنت، فقد كنت خرقة الجميع، بداية منه حتى أصغر
ملاحظ.

- اخربي.

- طلقني.

هوى كفه على وجهها، أمسكت بوجنتها، صمتت
وعيونها تحمل له بغضاً عارماً، واندفع هو إلى الخارج
منفعلاً، لكن أحداً لم يلاحظ شيئاً.

عندما انتهى العشاء، وقف المهدي وتحدث قائلاً: اليوم
نحتفل احتفالاً صغيراً بنهاية المرحلة الأولى من مشروع
معسكر المدفعية، إذا كنا سعداء لهذا، فإن سعادتنا أكثر
لتعاوننا جميعاً في إنجازه، وأنا نيابة عن الأخ رئيس مجلس
إدارة المؤسسة باسمي شخصياً أؤكد على الجهد المشكور
الخاص الذي قام به المهندس زياد والمهندسة مريم، والذي
أعلن أسفاً قرارهما الاستقالة. وإذا كان هذا خبراً محزناً

للجميع، فهو محزن لي شخصياً، ومحزن لرئيس مجلس إدارة المؤسسة للعلاقة الحميمة التي تربطنا بهم شخصياً، ولشخصيتهما القديرة خلقياً وفنياً وإنسانياً، حيث قاما بجهود عميقة في القيام بواجبهما الفني والإداري وتعاوناً مع المؤسسة، معنا شخصياً في حل المشاكل والعقبات التي واجهت العمل بالمؤسسة، وتقديراً لهما ولجهودهما تقدم المؤسسة للمهندس شيكاً بألفي دينار... تصفيق... يقوم المهندس زياد بالمصافحة على يد عمر بوزوي في شكر وعرفان، وقد نال ما ابتغاه، ويستدير إلى المهدي عمران فيقوم على مصافحته هو الآخر، حيث يقوم الثاني بتسليمه الشيك، ويستطرد قائلاً: تقدم المؤسسة للمهندس زياد شيكاً بألفي دينار... تصفيق مرة ثانية، مكافأة بسيطة عن إخلاصه وتفانيه للعمل، أما المهندسة مريم، ولا أعرف إن كانت تتذكر هذا أم لا، فإنه احتفالاً بعيد ميلادها وهو الذي يوافق اليوم... دهشة وهمهمة بين الحاضرين وأصوات تتعالى: كيف عرفتم؟

أجاب المهدي عمران: لا يخفى شيء على المؤسسة...

ابتسمت مريم في تكلف تخفي اضطراباً، استطرد المهدي عمران موجهاً لها الحديث:

- إذا كنت نسيت عيد ميلادك، فالمؤسسة تذكره (ضحكات وتصفيق)، لكن المهدي عمران طلب من الحاضرين الصمت والاستماع واستطرد: وكلفته كريمة من

عمر، فقد قرر أن يقدم لها مكافأتها على سبيل الهدية تعالى التصديق والتهاف، تصاعدت ضحكات وتعليقات مكتومة، ابتسامات غيرة وحسد وشماتة... واستطرد يريد أن يقدم لها هدية ثم التفت جهة عمر بوزوي وقال: ما هي يا أخ عمر الهدية، وتوجه إلى الحاضرين... فأنا لست أعرف عنها شيئاً... سار متوجهاً نحوه... كان يخرج من حقيبته علبة من القطيفة السوداء... فك أربطتها، وقد تجمع حوله البعض تأكلهم اللهفة والانبهار للأضواء التي تتلألأ من الخاتم السوليتير الذي أمسك به، وكان أول الذين جاءوا برد الفعل هو زوجها زياد الذي اندفع فرحاً، وهو يصيح لرؤية الخاتم، وأخذ العلبة من المهدي عمران، وراح يلف بها على المدعووين، الصيحات تتعالى إعجاباً به وتساؤلاً عن ثمنه، وانتشر ثمنه سريعاً بين الحاضرين، وإن كان لم يعرف المصدر الذي استقى منه السعر، ربما علي جمعة أو المهدي عمران.

بهتت مريم وقد أجمتها الصدمة، وداهم وجهها الشحوب، وهي تحط بعينها على شايبين من مقاولي الباطن السوريين، وقد انتفضا من الإهانة، بصق أحدهم وقام دون اعتذار يتبعه الآخر راحلين، فحط عليها الرعب لقد نال منها أخيراً، انتقم من كبريائها، لقد لوث شرفها الذي دافعت عنه بشراسة وسط غابة الذئاب، دار برأسها الصداع، والهدايا توزع على الآخرين.

آلات تصوير وكاميرات سينمائية، تليفزيونات للملاحظين، وشهادات تقدير، وزياد يقفز متهللاً حاملاً آلة تصوير يلتقط الصور للآخرين ويعبر في شكر وعرفان عن إخلاصه لسيده، وقد اطمأن أن الأمور سوف تسير على ما يرام، ولن يأكله عمر بوزوي كما فعل مع الآخرين، حتى لو كانوا ألصق الناس به... ألفا دينار، وتأشيرة خروج من ليبيا على جواز سفره، لقد نفذ بجلده دون أن تنتاب الرغبة عمر في وضع قيود الحديد في يده ثم فكها، نزوة من نزواته، امتلأت مريم بالكراهية العميقة للجميع، كان الهتاف والتهليل يرتفع حولها، وزوجها يقف بجانبها، وعمر بوزوي يضع الخاتم بنفسه فوق خاتم زواجها، هتاف وتهليل والصداع يأكل رأسها، والفكر يأخذها مأخذ شتى، تدرك أي قصص وأمسيات ستتعبها، وتمنت لو أن هذا الكلب رفض، فيساعدها أن تقف أمام هذا التيار القوي، فترفض هي الأخرى لكن بوزوي لن يقبل إهانتته أمام كل هذا الجمع، سوف ينكل بهما أيما تنكيل، ولن ينتهي الأمر إلا بما هو عليه الآن، لقد لوث شرفها رفضت أو لم ترفض، وسوف تلوك بنغازي سيرتها منذ الصباح، وستتبعها إلى مدينة التل في خلال أسبوع على الأكثر، لو أن زوجها أخذ العلبه عنه ووضعها في جيبه، لو أنه هو الذي وضع الخاتم في إصبعها وليس هو، لو أنه أعطاهما كما أعطى زوجها نقوداً، لبقى الأمر طبيعياً، ولما فكر في إدانتها أحد، إنها الأعمال وعلى الأكثر سيقولون جزء من حقوقها، والقليل سيقول مرتشية، أما

الغالبية فسوف ترى هذا الخاتم الذي سيفقد نصف ثمنه بمجرد خروجه من ليبيا الإدانة والامتهان، لقد هبط بها إلى مستوى عاهرة وزوجة لقواد... ولن يلبث الأمر أن يصل إلى مدينتها بواسطة مقاولي باطن التل بسوريا، فنصف مقاولي الباطن في بنغازي هم من أهل التل، وصرخت:

- لقد قضى - عليّ، اعتصرني كبرتقالة وامتص لحمي، ثم كذف بالبقية مني في احتقار إلى صفيحة القاذورات.

في منتصف الليل بعد انتهاء الحفل أصيبت بانھیار عصبي، ولم تمض ثلاثة أيام حتى رحلت وحيدة عائدة إلى التل وقد حصلت على الطلاق.

في عصر - اليوم التالي لوصولها التل، خرجت من منزل الأسرة، وهي ترتدي قميصًا وجوبًا من البنفسج الفاتح وجاكيت بنفسجيا بأزرار نحاسية، أسدلت شعرها حول كتفها، وقد لفته كالموج على جبينها، جابت طرقات المدينة الصغيرة، وأمام منزله رفعت باب الحديقة عبرت إلى الداخل، صاحت:

- ما في حدا هون؟

لم يجبها أحد... عبرت الحجرات إلى غرفة مكتبه، هناك تمددت بانتظاره على الأريكة... قبالتها وجدت صورة للرفيق جيفارا، كشرت فيه بامتعاض وهي تزوم بفمها غيظًا، كانت بعينيه دلائل انتصار وعزم لا يلبث... بعد ساعة تقريبًا

سمعت وَقَعَ أقدامه، وقف بالباب يحدق فيها، كانت تمسك بكتاب تقرؤه ضم عيونه مبتسماً:

- عُدت؟

- نعم... ودخلت فليست المرأة التي تقف بالباب...

- وبعذك بترتدي البنفسجي... دخل وجلس بجانبها...
خلع عنها حذاءها.

كان الجزء الملتصق من جسديهما يبعث فيها الاضطراب، قالت وصوتها يختلج، وسوف نعيش بتقشف ولن تنظر أنت لأية امرأة أخرى... جذبها قائلاً:

- لن أتركك... تخرجين من هنا.

- ومن قال لك إني جئت كي أخرج... أنا باقية.

ضمها بشدة... كانت سعيدة... همست:

- مصطفى...

- أتركنا سنة نعيش بلا سجون...

- بلشنا.

- إيه بلشنا حبيبي... سنة... وبعدها افعل كيف ما بدك...

- سأشتري لك حذاء بلون آخر...

حذاء واحد، ما يعرف عنك البخل، وضعت ساعديها على كتفيه... تتلوى داخله وهي تضحك محدقة في عينيه: أنا...

أنا غبية... اليوم معك بالعمر كله... أنا ما بعرف إيش بسوي
إذا ما بتتزوجني.

وضع يده على بطنها. شعرت بها في ارتياح... قال:
بترك لك أطفالاً...

* * * *

الفصل الواحد والعشرون

صاح صوت عال كان يجاهد وسط الصخب والضجيج:

- وين العريس بييش يجلس جنب العروس... ناصر... وين ناصر... يا حميدة... وين العريس نريد أن نأخذ صور الحفل؟
- باهي. غادي يجلس مع عمر وحميدة.

كز ناصر على أسنانه وهو يصرخ في نفسه: اللعنة على العريس والعروس، وكل من له علاقة بالصور... جاء علي جمعة إلى الجمع الجالس: هيا... هيا يا ناصر؛ المصور معاه فيلمين بي يبعهم لنا... هيا يا أخي... قام ناصر متثاقلاً: باهي أنا قادم.

التفت علي جمعة للجالسين: ما تبوا تتصوروا... هيا يا ونيس... هيا يا عمر... تعال يا حاج تصور بجوار بنتك... بييش تفرح العويلة. وتقول هاذي صورة جدي...

قام الحاج يحمل جسده الضخم سعيداً يتخيل نفسه، وهو يقف بين ابنته في فستان الزفاف الأبيض وعلى رأسها طرحة العرس، وزوجها الشاب في بدلته السوداء الأنيقة، وربطة عنقه المدلاة على قميص ناصع البياض، كلاهما جميل، الشاب والفتاة، ابنته وعريسها وبينهما سيقف هو متجهم الوجه مرفوع الرأس... بين زحام القاعة الداخلية،

وقف العروسان في المنتصف حولهما، الأهل يتبادلون الأوضاع، عمر أولاً ثم ونيس وحميدة، باقة واسعة من حسان بنغازي وغيدها يدُرْن حولهما في هرج شديد، والسرور يحيط الجميع... آه ها هي خالة العروس وامرأة أبيه تتقدمان وتقفان بينهما، هذا خطأ، يجب أن تقف العروسان بجانب عريستها والأقارب من حولهم، توالى النسوة والعجائز والصبية، امرأة أبيها... آه... خالة العروس تبكي... آه يا بني لو كانت أمك هنا... ماتت وأنت بعد في الخامسة بعد أن تركت ولدين وفتاتين، كنت أصغرهما، ليش ما حضرت أختك خديجة، لوجاءت، تخفف عنك خوفك، ولأزاحت هذا الحمل الذي يملأ رأسك، زعمك تكفي خالتك... تعال يا حاج رمضان... تعال هيا وسعوا قليلاً تعال يا حاج خذ لك صورتين.

ما إن انتهى حميدة من صورته حتى ابتعد بحثاً عن زاهية، وجسده يصطدم بأجساد ونهود يخلق لها الزحام قانون التلاصق العابر، فثروي أجساد جفت...

بحث عن زاهية وهو يفكر... يوجد شيء مبهم في العروس... ليست طبيعية بوكل... ما هي سعيدة... وجهها أصفر شاحب، كيف اللي رايحة جهنم، يا ربي، هذه الفتاة، لو لمحت نظرات المقت التي تحملها إلى ناصر، تريد أن تحرقه، ناصر يؤدي دوره كواجب مفروض عليه، لا يوجه لها بصره قط، زواج هذا أم كراهية... ها هي:

- زاهية... زاهية...

التفتت إليه الفتاة في رقة سألته وفي عينيها تأنيب أحبه:

- وين رحى؟

- ما كان في شيء... آسف... سامحيني...

- عاليش نسامحك... أنت في إيش خطأت؟

- تركتك من دون نكمل حديثنا...

- باهي ما تحط في بالك.

- أنا نبي نقولك شيء. أنا لازم نقولك يمكن ما نستطيع
نتقابل فيما بعد.

- إيش تبي تقولي؟

- بخصوص اللي قاله أخوك...

- يا أخي. ما في شيء.

- بودي أقدم تفسيراً. المسألة بدأت لما قررت الحكومة
تجنيد الطلبة العام الماضي بالجيش الشعبي، ولما مات
بعض الطلبة في التدريب قامت مظاهرات طلابية ترفض
الأساليب الخشنة الشاذة اللي يستخدمها ضباط الصف مع
الطلاب، لانجد من يفهمنا كيف نعترض على هذه الأساليب
المنحرفة... هم يقولون الديمقراطية... لكن المشكلة أن ما
في أحد فاهم إيش تكون الديمقراطية، لو أتيح لنا حوار قد
يقتنع أحدنا بصحة رأي الآخر، لكن لا بد من ضحايا،

تفهميني... أقصد... أعني... ضحك حميدة... تأكدي أنني
مؤمن بالله ومحمد، ونشهد أمامك بالشهادة، أغمض عينه
وغمغم: لا إله إلا الله محمد رسول الله... باهي... ثم تجهم
وجهه ثانية ولكن لي رأي... لمصلحة بلادي... ولأني أحب
بلادي فيجب أن أدافع عنها ولو نموت...

قالت باسمة: توا تدير في فيلم.

ضحك: ماني شيوعي، هذا ما أريد أن أخبرك به، وإذا أردت
التحقق من صدق حديثي لك... التحقي بالهندسة...
صاحت:

- تريدين بالهندسة... هاذي كلية صعبة...

جذبتها صديقتها: هيا بيش تروح أتوخرنا واجد.

التفتت إليه، سألتها: تمشي توا؟

- نعم...

حذق فيها برجاء: تلتحقي في العام القادم بكلية
الهندسة... واستطرد مؤكداً: سأنتظرك...

قالت مستعجلة وهي تبعد: بعد ما ندري يا باشمهندس.

غمغم: كيف ما تريدين... الله غالب.

* * * *

الفصل الثاني والعشرون

بدأ المدعوون في الرحيل، وخف المكان قليلاً، لمح ونيس ناصر متجهما أصفر اللون، برزت عليه ملامح الإعياء... في عيونه نظرات إنسان ضائع، شعر بالقلق، عبر قاعة العرس إلى الداخل يقضي حاجته، في عودته رأى ناصر ممسكا ببطنه، انحنى بغتة، أسرع إليه ونيس يسنده، لم يكن يبصره فالتفت نحوه وجلاً، فلما وجد ونيس ارتاح قليلاً... شعر ونيس بالجزع، فعلى وجه أخيه تناثر العرق الغزير، سأله في لهفة: ناصر... إيش بيك... تعبان...؟

أجابه في إعياء: ينتابني الغثيان منذ نصف ساعة.

- تعال معي... تعال.

دلفا إلى دورة المياه... خلع ونيس عنه الجاكيت، وخفف من ربطة العنق، ضغط على بطنه بيده لأعلى، ممسكاً برأسه بيده الأخرى، دافعاً بها لأسفل... دقائق وامتلاً المرحاض بما

في جوفه، فعلها مرتين، فلما انتهى أخذه إلى إحدى الغرف
الداخلية... قاس النبض والحرارة، ضغط بأصابعه جانب
الرقبة... اطمأن قليلاً، قال:

- إجهاد... أنت مجهد كثيراً.

- يوم طويل...

- كل شيء باهي...؟

- أنا نبي يكون كل شيء باهي... لكن كيف؟ وأنف عمر
تسد المكان.

- ليش... ما انتهى موضوع الخطاب؟

- أي خطاب؟

- الخطاب اللي أرسلته لك درية...

- عرفت به؟

- نعم... قالوا عروسك أرسلت لك خطاباً، وعمر غضبان
واجد.

- وإذا كانوا يعلمون ليش فرحانين؟

- عرسك يا أخي... كل شيء به مشاكل وعقبات وفي الآخر
كل شيء ينصلح.

- نعم... لكن كيف تطلب فتاة من عريسها أن يمتنع عن
الزواج بها قبل العرس بيومين.

- تـواكل شـيء يتـحسن؟

- كيف أعرف؟ أنا أكاد أتهاوي من التعب النفسي- والإرهاق البدني... كل ما فكرت في نفورها المتواصل!... باقي ساعة أو اثنتان، وينفرد كل منا بالآخر.

- ما تـقلق... هـاذي أمور طـبيعية، كل العـرسان الجـدد يعانـون اضـطرابات على هـذه الشـاكلة... بعـدين كل فتاة ببـغازي تـتمنى تـكون زـوجتك، الأمر ببـسيط حتـى ولو صـار فيه مشـاكل في البـداية، فأنا متأكد أنك ستـجعلها تـعبدك.
- تـعبدني... هـه... كل واحد تـوا يعبد نـفسه... لا أظن...
كان يشـعر أن كل شـيء قد تم لحـساب أخيه عـمر حتـى عـرسه.

- ليش تـكون متـشائمًا... كل شـيء يـجري لنـهايته الطـبيعية.
- نعم، وهـاذي هـي المشـكل، خـوك وقع في مصـيدة مظلمة.
- ليش يا أخي... ليش تـفكر هـيك؟
- ما أعرف... طلبت مـني بالرسالة أتركها... تقول: ارحم مسكينة... ثم عادت أمام أبيها وعمر تنفي صلتهـا الكاملة بالخطاب.

- إمـتي صـار هـيك؟

من يـومين وأنا أغادر الشـركة، رأيت في مـواجهتي فتاة قـصيرة شـوي، تقف في خـجل، التقت عيوننا فـشعرت الفتاة باضـطراب، وأصـابني اكتئاب مـفاجئ، كأني على مـوعد مع

قدري، ما كانت تعرفني، مؤكّد سألت آخرين، وأنا أوشك على ركوب السيارة جاءت خلفي مندفعة، صاحت ملوحة بيدها:
أستاذ ناصر... تطلعت إليها، كانت مضطربة:

حضرتك الأستاذ ناصر؟

- نعم... مين أنت؟

- أنا صديقة درية... درية خطيبتك.

تنهت على الفور، وأنا أراها تخرج رسالة من حقيبتها،
تمدها بأصابع مرتعشة إليّ ثم قالت في صوت خافت:

- درية طلبت مني أعطيك هذه الرسالة.

- شنو بها؟ إيش تريد؟ إيش بالرسالة؟ تفضلي معي،

أرجوك يا آنسة.

همست وهي تلتفت حولها في خوف:

- أخشى أن يرايني أحد، أنا نمشي توا... تشاو...

ورحلت بسرعة... أدت السيارة وأنا أكاد أصطدم
بالسيارات الأخرى من حولي، لم أكن أعلم مضمونه، ولا
أدري إيش يحصل، خفت أن الأمر يخص العرس، يخص
البنّت اللي ح تكون زوجتي بعد يومين، فتحتة في الطريق وأنا
أقود السيارة لا أعرف شنو قرأت، كان الذي يدق في رأسي
هذه العبارة، "أخ ناصر أرجوك، ارحم مسكينة، دارت برأسي
الدنيا ولم أدر بنفسي- إلا وأنا أقف على شاطئ البحر، خمس
ساعات أسير جيئة وذهاباً بين البحر والشاطئ الصخري
للميناء، كيف عدت ومتى ذهبت لا أعرف.

* * * *

الفصل الثالث والعشرون

والآن يا بحر... كنت مسوقاً إليها... كم أنت هائل أيها المتوسط، مياهك تبلغ المحيط، وهذه الأمواج تحط هنا على شواطئ بنغازي، تأتي من شواطئ روما ومرسيليا وأسبانيا... بقي يومان على العرس... يومان فقط والداعرة تسألني أن أتخلي عن هذا الزواج، كم مهزلة مثل هذه شاهدت... أتضحك أم لا يعنيك الأمر من شيء... أيتها الأمواج أقبلي قوية هادرة، توالي الواحدة تلو الأخرى ولا تنكفي على أعقابك، ليس هناك من يستطيع أن يعود بك إلى الوراء، وأنت هنا منذ ملايين السنين، كم نحن البشر - أغبياء وسذج إن ظننا أننا أقوياء، من يبلغ قوتك... من يقبض على زبد أمواجك وأنا مثل الطريد، لماذا لم تفعلها أيها المعتوه وتزوج أمريكية، الداعرة تسألني أن لا أتزوجها وبقا على العرس يومان.

والآن يا بحر... كنت مسوقاً إليها... إذا كانت ممن لديهن مشاكل أو حبيب، لماذا تكون من نصيبي، عشرات الألف من الشباب يتزوجون بالطريقة التي أتزوج بها، لو أنني فكرت قليلاً لحصلت على فتاة أمريكية، لكنني أعيش كيفما يجب على الإنسان المتحضر- أن يعيش، لكنني ظللت أردد: يجب أن أتزوج من بلادي... بنات بلادي لا تساويهم نساء العالم أجمع... يجب أن تكون امرأتك مثار فخر أسرتك ومثار اعتزاز أمك، حتى لا يعاني أولادك من انفصام في الحياة، تزوج ليبيبة... وها هي القحبة تقول لي: يجب أن تكون متحضرًا، ولا تتزوج بفتاة دون أن تعرفها وتساألها رأيها...

أتعرف عليها! كيف؟ في مراقص بنغازي الليلية؟! أم في حفلات مدام جاكين ريدز وملاعب البيسبول؟ لو أن ردهات جامعة طرابلس مفتوحة قليلة لتمكنت من الاختيار، ولكنهن كن يعشقن التطلع للأرض، يتبارون في معرفة أعداد قطع البلاط، ورؤية أحذية أقدامهن.

أرجوك أن ترحم مسكينة... كذا... فهل ترحمني يا بحر، أسير إليك هكذا ثابتًا، أخوض في الرمال متقدما نحوك، حتى تلامس قدمي الأمواج فلا أترجع، أستمر وساقى تلمس مياهك الباردة، أستمر، حتى تصل المياه إلى منتصف الجسد، ثم الصدر، لا أترجع، أشعر ساعتها بأني سرت خفيًا غير قادر على الاحتفاظ بتوازني، أجاهد أسير وذراعي ملتصقتان بجاني لا أحركهما، تبتل الملابس، هذه البذلة

الأنيقة الثمينة، حافظة نقودي، يختلط الحبر ببطاقة الهوية، تصيب المياه الأوراق النقدية بالعطب، تبلغ المياه عنقي وتغطي عيني قليلاً... هنا ينقسم العالم بين سطح البحر والليل القاتم، وعند خط الأفق البعيد جداً تجتمع نجوم لا حصر لها... لماذا لا أستلقي بين ذراعيك وأروح إلى الأبد، حيث ينتهي كل شيء... كل شيء... الأسرة والأصدقاء والشركة والعملاء والبعثة الأمريكية والجامعة والقبة وهذا العرس اللعين... كل شيء... كل شيء... إلا الراحة الأبدية... يا للفرح لو تم هذا... يا لشدة القبضة الحديدية التي تعصر رأسي لو لم يتم! والآن يا بحر لو يصمت صخبك... لماذا يجاهد موجك في دفع كتف الأرض وكأنه يقول لها ابتعدي قليلاً... هل تأنف معاشرتنا... نعم لأنك نظيف... أنظف من كل مَنْ على وجه الأرض المليئة بالأوساخ والعفن، حتى لو أصابوك بروث السفن... لكنني كنت مسوقاً إليها... كنت مسوقاً إليها، ففجأة وبرعونة وطيش أحرق انتشلتني الحياة بسرعة من قلب القبة لتقذف بي إلى قلب العالم مباشرة... شركات التأمين العالمية والوطنية، السيارات والأفراد، السلع والمنتجات العالمية، المصانع وشركات المقاولات، والتأمين الملاحي، وأخيراً التأمين على صفقات الأسلحة... لقد سقط مني دفء الصبايا بالقبة، وملاحة بنات البادية، وصفاء ومجون الطفولة والزهو بالزهور التي تتفتح خلف مراعي الربيع وعند عيون الماء.

- ناصر... ترى بنت عمك تريدك غادي يم الوادي.

- إيش تريد؟

- معها طعام الغداء... وتنطلق في الفضاء ضحكة مغردة.

- باهي... توا نأخذ الغنم ونعدي غادي.

ويأتي نداؤها يرن في أرجاء الوديان الصغيرة:

ناصر... أنا هنا... هيا عجل يا أخي... تهبط الأغنام الوادي
مسرعة... خير يا بنت عمي... شنو معاي نأكله... وتجيب
عيون ضاحكة لطفلة يفوح منها عبق أنوثة هادئة:

أنت إيش تريد؟

- أي شيء.

- هذا خبز. وهذه فاصوليا... وهذه مكرونة...

- أيوه... أيوه... أيوه... كل هيك... كيف حملتيه؟

- وهذا بازيم وهريسة ولحم.

- افتح فمك.

- ليش.؟

- هاك.

يا بحر لما إن أطعمتها بيدي ابتسم جسدها يتعطش
للفواء، اهتزت طرباً والتمعت عيناها بفرح مراهق... قامت
مبتعدة تريد أن تقول أنا لك إلى الأبد، لو وضعك الله في

جهنم، سأختارها كي أبقى معك... لكنها غير متعلمة، تزوجت وهي في الرابعة عشرة، مضى- على ذلك عشر- سنوات تقلبت فيها لبيباً كما يقرب حساء في إناء، يغلي، ينتقل كل شيء من مكانه، ينخفض الوسط وترتفع الأطراف وتفور وتقذف أشياء تتسرب للرمال، في الأنية يعود كل شيء لمكانه، أما في هذا العصر فلا أحد يدري إلى أين يقذف به.

- ولماذا لم تتزوج من أمريكية؟

- أفضل الزواج في ليبيا.

- كلش حلو... أنت لبيي بحق.

يا للغباء! كل من تقابله يلقي عليك هذا السؤال، واستطلاع مجحف يملؤه... المرأة الليبية لا تضارعها امرأة في العالم... أنزوج من أمريكية... ولكن من يرضى بالزواج من مسر- جاكين... مطلقة وطفلان وعمر يناهز الخامسة والثلاثين؟!... تسألك في دلال مبتذل:

- كم تظن عمري؟

تجاملها قائلاً: تسعة وعشرين عاماً.

- كل الناس تقول ذلك ها... ها... يا لك من غبية... كل الناس تعرف أنك شارفت على الأربعين... هل تظنيني مغفلاً... بالطبع مغفلاً، بعد يومين سوف تقترن بفتاة تقول لك: أرجوك ارحم فتاة مسكينة... من الذي سيرحم مسكيناً

مثلي، ما إن نزلت من الطائرة حتى سألتني عمر: وحدك جئت أم عدت ومعك زوجة وطفل؟

- وحدي.

- رجل... استعد للزواج

- عندما تستقر أوضاع العمل.

- شنو بالعمل... أنا نبحت لك فوراً عن عروس...

كنت خائفاً من النساء، ولكن هل تخافهم يا بحر؟ كل نساء العالم تشبع رغبة عابرة لديك، لقد ابتلعت في جوفك منهن مثل عدد حبات هذه الرمال، ولكنهم يعدن إليك عاريات، في صدورهن نشوة... أما أنا، فقد كانت فتيات كاليفورنيا بعيادات شاهقات، مثل ناطحة سحاب لا تظال منها سوى مترين من درج سلمها الضخم.

- هاللو

- هاللو...

نعم هكذا يجب أن تكون مواطناً صالحاً، وشاباً محترماً، ورجلاً مهذباً، حتى ولو كنت ليبياً، ولو كنت تملك مبلغاً طيباً من المال، ولو كنت حسن المظهر، ولو كنت خريج جامعة طرابلس وتحاول الحصول على دراسات عليا... ولو كان أخوك هو عمر بوزوي، من يعرفه هنا، كل هذا لا يمكنك من الالتقاء بفتاة متعلمة من أسرة محترمة، المهاجرون كثيرون، والجنسية الأمريكية أغلى جنسية في العالم، وهم ليسوا في

حاجة إلى كل ما تقدمه، حتى لو كنت رجلاً شرقياً يحترم منزله، يطوي المرأة تحت جناحه لا يسمح لها بأن تظل عارية على الأعراب، كل هذا هراء أمام حبها العارم لكبها المدلل، الذي هو أوفى في حبه لها من حب بني البشر، تعلقها بكينا أنا والكب، حول هذه المسألة بالذات لا أستطيع أن ألتقي معها، ولا يتبقى سوى مسز- جاكين وطفليها والفتيات رثات المظهر اللاتي يعشن قاع المدينة.

- توجد عروس رائعة.

- من؟

- فلانة.

- قصيرة

- فلانة.

- غنية... لكن تعليمها متوسط.

- والأخرى.

- آه... تحب ابن حمد عليّ، كل المدينة شاهدتهم معاً.

- باهي، شنو تقول في.....؟

- متعلمة لكنه دميمة.

- وهذه؟

- لا. حق النبي يا بني ما تأخذ بنت بريك هذا الموظف المسكين.

- باهي، ولكن ابنة صالح البرغشي- جميلة، وأبوها من كبار تجار البيضاء.

- نعم... هذا صحيح، ولكن عرفنا أنها وأختها كانوا كيف الشراميط في حقوق طرابلس.

- معقولة؟!!

- أبيها يعرضها على الطشاني.

- عمره خمسة وخمسون عامًا.

- أيوه لكنه رفض.

- أنا لست متعجلًا على الزواج.

تمامًا كانت هذه إجابتي أيضًا عندما التقيت بمسر جاكين.

- هاللو.

- هاللو...

- أسباني.

- لا...

- إيطالي...

- لا...

- حسنًا، دعني أخمن...

- كما تشائين.

- أعتقد أنك لبناني، لي صديق من لبنان... هل أنت كذلك؟

- لا... لكنني على العموم عربي من ليبيا.

سألتني في دهشة: من ماذا؟

وجمت... لم تسمع عن ليبيا من قبل... قلت:

- جنوب البحر المتوسط بين مصر وتونس.

هزت رأسها في عدم اقتناع بادربي هاتف، قلت:

- القذافي... هل تعرفينه؟

فكرت مليًا ثم قالت في شك: القذافي... نعم سمعت به... فلسطينيًا.

هزرت رأسي وأنا غير قادر على التحكم في مشاعري: لا...

قالت بعدم اقتناع: آسفة... أمير نفطي.

تطلعت إليّ في إمعان فلم تجد موافقة. قالت في ضجر:

- لا أعرفه.

- لكنني أعرف نيكسون جيدًا، وأعرف من كان رئيس الولايات المتحدة قبله... جونسون... وقبلهما جون كنيدي...

- أنا لا أهتم بمن يكون رئيسًا للولايات المتحدة، اهتمامي الوحيد بفاتورة الضرائب آخر العام ونتائج الأطفال المدرسية... آه، عندي طفلتان بالمدرسة.

- الكبرى جانيت... أتعرف... كنت أشاهدك تعبر أمام المحل كل يوم، ماذا تعمل؟

- أدرس...

- أوه، طالب.

- بالجامعة... الدراسات العليا.

تغيرت فجأة وأخذت تنظر إليّ بشكل أفضل:

- دراسات عليا... ما هي؟

- التأمينات البحرية.

- رائع... هذا المحل ملكي... هل أنت متزوج...

- لا...

- متأكد؟

- نعم...

- وليست لك صديقة؟

- لا....

- لا زوجة ولا صديقة؟

- لا زوجة ولا صديقة... هل تقبلين دعوتي للعشاء؟
- لا أستطيع... لي صديق هو الآن في أوروبا.
- يا لسخافة الأمريكيات! ولماذا أسئلتك السخيفة؟
- لا توجد مشاكل، يمكنك الخروج معي للعشاء.
- أجابت وعلى وجهها ابتسامة واسعة: أهو عشاء جيد؟
- سوف تكونين مرشدتي.
- لا أمانع، ولكن يجب أن تعلم أن لي صديقًا وسوف يأتي قريبًا.
- متى نلتقي إذن...
- هذه نمرة تليفوني، تستطيع أن تتصل مساء الأربعاء القادم وسأخبرك.
- حسنا... باي...
- أوكيه جود باي.
- وفي يوم الأربعاء اتصلت بها:
- هالو.
- هالو...
- ناصر يحدثك.
- من؟
- ناصر التقينا في محللك.

أوه، ليبيان بوي... .. يا للداعرة! لست ولدًا:

- نعم، كنا قد اتفقنا على تناول العشاء معًا.

- نعم... نعم...

- هل لديك متسع من الوقت؟

- متى؟

- كما تحبين؟

- أوكي، هل ستدعوني على عشاء جيد؟

- نعم.

- أين؟

- لا أعرف، متروك لك.

- ليس لديك زوجة؟

- نعم...

- ولا صديقة... أنت متأكد؟

- نعم... نعم...

- أوه... أوه... كم الساعة الآن؟

- الخامسة إلا الربع.

- سوف أغلق المحل بعد ربع ساعة، نستطيع أن نلتقي
في الثامنة... يوجد فيلم عن الرعب... هل تحب أفلام
الرعب... أنا أحب أفلام الرعب.
- أي شيء تفضليه.

- حسنا، بعدها سوف نذهب للعشاء... آله... هل لديك
سيارة؟

- لا...

أجابت في شماتة وفرح: أنا لديّ سيارة...

- أين أقابلك؟ على ناصية شارع جادة أورليانز.

- لا أعرفها...

- أوه...

- آسف، أنا جديد بالمدينة.

- أوكي... سأنتظرك أمام باب المحل.

- هذا مناسب إلى اللقاء.

وهكذا تعرفت على امرأة ثرية، ليس بما يكفي، انتظرتها
والمطر يبدأ في التساقط، وحين حضرت جاءت بعربة قديمة
يهتز محركها، وعندما وقفت صاحبت بسرعة: تعال بسرعة.

قفزت إلى سيارتها... كم كنت أنيقا ساعتها، وكم كانت
دميمة، كانت قصيرة، قصيرة جدًا وضخمة وفي عيناها نظرات
إعجاب بالغ ولكني كنت قد سئمتها قبل أن أراها.

هل لديك سيارة؟ لا... أنا لذيّ سيارة... ملعونة وحقيرة
أنت... توليت دفع تذاكر السينما، انتحينا ركنا قصيًّا، أحطت
كتفها بساعدي، فسقطت في أحضائي، عندما أطفأت
الأضواء، بدأت أدلك جسدها... كانت مثل حشية جديدة...

- لست أمريكية...

- حقا؟!

- كم تظن عمري؟

- تسعة وعشرين عامًا.

هاها الكل يقول ذلك، جئت من البرتغال منذ خمسة
وعشرين عامًا، تزوجت، لدي طفلان، زوجي هجرني لفتاة
صغيرة، حصلت على الطلاق بعد ستة أعوام من الزواج...
هه...

- هل أنت سعيدة؟

- هه... ان السؤال سيكون أفضل لو قلت: هل تحبين

حياتك؟

- هل تحبين حياتك؟

- نعم... شقة صغيرة، محل لبيع الملابس القديمة على الطريق الرئيسية، دعوة أسبوعية لعشاء راقص لدى الأصدقاء... وبرامج التلفزيون.

- هكذا فقط.

- نعم... فقط... ماذا تظن؟

كانت يدي تلوك نهدها دون شعور بالرغبة، وجدت صعوبة في فعل هذا، فساعدي كان أقصر- من أن يلتفت حول كتفها، كي يبلغ نهاية نهدها الذي يقع في الجانب الآخر، رغم أنها اقتربت أكثر، أُلقت برأسها على كتفي... فيلم من أفلام الرعب السخيفة... كوكب نباتي في الفضاء الخارجي يقوم بغزو جماعي للأرض، تتقمص جزئياته البشر، يقاوم عدد قليل من الأفراد، لكن كل البشر- تتقمصهم الأجسام النباتية الغريبة حتى يبقى شخص واحد يطارده الجميع... وحدة قاتلة ورعب...

في درنة عار أن يصبح الإنسان غريبًا... عار، فعيون نساءها تمنح الدفاء... للجميع... كنت ألتقي في حوش عائشة أختي بأخت زوجها... يا إلهي! كنا نرتعش من نظرات عيوننا... وعندما ربتت على باطن كفها للحظات عابرة ارتعدنا وسرت في جسدنا شحنة هائلة من الكهرباء، أذكر تلك النشوة العارمة، موجة تكفي المرء سنوات كي يبقى على ذكراها.

- كم سنة ستبقى هنا؟

- سنتين.

- ألا تريد البقاء لمدة أطول؟

- لا أعرف بعد...

في المطعم الهندي هزت يدي في قوة، وكأنها تخفف وقع
قيمة الفاتورة عليّ، وسألتي:

- هل أنت سعيد؟

- نعم... وكانت تشعر بالشك.

- هل ستدعوني ثانية؟

- نعم... يجب أن أقول نعم، كانت كلمة مملوءة بالسأم،
شعرت أنني لا أعرف ما الذي أفعله، وما الذي يجري من
حولي.

- أعتقد أنني لست مثيرة لك... قلت كاذبًا: لماذا؟ أنت
جميلة جدًا.

- أشكرك.

وفي السيارة قبلتها قبلة طويلة، ولمدة عشر دقائق كان كل
منا يتبادل لسان الآخر، واختلط رضابنا بلا نشوة، ويدي
تلوك نهديها مثل قطعة من اللحم السمين.

- لا أريد أن يراي أحد معك... سوف أنزلك هنا...

- أوكي... أراك ثانية.

- تلفن لي تستطيع أن تجيء كل صباح المحل، عدا الإثنين والأربعاء فصديقتي تحضر. في هذين اليومين... باي، أنا ذاهبة لأحضر لبنا للأطفال... جود باي...

- جود باي مسر جاي... أيتها القزمة السمينة.

قال: وجدت لك عروستك... قلت في استسلام: منو؟

- درية ابنة حمد بوشناف... السنة الثانية في حقوق طرابلس.

- جميلة؟

- كيف البدر.

هزرت كتفي: باهي.

والآن يا بحر، ستعلم بنغازي بعد يومين... من يستطيع أن يمنع هذا العرس؟

- بوشناف تيس صغير... قال عمر يحدثني وهو جالس ممدداً على أريكة في الصالة.

صاحت به أمي غاضبة: ككك تشتم حمى ناصر.

دعاه يا أمي، أنا الذي سأزوج. وبعد يا عمر.

استند بمرفقيه على ركبته وقال:

- بوشناف هذا تيس صغير له محلان للذهب بسوق الجريد وأكبر محل لبيع الأثاث المنزلية في سوق الظلام

وأخر بشارع جمال عبد الناصر، وثلاثة توكيلات للسيارات:
واحدة يابانية وأخرى إيطالية وثالثة فرنسية... القرد لا
يكفيه كل هذا، يريد العمل في المقاولات... كان يهز يديه
متوعدًا.

- باهي يا عمر...

شوح بيده... وأناخ بظهره إلى مسند مقعده: باهي...
يعدي مصر- يحصل عمال بناء ويبيني ومعاه مهندس مصري
حديث التخرج لا يعرف شيئاً غير شهادته... أنا بروحي
نمزقتها، لكنه يحضر بيش يصير مقاول.

- باهي يا عمر... باهي... لكن القرد هادكاهي يبيش يشتغل
في الإسكان.

- ليش؟

- تسألني ليش... استدار بكتفه بعيداً عني وعن أمه
واستطرد وهو ساخط.

- أنت تظل بأمريكا سنتين وتيجي ما تعرف شيء...

ضحكت: إيش ذنبي، ما أتعب ذهني بالمقاولات من قبل.

قال باهتمام: ليش... ما تريد؟

قلت وأنا أهزكتفي: ما أريد... شنو دخلي بالمقاولات
وقرف السلاكة.

صرخ مستاء: ليش... القروود والتيوس والقوادين
يشتغلون بالمقاولات... مد إصبع يده يمنة ويسرة في جانبه
وأخذ يهزه في وجهي :

- عبد المجيد علي يشتغل حمال في ميناء بنغازي... ابن
أخته صار ملازم في الجيش... سنة واحدة صار معه ربع
مليون دينار... كان حمال... تعرف حمال يشتغل على
كرويسة... العبد السمين هذا الذي يوزن اليوم ثلاثة طن،
صار معه بعد سنة واحدة ربع مليون دينار واليوم يملك
اثنين مليون دينار، إيش تساوي شهادة التأمينات على البحار
هذه؟ تريد رأيي... مزقها...

- أمزقها!

- نعم مزقها... مزقها... سأضمن لك عملا يدر ذهبًا.

- شنو؟

- أن تكون شريكي.

أجبتة مندهشًا: شريك... أنا أكون شريكك كيف... وما
عندي خزينة أموال ولا شيكات بنكنوت، ولا خبرة أعمال
المقاولات...

وقف عمر وقال: وإيش يهملك... التيس هذا بوشناف
معاه فلوس يريد يشتغل في المقاولات... الإسكان ما تريح

قطوس⁽¹⁵⁾، وهو يشتم في الأشغال العسكرية، يريد يلحس
ترابها ويمسح أحذية العسكر... باهي... جاءني يقول: أخ
عمر... ناصر شاب طيب ابن حلال... أنا عندي عروسه...
قلت له: من يا حاج؟ قال: بنّي درية... قلت له: أنا ما
نستطيع نقول لك كلمة يا حاج... حق النبي أنا نتشرف
بنسبك ومصاهرتك... لكن تعرف مو أنا اللي يتزوج، أعرض
على أخي الأمر... ما يقلل هذا من قيمة ابنتك... لكن هك
سنة الله ورسوله...

صحت به مندهشًا: هيك قال لك الحاج بوشناف...

لكن عمر لم يهتم بمقاطعتي له واستمر يقول: باهي أنت
شاب فيك كل الصفات التي يتمناها حتى مولانا إدريس في
زوج بنته، لكن هو يبي يشغل ماله في المقاولات إيش رأيك؟
- ما أعرف إيش تبي بالضبط.

- هاك المشكلة... الحياة بيش تفهمها تمام... تبادل
مصالح... هو يبي يشتغل في المقاولات... معه مال يبي
يشغله... أنت شاب ترغبك أي فتاة... أنا بنشتغل في
المقاولات من 68... تعرف هه... كبرت... كبرت كثير... الكل
يتحدث عن عمر بوزوي... عمر بوزوي... باهي الحكومة
تدوي في الاشتراكية... الاشتراكية يعني التأميم، يعني إذا أنا
ظليت غبي، أكون كيف اللي يقول للحكومة، أنا هنا عمر

¹⁵ (امتن: قط

بوزوي، الرأس مالي الكبير، باهي شنو الحل؟ نهرب مش معقول، على العكس نوزع الأعمال، علي جمعة يصير شريكي في طبرق ودرنة، وبعدها يشتغل باسمه، لكن المعدات... التمويل... ميني أنا، أنا نصير كيف الأول لكن من الخلف، يتبقى مشروع سرت واجدابيا باهي أنا نعطيه لك، تتزوج بنت بوشناف وتصير شريكه، أنت أخي من دمي ولحمي وهيك ما نخسر شيء، إيش تقول؟

أجاب ناصر وعيونه مفتوحة على اتساعهم:

- أنقول إيش... أنا ما نشتغل في المقاولات...

أجاب عمر في حزم: باهي ما تشتغل في المقاولات لكن تتزوج بنته.

- أفكر...

- قال عمر في استهزاء: عندك أحسن منها.

- تقول كيف؟

- بنية أحسن من بنت بوشناف؟

- لا.

- باهي... باهي... اتفقنا.

- على إيش؟

- أنت ما تفهم، كيف عديت لأمریکا؟ أنا نخطب لك درية... حين تلاقي أحسن منها نخطبها لك... تشوفها إن

كانت زين باهي، اتوكلنا على الله... وإن لم تعجبك ندور في غيرها.

الآن ترسل لي وتقول: أخ ناصر أرجو أن ترحم مسكينة... أنا ما نستطيع نتزوج في ها الوقت، أريد أن أكمل دراستي، إنني انتظر منك أن تكون رجلاً متحصراً، رغم إنك تتزوج بنتا لم ترها من قبل. ضباب أسود يملأ رأسي أنقذني منه... وإني لموشكة على الانتحار... ولتعلم أنني لا أترك رغبة في آخر، فقلبي لم يعرف الحب، ولن يعرفه حتى الموت... أنا فتاة معقدة لا تناسيك، ورغم أني لا أعرفك فإنني أحترمك... أرجوك أجعلني أحافظ علي احترامي هذا، ولا تجعلني أفقده، فاتركني، سأكون مدينة لك بحياتي.

باهي يا بحر هذا هو خطابها، لكن لماذا توجهه لي؟ لماذا لا توجهه إلى أبيها الذي باعها؟

- مسز جاكين ماذا تبيعين في محلك؟

- أوه... الملابس القديمة... كثير من الشباب يفضلها على الملابس الجديدة وكثير من الناس لا يملكون شراء غيرها.

- مسز جاكين كم رجلاً أحببت؟

- أوه... أحب طفلي... يكفيني هذا الآن.

- لماذا؟

- من العسير أن يحب المرء... هل وقعت في غرامي؟

- ليس بعد... بدون حب، هل تكون الحياة مزعجة؟
- دون حب... سيكون لدي دائماً صديق... تعال الليلة سأقدمك إلى أصدقائي وصديقاتي.
- قولي لهم: أمير عربي من بلاد النفط.
- هووه حتى تتكالب عليك النساء.
- أنت تبالغين.
- لماذا؟ أنت تملك كل صفات الشاب الناجح.
- ليس مثلك.
- مستر ناصر، أنت جنتلمان حقيقي.
- جنتلمان... أشكرك، ولكن ماذا يعني أن يكون الرجل جنتلمان حقيقياً؟
- أن يكون متحضرًا... مهذبًا يحترم المرأة ولو يكذب قليلاً... أعتقد أنك سوف تسعد الفتاة التي سوف تتزوجها...
- هل تنوي الزواج من الولايات؟
- آه، لا أظن.
- لماذا... ألم تعجبك أمريكا؟
- سيدتي، بلادكم جميلة لكننا من عالمين مختلفين...
- يصعب على كل منا اختراق عالم الآخر... كما أنني أحب بلادتي...

- أتمنى لك حياة سعيدة، وزوجة موفقة مستر ناصر...
لنشرب نخب جنتلمان حقيقي...
باهي يا درية سأكون رجلاً متحضراً، وليرحل كل شيء إلى
الجحيم.

- عمر... عمر...

- إيش فيه يا ناصر؟

- أنا نبيك تـوا... تـوا فيه أشياء هامة.

- خير إيش فيه؟

- اليوم جاءني خطاب من درية.

- خطاب؟

- أيوه، تقول إنها لا تريد الزواج.

- ما تريد شنوا!

- ما تريد الزواج.

- وإيش تريد؟

- تريد تكمل دراستها.

- معاك الخطاب... أعطني إياه.

- هاك...

- هذا شغل صغار هذا... أنا نعدي تـوا نقابل بوها بيش

نتفاهم إمعاه.

- ما فيه تفاهم، هو يعطينا المهر والذهب وأغراضنا، كل

حي يروح لحاله.

- أنت في إيش تدوي، بنغازي تجي بعد باكر، بيش تحضر-
فرح ناصر بوزوي، وأنت تريد الأغراض... هادي تريد
صفعتين بيش تفوق.

- يا أخي لا صفعتين ولا شيء... أنا ما أريد أتزوجها.

- أنت الآخر تتصرف كيف الصغار... يا ناصر، هذا حال
النساء، هذه تريد عصا بيش تتروض وتصير كيف المستقيم
العدل... خليك توا نجيك... ما تتحرك.

بقيت يا بحر مكاني... ذهبت مني خيوط اللعبة... مصيري
يحدده آخرون... عمر وبوشناف... صرت لا أهتم أن تصير
درية بوشناف زوجتي أو لا تصير، كل بنات بنغازي لدي الآن
سواء... بيضاء سمراء حتى عبدة... متعلمة أو لم تصب من
العلم شيئاً... والآن يا بحر لا أريد سوى امرأة تنجب أطفالاً،
وتستطيع أن تعد طعام الغداء.

- مرحباً...

أجاب الحاج حمد بوشناف ملهوقاً:

- مرحباً يا ناصر يا ولدي... مين اللي نقل لك هذا الكلام؟

- أنا يا حاج... كنت نخرج من العمل لاحقتني فتاة قالت
إنها صديقة درية وأعطتني خطابا مع عمر... ريته؟

- هاذي كذبة يا وليد... هاذي كذبة... درية بنتي ما عطت
خطابات لأحد...

- هي تقولي هيك... صح ولا لا يا عمر... باهي بالله أخبره.

غضب الحاج حمد واجد، سأل درية، حلفت على القرآن أنها لم ترسل لأحد شيئاً وبكت. نظرت إلى عمر مرتبكا، كنت أشعر بالشك في قصة الحاج بوشناف لكنه استطرد قائلاً: حق النبي حدثني بنفسها... اطمئن أنا ما نخدع فيك...

عقب الحاج بوشناف: نعم يا ولدي، أنت تطمئن... ها دول حساد يبوا يخربوا بيوت الناس، أنا بنتي شريفة كيف اللبن الحليب، ما تدير هيك ولو على رقبته سيف، زعمك أنا نجرها على الزواج، هذا ما يكون حلال... وما يصير على سنة الله ورسوله، أنت لما تقدمت تأخذ بنتي أنا شورته، لأن الأمر صار أمرها ووافقت... ونقولك الحق كانت تستطيع تقول لا وما كنت أمنعها...

- باهي يا حاج...

- أنا نخاف ناصر يظن بينا سوء... إذا ما تريد الزواج هذا ححك يا ولدي، لكن لازم تعلم أن أنا نريد سعادة بنتي قبل كل شيء، هذه كلمة حق لازم نقولها.

- باهي يا حاج... باقي شيء تواء...

قال بوشناف معترضاً: أنا نريد نسمع هذا من فم ناصر، وإلا وحق النبي وحق الله الذي لا إله إلا هو، أنا نعدي الحوش غادي نجيب المهر والذهب، كل قطعة قماش وصلت حوشي، بنتي مش رخيصة، ما نفرضها على حدا.

- إيش رأيك يا ناصر... قول كلمة للحاج بوشناف...

ترددت طويلاً قبل أن أجيب، كان العرق يغمر وجه الرجل
ضخم الجثة، شعرت بالفضيحة التي توشك أن تحطم
شيخوخته:

- يا عمر الحاج بوشناف كيف والدي، وإذا كان الأمر
الأعيب حاسدين، وطالما أن درية أنكرت معرفتها بالخطاب،
فأنا ما عندي شيء أقوله...

- على بركة الله... توا نقرأ الفاتحة... باهي توا ننسى- هيك
أشياء... هيا... هيا يا ناصر، اذهب كي تنهي ما أنت فيه...
أحضرت بدلة الزفاف.

- غداً استلمها.

- باهي... باهي... اليوم تصل الخرفان.

والآن يا بحر... أجبرت على أن أسلم خيوط حياتي
للمقادير... فكلانا سيق مرغماً تجاه الآخر... لو كان الأمر
خدعة حاسد ستمر الأمور بسلام... لو كان الخطاب حقيقة،
فمعنا الله والليل الطويل... ليل أكبر من كل هذا الليل الذي
يحط عليك، أعمق منه وأشد كثافة وظلمة... ليل النفوس
المحطمة.

* * * *

الفصل الرابع والعشرين

كان الجميع قد انتهى من تناول الطعام، في الأنحاء تناثرت بوفرة بقايا اللحوم المشوية والمطبوخة، وتعلقت جلود الخراف المذبوحة من أرجلها الخلفية، وتدلت رؤوس الكباش لأسفل وقد راحت عنها الحياة، وعلى الأرض سال الدم طازجا، وتناثرت السكاكين حولها، أرسلت امرأة الأب غلامًا صغيرًا يدعُو ونيس من بين الجمع الذي التف حول المصور الذي يقوم على تصوير العروسين، طلبت منه أن يساعد أخاه حميدة في ضيافة الرجال القادمين من البوادي، الأمر الذي أثار استياءه، لكنه وجد أمه وثرثرا في إنهاك شديد، وقد وقفوا بين تلال من الأواني، وبقايا الطعام، لمحته أمه فدعته كي يحضر- لها أشياء عديدة، لمحته خيرية فجاءت إليه مسرعة، ومعها ميرفت فاستاء من المصرية وقد خطر بذهنه... كيف لها أن تعبر مجالس الرجال دون تردد. لاحظ

أنها على معرفة بغالبية الموجودين، تساءل بنفسه كيف لها أن تكون على معرفة بأمر الحامية الشرقية، وكيف تصعد لغرفة عمر العلوية تستقبل ضيوفه من ذوي الحيثية ربما علاقات العمل... ربما أشياء أخرى... لم يهتم، ورغم أن خيرية قدمتها له إلا أنه لم يلتفت إليها، سألته خيرية:

- لِمَ لم تأت يا دكتور؟

- راك كيف إحنا مشغولين... سامحيننا... نظرًا إليها وقد شعر بالقرف، فقد ارتدت بنطالًا أسود شد على أردافها مبرزًا تفاصيل جسدها، وبلوزة قصيرة حمراء تلتف حول خصرها بحزام من ذات القماش، تكشف عن ساعديها، بينما برز نهديها وقد ضاقت بهم البلوز، وحول جيدها لفت إيشارب حريريا بلون البلوز... سألها:

أكلت؟

- نعم ولكن إذا كنت تدعوني فإني أقبل...

- ما تخافي من السمنة؟

- على أيهما تفضلني...؟

- نظر إليها من أسفل إلى أعلى، وقد أحسن بها داعرة، قال بخشونة: لا على هذا ولا على ذلك.

- إذا على الأشياء؟

وأثارت إجابتها حنقه، أجاب بغضب: لا أفضلك على الإطلاق.

- شنوو... تظن أعرض نفسي- عليك؟ مين تكون؟ دكتور... طظ.

نظر حوله في قلق، لم يجد أحدًا فانسحب سريعًا، بينما جذبتها ميرفت بعيدًا، وانتهى العشاء، ورحل معه أربعون خروفاً، سأله أبوه أن يدعو عمر فقد حان الزفاف، بحث عنه بالطابق العلوي، فلما عاد وجدهم جميعًا يتحدثون مع أهل العروس... كان ناصر يريد أن يدخل بعروسه دون أخذ عرضها، لكن أهلها اعترضوا بشدة وقال أبوها: ما نتحرك من هون دون ذلك.

تعالى النقاش والحديث، وقد أخذ الاشمئزاز بونيس مداه، على المدخل وجد خيرية ناعسة تستند بيدها على الحائط، والتمعت نظرتها للحظة لم يدرك معناها، وفي اتجاه نظرتها كانت أختها ثريا منهمكة في حمل طفلتها النائمة إلى سريرها... أحس بنيران الكراهية العميقة التي تحملها خيرية لثريا تسعه، أصابته غصة، وداهمه شعور بالإشفاق على امرأة أخيه، وبجانبه بلغ الصخب مداه حول حفلة الدم القادمة، قالوا:

- هيك العرف... التقاليد...

وأجاب ناصر: ما أشك في بنتكم، كيف تشكون بها؟

انتفضوا، وقد زادهم حديثه إصرارًا وقال أحدهم: لست رجلاً؟

أجابه: موهيك يا بن عمي، صرنا متعلمين متحضرين، هذه عادات بالية...

قال الشايب عم العروس: كك؟ يعلمكم التعليم الجبن؟

ولم يكن هناك بد مما يريدون، استسلم ناصر على مضض، لا يستطيع أن يتصور نفسه مع عروسه في هذا المشهد الجماعي المخيف...

زفت العروس حتى حجرتها، وهي تبكي، ومعها خالتها بدلاً من أمها المتوفاة، وقد نفذ الدم من وجهها، ودخل ناصر وعمر وأخو العروس، ودفع الموجودين من أهل العريس، ونيس الذي رفض بقرف، لكنهم أجبروه على الدخول، انتحى جانبا مديراً وجهه، على الباب جلست النسوة من أهل العروس وأعمامها بالخارج، بانتظار عرض ابنتهم، وقد تعالي الضرب بالدفوف، وأغاني العرس في ضجة عالية تغطي على ما يدور بالداخل.

حاولوا الاقتراب منها فصرخت:

لا... لا لن تفعلوا... ابتعدوا عني... ابتعدوا... داهمها بكاء شديد وهي تتصرع لهم من خلال دموعها... ارحمني يا بوي... ارحموني... أبوس أقدامكم... بدأت تقاومهم، لم يأبهوا بصراخها، فكل الفتيات تصيبهم نوبة الهلع هذه عند

أخذ عرضهم، أمسكها أخوها من ذراعيها، فاثنتت تحاول الإفلات، طار شعرها الطويل حول رأسها وهو ينثني بعصبية يمنة ويسرة، اجتمع عليها أخوها وخالتها والرجال، جذبوها من الفراش إلى الأرض، فسقطت على السجاد والوسائد المتناثرة عليه عضت أخوها فضحك بجنون:

أتروي على شوي... لا تزعجي هكذا.

وقالت خالتها: الأمر هين يا ابنتي إيش بك؟

إلا أنها تملصت من يدي أخيها، دفعت ناصر في صدره وكان يقف أمامها ببلاهة، لا يدري ماذا يفعل والدم يهرب من وجهه... حزن ونيس ودخله غضب عميق للفتاة المهانة،... أسقطها أخوها بعنف على الأرض ثانية، فوقعت على عجزها، وارتفع ثوبها عن فخذيها، فمدت يدها بسرعة خاطفة تخفي جسدها المكشوف. ارتعشت ركبتنا ناصر، وانطلقت من الفتاة صرخة مدوية شقت صدر ونيس والرجال وهي تصيح:

- اتركوني... اتركوني يا كلاب... صفعها أخوها بشدة فانثني الوجه لشدة اللطمة، امتلكها من ظهرها، مد ذراعيه يساعده الآخرين وأمسك بساقيها يجلسها، جذبها بشدة للوراء، صار والفتاة أمامه قعيدة الأرض ترتكن بظهرها إلى صدره، أجلسها القرفصاء مباعداً بين فخذيها، برز فرجها.

نظر ناصر إلى لحم فخدتها الأبيض العاري، وما بينهما فأصابه الدوار، وقد تحولت الحياة حوله شيء من المخاط... مخاط... مخاط... لم يكن قد رأى فرج امرأة انتزع شعره من قبل، فكان قمينا مثيراً لاشمأزاه... غام صدره يود لو يتقيأ... دفعوه قائلين في عصبية ونهر: ادفع بإصبعك...

اقرب قعيذا وهو يهمس: لا أريد.

انحنى إلى أسفل وجسد الفتاة أمامه ينتفض وقد أمسكوا بفمها يمنعونها من الصراخ، أقعي ببصره عليه مرغماً، وهو على وشك القيء، وهم يحرضونه أن يعجل، فلما لامسها بإصبعه المرتجف التفتت إليه فجأة كالملدوغة، والتفت عيناها لوهلة، كانت تشع بلهب الكراهية والبغض والغضب، دفعت برأسها للخلف فهربت الكف التي تكمها وقالت: شنو تريد...

أحس بنصف إصبعه يغوص في اللحم الفاسد النتن وعاده صوتها: شنو تريد؟ أنا امرأة... مو عذراء... عرفت ما بي عذراء.

حل الذهول على الجميع، والتفت ونيس الذي كان يكبح جماح نفسه عن الرؤية فشاهد منظرها بشعاً... كان أخوه يسحب إصبعه المضاء بالنضح مذهولاً...

وصرخ أخوها به: أدفعه... ادفع إصبعك يا ابن الكلب، ادفعه يا قواد يا قرد يا مرة يا تيس ادفعه. كُنْ راجل وادفعه.

نهض ناصر، أخلى الأخ سبيل الفتاة وهو يصرخ بها: لهيك
تقاوم القحبة؟

انهال عليها بالضرب المبرح القاسي، ركلها في كل مكان من
جسدها الملقى على الأرض، يصرخ: سأقتلك... صاحت
خالتها: ما تصدقها... ابحث بها... هي لا تريد الزواج... هي
ليست كذلك... لشنو يا ربي؟ لشنو؟

فاندفع نحوها أهلها مرة ثانية، ف وقعت تحتهم ممددة،
وقد انكشف نصفها السفلي، وتمزقت ملابسها، أمسكوا بكل
شبر من جسدها، غاص أخوها بإصبعه طويلاً وهي تصرخ
من الألم... وراح يجول به في استدارة كحد السكين ولم يكن
هناك دم.

لدقائق بقوا ينظرون ثم أرخوا سبيلها، ودفعوا عنها أخوها
المجنون، أقعت في ركن الحائط منكوشة الشعر ممزقة
الثياب يبرز جسدها، وقد اختلطت الأصباغ بدموعها، وراح
كل من يستطيع أن يصل إليها من أهلها يضربها... واندفع
ونيس وعمر يمنعوهم عنها، وعمر يصرخ في ضراوة،
خدعتمونا، لن تقتلوها هنا... أعطونا الذهب وأعيدوا لنا
مالنا... خذوها معكم واقتلوها هناك بينكم... لن تقتلوها
هنا.

كان ناصر يشاهد كل ما يجري، وعروسه ملقاة خلف
أخويه لا يعي شيئاً، ونصف إصبعه الساخن المحترق المبتل
بنضج الفتاة يملأ جسده. بعفونة كلب نفق جسده، وبرزت

أمعائه يأكلها الذباب والدود، أفاق على صيحات أخيه عمر وكلمة القتل، فبلغ الإشفاق على نفسه وعلى الفتاة الملقاة وهم وهي لا يكتفون، فتقوم على ضرب رأسها بالحائط، فاندفع إلى أخويه هاتفاً في ضراعة:

- استروني... صمت عمر وصمت الجميع، ونظر إلى ونيس، أجابه بالموافقة فهتف بعمر: استرني... واسترها...

وكان رأس عمر يدور بلا توقف، تحرك من مكانه جاذباً يد أبي العروس جانباً، هتف: باهي... ثم قال له في تهديد: تكتب توا صكاً بالذهب ولبن الأم وفي الحال.

هز الرجل رأسه، صرخت درية، تشد في شعرها:

- لكني ما أريد... قامت تستند بجذعها على الحائط... ما أريد... قولوا الحقيقة... جنباء... قوادين... كلاب...

استدار أخوها وصفعها بشدة، سقطت على الأرض مغشياً عليها، منعه عنها ونيس وعاد الهرج ثانية... من مكان ما قصي. لم يستطع أحد أن يتبين مصدره جاء صوت من عمق سحيق... تطلع الجميع إلى العروس الملقاة بجوار الحائط... كان وجهها يتقلص، وحدة الصوت تزداد اتساعاً... والموجة تأتي من أعماقها ترتفع وترتفع... امتلأ رأسها بطنين هادر يختنق في حنجرتها، يطرقها بشدة، وعلى وجهها كانت ملامح صراع داخلي، لحظة انهيار ثقب صغير وسط ألم هائل، انطلقت صرختها عريضة ممطوطة صاخبة، اهترت

لها أرجاء الغرفة، والكل ينصت إليها في رعب، وصرختها تطول وتطول، حتى خرجت كلها عواء، سقطت مغشياً عليها، وجسدها كله يتقلص، اندفع ونيس يبعدهم عنها:

- نوبة صرع... تدافع الجميع نحوها، لكن ناصر انتفض بشدة وهو يصرخ بهم:

- اخرجوا جميعاً... لا أريد أحداً هنا.

بهت عمر ثم دفع الجميع خارجاً ولكن ونيس أوقفه قائلاً: انتظر.

أخرج مطوأة الأظافر وهمّ بفخذها، تراجع ثم غرزها في كفها، سال الدم على قميصها، قال:

- ادفعوا به إلى الناس.

* * * *

الفصل الخامس والعشرون

هوى الضجيج والصخب، ورحلت قوافل السيارات الفارهة التي اصطفت أمام شوارع الفيلا، قاذورات مختلفة وأوراق متناثرة، قلت الحركة في الفيلا، أبواب تقفل على صوت الرتاج، ونوافذ تغلق، وكل يسرع في عجلة إلى غرفته في وجوم... جلسوا قليلاً حول أم ناصر والصدمة تكشف عن نفسها رويداً رويداً، تنمو وتتفتق وتنضج، فتفوح رائحة الفضيحة التي سوف تشهدها بنغازي غداً...

النساء اللاتي كن من المفروض أن يبقوا حتى الصباح من أقارب الأسرة رحلوا على عجل... اضمحلت الأضواء الباهرة، وخيمت على الفيلا أضواء صفراء كابية تحت خيمة سماء مظلمة، في حين بقيت الفوضى مثلما هي عليه... خرج الجميع من الغرفة، بقي ونيس مع ناصر وعروسه، ملقاة على الأرض، مصابة بنوبة الصرع، حقنها بمخدر فراحته في نوم عميق... حملوها إلى الفراش بعد أن خعلوا عنها ملابسها

الممزقة، ألقى ناصر عليها رداء النوم الذي أعد لليلة زفافها... خرج ونيس هابطًا إلى أسفل، وترك ناصر يدور في الغرفة مثل زنجي وقع لتوه بين يدي صيادي العبيد، استسلام وثورة وأمنيات بالغابات الشاسعة الممتدة تتخللها أنهار، جداول، حيوانات وحشية... أمنيات محكوم عليها بالعدم، العودة إلى الماضي، وبحر عبره في مركب العبيد، ما أسرع عبورهم، أما العودة فهي المستحيل... الآن عالم جديد... كم هو قريب من عالمه القديم، ولكن بينهما جدار سميك يصعب عبوره، إنه صك العبودية الممهور بعلامة الأسياخ المحمية لنخاسي العبيد.

خلع جاكنته، ألقى بجسده على الأريكة، ينظر إلى الفتاة النائمة أمامه، هبط كل من في الطابق العلوي الذي أعد للعريسين، حتى ثريا وابنتها انتقلت للنوم في غرفة صديقة أخت زوجها، ورحل عمر خارجًا يملؤه الغضب والشر، وكانت الصفقة خاسرة، حطمت أخاه، فضلًا عن سمعته.

دخل حميدة غرفته، وجد ونيس ممددًا بملابسه... خلع عن أخيه نعليه، وخلع ملابسه، ارتدى منامته، استلقى على الأريكة الكبيرة، وراح هو الآخر في النوم، وصرخة عروس أخيه تملأ أذنه لا تريد الرحيل.

كانت الساعة قد بلغت الثانية صباحًا، مازال الضوء مشتعلًا في غرفة العروسين، وناصر لم يخلع ملابسه بعد، وقد راح في نوم عميق على مقعده، استلقت درية نائمة على

ظهرها تحت غطاء فراشها الوثير... انتهى مفعول المخدر وحل محله نوم متقطع، وقد قبض على صدرها حمل ثقيل، شعرت بنفسها تسقط في هوة عميقة، شدت جسدها، لكنها كانت مغلولة إلى الفراش بقوة قاهرة، وساعداها وساقاها ممدان لا تستطيع الحراك... كان مصباح الغرفة يداغش عينيها، فتحت رموش عينيها... هي في حجرة نومها... أو هي رائحتها، أو أن حجرة نومها كانت في قاع عقلها تفور وتغلي لتصعد على سطح الشعور...

ولكن يا للظلام! حركت رأسها يمنة ويسارًا وجسدها تخترقه عيون تراقبها... من يراقبني؟ عيون من؟ نظرت إلى سقف الحجرة... وكان جسدها يأكله النمل... لمحتهم، عيون حيوان مسعور... إني عارية... عارية... لا أرتدي سروالي الداخلي... شعرت بالبرد والخوف الشديد... رفعت ساعدها كي تغطي نفسها لكنه كان مشدودًا يحمل ثقلاً إلى الفراش... حاولت وحاولت والعيون تحرق فيها بشدة وهي تدور حولها... ها هو باب غرفة نومها... تكة الترياس... ينفرج قليلاً يدخل شبح جسد أعرفه... من هو آه... آه... وصرخت بلا صوت وأعادها ضوء الحجرة قليلاً إلى الوعي فتحت عينيها... أغلقتها ثانية، ثم رفعت جسدها ببطء وضوء المصباح يضايق ناظريها... جالت بدهشة في سقف غرفة النوم الواسعة التي لم ترها من قبل... أهو كابوس آخر؟ حدثت في أثائها الفخم الجديد... رداء نومها... غمغمت: أينا أنا؟

شدت جسدها من تحت الأغطية إلى أعلى مرتكزة على مرفقيها المكدودين... انتصب جذعها على ظهر الفراش... أمامها لمحت جسداً ممدداً على الأريكة، حدقت به... كان ناصر نائماً ينتفض جسده في إرهاق... تذكرت أحداث الساعات القليلة الماضية، تقلص وجهها يأساً، وأغمضت عينيها على مرارة البؤس الشديد، انتفض الدم في وجهها الشاحب واستدارت بعنف، وهي تضرب الحشية بقبضتها الصغيرة وأجهشت في بكاء شديد.

من الذي يبكي... فتح ناصر عينيه بصعوبة، رآها أمامه منكفئة بوجهها على الفراش، وقد التأم ثوب النوم الحريري، على جسدها البديع، كاشفاً عن كتفين مثل العاج تظلم جداول شعر طويلة... حدق فيها طويلاً ورغم كل شيء... كان دفء الأنثى يشيع في حجرة نومه... امتلأ بمشاعر وأحاسيس العطف والشفقة... مسكينة... هكذا غمغم، وصوت بكائها الدامي المكتوم يفجر فيه ينابيع الحنان والشهامة... انتزع نفسه من المقعد يراعي ألا يحدث صوتاً... قام يواسيها... عبر الغرفة دون صوت ذهب إليها، وعلى حافة الفراش جلس بصعوبة مد كفه... لمس كتفها العاري هامساً:

- درية... درية... ضغط بكفه قليلاً وعاد يهمس:

- درية... درية... أنا آسف.

شعرت به، فأنثت بجذع مستديرة إليه، وعلى وجهها علامات الغضب الشديد، وفي عينيها تتوقد بركان من الكراهية والمقت، وصاحت به:

- إيش تريد... إيش سويت معي؟

أقلقته نظراتها: أنا نبي نعتذر لك...

- علي إيش؟

جذب يده عنها: باتك قال الخطاب الي عطيتني إياه صاحبتك غير صحيح...

- باتي...؟ ليش ما سألتني؟ بوي وعمر... تتجوز بوي وعمر.

قام مهمومًا من على حافة الفراش... وقد تكسرت شفقتة بالنفور من لهجتها ونظرات عيناها، غمغم لنفسه... أسألك... كيف... هل يجدر بي أن أتصل بها على انفراد قبل الزواج... عبر الغرفة عائداً إلى أريكته يفكر... تقاليدنا تمنع... لو فعلت ما وقعت فيما أنت فيه الآن... سلمت قيادك للآخرين فتحمل... سقط على المقعد مهزومًا... نكس رأسه وخيم عليهما صمت طويل... كسرت سور الظلام الذي يحيط بها، وتطلعت إليه من نافذة سجن عارها... ليس وسيما فقط بل هو جميل... فارغ... في قلبه طيبة... يا له من شاب تعشق الحياة معه الفتيات!

زاد هذا من فجيعتها، عادت تبكي وتبكي، فعادت الشفقة تملؤه، إنها في محنة... يجب أن أقف بجانبها... أحس بها عطشي... خرج وعاد وفي يده كوب مملوء بالمياه، وضعه بجانبها على دولاب السرير الصغير... نظرت في جزع حتى ابتعد، اختطففت الكوب، ثم عادت للبكاء ثانية... عندما خف بكاؤها قليلاً وحلت محله نهضة.

متقطعة... قال في صوت بدا متردداً ثم صار واثقاً عريضاً:

- درية... اسمعيني... الي حصل... حصل... وإذا كان بوك وعمر امتلكا قدرنا حتى اليوم، فمن غد يجب أن نملك قدرنا بأيدينا... لن... لن يفيد بكاؤك في شيء... ابكي حتى الصباح... ابكي عاماً بأكمله... نفثي عن نفسك، لكن لن تجدي في البكاء حلاً... صمت قليلاً ثم استتردد... أنا وأنت وضعنا في الجحر هذا، ترى مصيبة ولازم نلاقي حل... لازم نلاقي لها حل... أنا الي أخطأت... سقتك إلى هذا الموقف البغيض... لكن إيش أفعل، كنت واثقاً أكثر من اللازم... احترمت تقاليدنا أكثر من اللازم... أنت على حق، كان يجب أن أراك حتى بدون الخطاب... بدون شيء بكل... لكن كيف ألتقي بك على انفراد؟ كيف أعرفك؟ تعرفيني يكتشف كل منا الآخر... نحل مشاكلنا بدلاً من أن تتجمع كلها مرة واحدة... دعينا نترك بنغازي ونسافر إلى أوروبا... شهرين... ستة أشهر... عاماً بأكمله... كيف تريدن، حتى ولو أردت أن تبقى بالخارج طوال العمر... نقدر نفعل هك... درية أنا ما أعرفك من قبل،

سامحييني، لكنك توا زوجتي... شنو أفعل، ارتبط قدر كل منا
بالآخر، وأنهى الأمر... تحيي واحد آخر؟ قولي... إذا كنت
متعلقة بآخر، أطلقك من فوري... ما أقبل أعاشر امرأة
جسدها معي وقلبها مع شخص ثان.

ابتسم... حاول الضحك... سمعته يضحك... سألها:

- تحيي آخر... تأكدي أنني أصلح خطأي على الفور...
أجيبي، هيا أرجوك.

استقبل نظراتها كومضة ضوء من وراء دموعها، ورأسها
يهتز بعلامة النفي.

سارع بالقول: باهي... نبدأ من جديد... دعينا نواجه
المجتمع في شجاعة... أنا منبيش أعرف الماضي... أقسم لك
أني منبيش... ثقي بي... ثقي إنني ما أهتم بأي شيء جرى،
المهم اليوم وغداً. وعندما يصبح لنا أطفال...

أطفال... أطفال... أضواء قلبها... انطفأت كراهيتها له...
تطلعت إليه... وعيناها تقول:

- نعم أنا أرغب في ذلك... وسرعان ما انكفأت ثانية تبكي
بمرارة شديدة.

خالطه الأمل... وتفتح لنظراتها الأخيرة... قام إليها
ثانية... جلس على حافة الفراش، مد كفه إلى كتفها وراح
يهزه في رفق يهمس:

- كفاية بكاء، تواد نامي... غداً سأعد العدة للرحيل، نرحل إلى إيطاليا في أسرع وقت...

لكن نسيجها تصاعد... راح يرجوها أن تكف عن البكاء، وهو يهتف باسمها... سمعها تردد: لا أستطيع... فات الأوان... أنا نبي نموت... أنا نبي نموت...

- درية، لا تبكي... توقف بغتة... سألتها: شنو... ما الذي جرى؟

صاحت تتوسل إليه: ارحمني... ارحموني... ما في قلوبكم رحمة... أنا ليش ما قتلت نفسي...

لم يأبه لتوسلاتها، انهال عليها يسألها بجنون، وكلما زاد توسلها زاد جنونه: أخبريني... إيش فيه؟ أنا الآن زوجك... أنا ما نصير مغفل... أخبريني... ردي علي... توقي عن البكاء...

انكفأت على الفراش تهتز، تبكي بهستيريا، جذبها من ساعدها بعنف، يصرخ فيها... انتصبت أمامه بجذعها صامته... حتى توقف عن الصراخ...

عندما توقف، كانت عيناه مثبتتين عليها، مملوءتين بنار الغضب، ظلا هكذا طويلاً، يحدق كل منهما في الآخر... قال وهو يلهث: كيف نلاقي حلاً لهذه المصيبة، أخبريني إيش فيه؟ ما في شيء ما له حل...

ها هو خيط الأمل الرفيع... تعلقت به وهمست في صوت متهدج:

- أنا... أنا حامل... وعادت إلى البكاء في خفوت.

سألها غير مصدق: شنو؟

- حامل... حل صمت مخيف، نهضة ضعيفة، تركها من
عنف الصدمة... أغمض عينه... قام... كانت ساقاه غير
قادرتين على حمله... سار يتوكأ على الأثاث... وكأن الشيب
قد بلغ به مبلغه، وعلى كرسية سقط مهدوداً... هذه ليلة
الشيب.

آه... كل ما مضى - كان عبثاً... الآن هو أمام فعل حقيقي،
الحل إجهاض، والفعل جريمة قتل، ولكن من الذي فعل هذا
بها؟ من الذي حطمها؟ من هو أبو الجنين؟ عشيق... أم
اغتصاب... تدافعت في داخله آلاف الأسئلة حارة تلهث...
كان العالم يقف الآن ضده، ضد مشاعر الرأفة التي امتلأ بها
قلبه... إجهاض... من الطبيب الذي سوف يجهضها... زوج
يذهب بعروسه كي يجهضها، من يخفي سرّاً كهذا؟ وكيف
اختفى من قبل؟ من الذي سيجري لها العملية وبنغازي مثل
قرية صغيرة؟ عار سيتعقبن حتى الموت... أنا الآن مثل
غنمة وشمها صاحبها... زان يجوب القرى والصبية من خلفه
في قفص على حمار الخليفة... سوف أسير وعلى ظهري
علقت يافطة يكتب عليها كل امرئ ما يشاء، مسكين أو
مغفل أو قواد أو بائس... زوج الشر - موطاة... زوج
الشر - موطاة... من الذي فعل بها هذا؟ يجب أن أتركها... هذا
عبء يؤدي إلى الانتحار البطيء... حتى أطفاله سيكون هناك

يومًا من يلقي في وجوههم بسباب أو بحقيقة... أولاد القحبة... أجهضها ثم أطلقها وكل منا يرحل إلى طريقه.

كان ناصر منكس الرأس ورأسه تعتصره آلاف الأفكار، ودرية تعلم الآن أو تشعر أن مصيرها قد فرغ من أيديها الآن، هو الذي سيقدره... كانت فقدت القدرة على كراهية الشاب الجالس أمامها يعتصر- ألماء، وقد تلوث مستقبله بعارها... شعرت بذلك... لم تدركه جيدًا... لكنها تعلم الآن أنها أساءت إليه، وعندما فقدت الدافع على كراهيته، فقدت محور وجودها، وقوتها الوحيدة... المقت والكراهية... نهض شبحه من فوق الكرسي الذي جلس عليه، وها هو قادم وسؤاله يدق على مقدمة رأسها كالمطرقة:

- منو فعل هذا؟ جاوبيني...

لقد خطأ الخطوات الأولى نحوها بأثنا ضعيفًا، لكنه رأى الزعر في عينيها كان يعجل بتسارع الفكر في ذهنه... يجب أن أعرف الآن كل شيء... يجب أن أعرف الحقيقة الكاملة... قال:

- منو فعل ذلك...

استجمعت بقايا شجاعتها وحدثت في عينيه، وقالت وهي تلهث:

- ما نقدرش.

نبضة القوة التي حملتها إجابتها، جمعت خواطره حول هدف واحد... يجب أن أعرف كل شيء، الآن، يجب أن أتبين أين أنا بالضبط... من هو غريمي؟ أيها الغبية المسكينة كي أستطيع أن أفعل شيئاً يجب أن أعرف الحقيقة العارية... توجه نحوها متوعداً... لمحت وميضاً ينبعث في عينيه... وميضاً أخافها، أمسك بمعصمها يجذبها نحوه بشدة، يحدق في عيونها... نيران متقدة...

- منو فعل بك هذا؟

لابد أن تقاوم... لن تبوح بسرّها مطلقاً... ستلقيه لقاع بئر لانهاية له... جوف الأرض السحيقة، استدارت عنه وانحنت بجذعها إلى الناحية الأخرى، لكنه استدار إلى الناحية الأخرى من السرير يردد سؤاله كالمطرقة... حتى أخذت جمجمة رأسها في التصدع، فحبست عروقها ودفعت دمها بشدة إلى رأسها حتى صارت جمجمة الرأس مثل السندان تحت المطارق، اندفع يتخلل خلايا عقلها يرن الضجيج والصدى... قفز ناصر عبر الفراش إلى الناحية الأخرى، انثنى بركبته على الأرض، وكفاه تعيد القبض على معصمها، ووجهه بمستوى وجهها، يصر- على أسنانه وعيونه تنفجر بالشر...

- منو تظني نفسك؟ هه أجيبني... شرموطة أو ساذجة؟ إيش تعرفني عني بيش تستغفليني؟ ما يقضي- واحد وطره من

امرأة رَغْمًا عنها... تعلمين؟ أجيبني وإلا حق النبي أكسر-
عنقك...

كان وجهها مغمورًا في الفراش، يدق في رأسها... صوت
الرتاج... الباب يفتح قليلاً... تضاء الغرفة بأشعة الضوء ثم
يحل الظلام ثانية... العيون الوحشية تتكرر كل يوم... تدور
حولها... من هذا؟ إني أعرفه... وامتدت يداً تلوك بطنها،
شعرت بنشوة ثم لسعة، ألم شديد كان ناصر يضربها بالحزام
وصراخه يملأ الغرفة:

- سأجعلك تجيبي... منو فعل هيك...؟ جذب شعرها
بقسوة ورفعها إليه... لم تكن تبكي ولكن على وجهها
ارتسمت علامات مريعة... وقف ناصر بغتة مندهشاً ثم
قذف بالغطاء جانبا، وهي لا تستطيع فتح عينيها إلا بجهد
جهيد، تجوب بهما ظلام الحجر، صداع يعيدها بقوة إلى
الفراش، يهتف... سأريك... لحظة سأريك... وقف والغضب
يملؤه يفك حزام بنطاله... عيون تحدق فيها... عيون حيوان
يجول في جسدها العاري، وهي نائمة على فراشها في حجرتها
المظلمة في حوش أبيها رأسها مثقلة... طعم الشاي الغريب
الذي تأخذه منذ أيام قليلة، عيناها تزوغان وسط أشباح
العتمة...

تصاعد الضجيج برأسها، على وجهها تعبير السكون
والتجهم، وانطلق رنين المطارق، فوق السندان يدق خلايا
رأسه، صرخت بصوت غير مسموع... إني أعرفه... أخي...

أخي... أخي... كانت حنجرتها تحبس صوتها عندما انطلق
عواء من مكان سحيق ظل يرتفع ببطء، وبغته امتلأت
الغرفة برنينٍ مدوّ... لقد عادت لها نوبة الصرع... توقفت يده
عن الضربة الثانية، وقد تجمد من خوف حقيقي...

ضجت الفيلا بالصرخة... اندفع ونيس صاعداً يقفز
الدرجات مثنى وثلاثاً، من خلفه ثريا وحميدة... دق الباب
بعنف... انتبه ناصر فلهث وهو ينهج قائلاً آه... آه... ورأسه
يدوي... أمسكه ونيس يسأله بلهفة وزعر شديدين، يحاول
أن يخفف من اندفاعه:

- إيش فيه يا ناصر...

ووراءه ثريا تردد: يا ساتر يا رب... خير يا ناصر... اللطف يا
ربي... اللطف من عندك.

فدفعه عنه قائلاً: القحبة حامل... عدي شوف عاد لها
نوبة الصرع...

دخل ونيس مندفعاً إلى الحجرة ومن خلفه ثريا
وحميدة... وجدها ملقاة على الأرض مغشياً عليها، الزبد
ينسال من فمها، وقد ضمت يديها حول صدرها، سارع
ونيس يحملها قبالة أخيه حميدة إلى الفراش، لكنه انتبه إلى
غياب ناصر، وقد لمحّه يسير مترنحاً يصطدم بالأثاث وهو
يهبط الدرج فصاح بحميدة، عدي شوف ناصر وين... اترك
ثريا تحملها قبالي وأسرع ما تتركه... فهمت ولا لأ؟..

تركها حميدة مسرعًا وهو يردد: باهي...
رحل حميدة مسرعًا إلى الخارج وصاح ونيس بثريا:
- احملها من قدميها إلى الفراش... هيا...
- باهي... إيش جرى يا ربي... اللطف بينا.
- مدي يديها... نعم هكذا... اجعلي ساقها مستقيمتين...
فرد يديها على سعتهما حتى ارتخت، وعدل من رأسها بعد
أن رفع من تحته الحشية ثم أخذ يضغط في بطنها على
صدرها مرة بعد المرة.
دخل حميدة من الباب صارخا: ناصر أخذ السيارة وعدى.
ندت عن ثريا صرخة فزع: معقولة... وين يعدي في ها
الوقت... يا رب اللطف... يا ربي...
قال ونيس: عدي دور فيه...
- ما معي مفاتيح سيارتي...
عجل به ونيس قائلاً:
- خذ مفاتيح سيارتي في الجاكطة... وين الجاكطة؟
أجاب حميدة وهو يستدير راحلاً في عجلة:
- أنا ندري وين... انطلق إلى الخارج...
عشر دقائق واستراحت... أرخت جسدها... بدأت
تفريق... نظرت حولها في ضعف، على وجهها صفرة...

أحضرت ثريا كوب الماء، أعطاه لها ونيس... جلس كلاهما على جانبي الفراش...

تواردت خواطرها... من هما؟ من تكون المرأة... لا بد أن الشاب أخوه... هل علما بعاري... شامتان إذن... لا أرغب في رحمة أحد، لا تعذبوني، هيا ابتعدوا... ابتعدوا من حولي، اتركوني لوحدي فهي أرحم من الملائكة... رددت لنفسها بتصميم... يجب أن أنتهي من كل هذا... غالبها ضعفها، أغمضت عينيها... خيل إليهم أنها نامت... سمعت ونيس يقول لثريا بصوت خافت:

- نامت... كان الله في عونها... هيا بنا إلى أسفل.

قالت ثريا: أظل معها... قد تحتاجني بالليل... كان يجب أن تحضر أختها.

- ما في داعي... هسه يعود ناصر.

خرجا وأغلقا باب الغرفة خلفهما... نضت عنها الغطاء بسرعة، وقامت من السرير تستند على الأثاث، اتجهت إلى باب الغرفة حافية فتحتها... كانت أمامها صالة كبيرة... بحثت عن مفتاح النور... حدقت حولها... ثمة أربعة أبواب وطريقة...

فتحت بابين لغرفة استقبال وطعام... اصطدمت بمنضدة... أحدثت صوتاً عالياً، وقفت مضطربة لفترة قليلة ثم اتجهت إلى الممر الصغير... في نهايته غرفة الحمام

دخلتها وأغلقت خلفها الباب... أشعلت الغاز تغسل وجهها بالمياه الساخنة... والآن بدأت تجسد خواطرها... غريبة وسط غرباء في منزل غريب... سوف يأتيها هذا الذي زفوها إليه... يجب أن تتخلص من كل هذا... كان ينقصها شيء لا تعيه. ومن الطابق السفلي تصاعد صوت أجش عريض... كان عمر قد عاد...

* * * *

عندما بلغ ناصر الطابق الأسفل كان يشعر باختناق، فتش بعض الأدراج، وجد مفاتيح سيارته المرسيديس فتح الباب بتثاقل... هبط الدرجات الأخيرة، أجال بصره في أرجاء ساحة الفيلا، لم يكن هناك سوى الفوضى والكراسي المتناثرة وأضواء كابينة صغيرة... ذهب إلى الجراج فوجد ثلاث سيارات، خطر له أن يجد إحداها مفتوحة، فوجد سيارة حميدة الفيات الأسبور فتحها، لكنه تردد، بحث عن سيارته، وجدها بين ثلاث سيارات... ذهب إليها فتح الباب في بطء ألقى بنفسه أمام مقودها، أدار مفتاح التشغيل، وضع السرعة الخلفية، فجأة ضج الطريق من اهتزاز السيارة وصرير عجالاتها من عنف المقاومة، تراجع إلى الخلف مثل المجنون حتى كاد أن يصطدم برصيف الطريق الآخر، لكنه توقف بغتة واندفع إلى الطريق الرئيسي... أضواء الأضواء الأمامية... عبر عدة طرق جانبية... شعر بالخطر... عبر الفويهات ودخل طريق بنغازي الدائري الرئيسية، كانت الطرقات خالية

عدا سيارة أو اثنتين... رآه شرطي لكنه لم يكن دورية بوليس ميكانيكية... جذبته أضواء الطريق الصفراء الجانبية الممتدة طويلاً... جذبته كي يسرع... كسر- إشارتين، لكنه اندفع تحت سقف من الأضواء الثنائية... اندفع بسرعة هائلة... كان شعور الخطر قد انزاح عنه حتى بلغ تقاطع السلماني وطريق المطار... انثنى في عنف إلى طريق المطار... لكنه استدار بعنف مرة ثانية حتى بلغ الطريق الرئيسي... واندفع في سرعة هابطاً إلى الرويسات فدكاكين حميدة... والآن بلغ البحر... سار بموازاته حتى عبر الانحناء الخطر إلى الطريق الممهدة المؤدية إلى الشاطئ... توقف وقد أصابه الهلع وقد اقترب من الموت بعد أن كسر ثلاث إشارات في جنونه.

سار متمهلاً إلى البحر... هبط من الدرج الجانبي للكورنيش... تصاعدت رائحة القاذورات التي يليقها الكازينو المقام أمامه... تخطاها حتى بلغ منطقة الصخور... ومستوى المياه تحت حذائه يبلله الموج قليلاً... وضع كفيه في جيوبه وابتسم.

من لحظة مرأى البحر عند دكاكين حميدة وحتى هبط من السيارة، كان سطح البحر يمتد أمامه إلى خط الأفق اللانهائي، فوقه خيمة السماء الليلية محملة بأعداد لا نهائية من النجوم، وسهل المجرة لامعاً في البعيد، بلغ الكورنيش استقبله هواء البحر بارداً منعشاً، ما كاد يعبر المنطقة المملوءة بالقاذورات، حتى كان قد نفث عنه كل غضبه، لم

يبق إلا البحر... أمواجه القصيرة تلاطف قباب الصخور
تغمرها ثم تنساب عنها عائدة، ومن الداخل يرتفع الزبد
ويرتفع من آلاف البلورات الفضية، ثم لا يلبث أن يختفي
ليظهر من جديد في منطقة أخرى فيصنع أشكالاً متوازنة...

رحل بنظره إلى داخل البحر حيث منطقة أضيئت بأضواء
سفينة صغيرة... وضع كفيه في جيوبه ثم غمغم مبتسماً...
والآن يا بحر... أخرج يده اليمنى... شد قبضة يده... هزها في
وجه البحر يخاطبه...

قد فعلتها معي... كدت أصاب بالجنون... ماذا أفعل مع
هذه المسكينة... أليس من حقي أن أعرف غريمي؟ من هو؟
لو فقط أعرف... لا يهم الآن... لن أثقل عليها بالسؤال... عاد
إلى هدوئه... ها أنت ترى... كنت مسوقاً إليها... كان كل منا
مسوقاً إلى الآخر.

الآن يا بحر ماذا أفعل؟ نرحل إلى إنجلترا... هناك أجرى
لها عملية الإجهاض... وماذا في مرض الصرع هذا الذي
يصيبها... يا إلهي... فكر هنيهة... لو أعطيتها لك... أحملها
على ذراعي وأعطيتها لك... تغسلها ثم تعيدها إلى... ها...
ها... حتى ولو بلغت شواطئ الولايات المتحدة لا يغسل
البحر عار امرأة... حتى ولو بالموت... باهي لنترك لك
هدوءك ونفكر نحن فيما حل بنا من كارثة.

سار أمام البحر جيئةً وذهاباً، صعد إلى أعلى الكورنيش ثم
نزل مرة أو مرتين كان يستعيد شريط حياته، يجد فيه ما

ينقذه من حيرته... ظل يفتش... يبحث عن رضائه
الداخلي...

لن يصيبني ضرر على أي الأحوال أكثر مما تم... لكنها في
حاجة لمساعدة، إذا كان أحدهم قد غرر بها، والبعض باعها
أو اشتراها فالجميع شارك أمس في اغتصابها، جعل عارها
عارًا جماعيًا... لن يبقى لها أكثر من هذا كي تعذب...

أخذه إشفاق شديد... لا بد أن رعبك بدأ منذ تقدمت إلى
خطبتك، كلما اقترب ميعاد الزواج اقترب ميعاد رؤيتك
لأشلائك... باهي... أنا نساعدك... لكني لا أعرف ماذا يدور في
ذهنك... هل تقبلين المساعدة أم لا؟ نرحل في أقرب وقت...
نعبر هذه الفترة الحرجة... وفي إنجلترا ستهدئين... ساعتها
أمامنا طريقتين... الطلاق أو البقاء معي... كما تشائين... لكني
سأرضي ضميري ولن أتخلي عنها...

عند هذه اللحظة ارتاح تمامًا... يجب الرحيل عن بنغازي
بأقصى سرعة، بعد عملية الإجهاض ستختار ما تريده هي...
في الحاليتين لن يضيرني شيء... والآن أسرع بالعودة...

صعد الدرج الجانبي بكورنيش الشاطئ، اتجه مباشرة إلى
السيارة... لم يرفع ناظره إلى البحر... كان قد بلغ الطريق
الدائري عندما خطر له أنه قد سمع دوي انفجار.

* * * *

أطرقت بأذنيها... أيقظ صوت عمر الجميع... سمعت
أصوات عديدة تتصايح بالطابق الأسفل... كانت الأسرة قد
استيقظت على صوت عمر الجهوري...

- القحبة هاذي تعدي توا لحوش أبوها...

قالت أمه: يا عمر الصباح رباح يا وليد...

- لا أنا ما ندري أن هاذي شرموطة.

داهمها ذعر بالغ وخوف شديد... وسط الأصوات
المختلطة.

قال ونيس: أنت ليش ما تنتظر حتى الصباح... ثم إن هذا
ليس حقك...

- أنا ما انتظر حتى لحظة واحدة... هاذي الشرموطة
تحملوها توا غادي، وترموها في حوش بوها... أنا ما نترك
العار هذا في حوشي لحد الصباح.

استندت إلى الحائط وقد سقط قلبها في قدميها من
الخوف، تغضن وجهها وقد حبس البكاء في صدرها... لم
تكن قادرة عليه... رددت: ليش تدير في هيك يا خوي...
قتلتي.

كانت مثل فأر مذعور في مصيدة، وقد جلست حوله
قطط وحشية تشرخ حياته... صدمتها أحداث الليلة
الماضية... شعرت بجسدها يأكله عشرات الرجال وهم
يأخذون عرضها وفخذيها العاريين، فرجها ظاهراً للعيان...

تراه كل العيون... تغتصبه... تلوكة كل الأصابع وأيدي أخوها الأكبر تشد جسدها من الخلف بقوة، تسقط على الأرض، ورأسها يحدق في سقف الغرفة، وأصابعها تتشنج، تبحث عن شيء غامض، آلاف الصور تعبر ذهنها الآن في سرعة الضوء...

متى شعرت بعين أخيها الأصغر تحديق في نهدتها المكشوف قليلاً مثلاً عيني حيوان... لا تدري... كانت فقط تشعر أنها عارية، فتخفي جسدها، تتحاشى أن يرى منه أحد شيئاً... لكن مرة جلس فيها بجوارها أمام التليفزيون، التصق بها، لم تشعر به إلا بعد فترة وشبق جارف يرتفع من فخذها وجانبيها، ارتعشت مبتعدة... بعدها شعرت أنها مطاردة... ها هو البيت سيخلو عليها لأسبوع... الشاي الموضوع أمامها له طعم غريب... رأسها المثقل يدور... فراشها... الحجرة المظلمة... تكة الباب تسمعها... جلبة... ينفرج الباب قليلاً... شبح ينتصب عارياً في غرفتها... تفتح عينيها في صعوبة... تلتقي بعين حيوان تحديق بها... تدور حولها... تقرب... تشعر بكابوس تخال نفسها فيه عارية... أين سروالي الداخلي؟ يد تلوكة بطنها... إني عارية... البرد بين ساقها والخوف الشديد... ثقل يجسم على جسدها... الاختناق من الثقل الممدد فوقها... صراخ... صراخ... صراخ عميق بلا صوت... ما هذا... ما هذا... رجال قادمين مع النساء... مبروك يا درية... لقد خطبت... اختفاء الطمث الشهري... إنه ناصر أخو عمر بوزوي تعرفي... وسيم... جسد

فارع... سنتين في أمريكا يحضر— في الماجستير... الكل
يحسدها... المهر... لبن الأم... كل شيء يحل في سهولة...
أبيها سيصير شريكا لعمر... إنه يضح من السعادة والفرح...
لقد كسب الصفقة... تزوي تحترق... الخطاب الذي ترسله
مع صديقتها إلى ناصر... أبيها يندفع وفي يده سكين حادة...

- أقتلك إن كان هذا الخطاب منك.

فتصرخ: أنا لا... ما نرسل شيء يا باتي...

- باهي... تواتقول لعمر هيك.

يومان وبعدها العرس... ترى بنغازي... شوارعها العريضة
الرحبة... مبانيها الحديثة... كلية طب الأسنان... مبنى الأمن
العام... ميدان البركة... ما أجمل ناصر... يا إلهي ما أجمله أود
لو أكون زوجته... لكني لست زوجة لأحد.

تتابع الصور في رأسها المعذب... ها هم يصعدون بي
لأعلى، يتدافع الجميع، يدفعوني لغرفة النوم، تمتلئ الغرفة
بالرجال... خالتي... أنقذيني... لا أحد يعرف مصيبي... وينك
يا أمي؟ ها هم يتقربون من فرجي، الكل يتحدث عنه... الآن
يجذبوني لأسفل... يكشفون عنه برعونة... آه... ه... ه...
اتركوني... وخذ... وخذتين أنا امرأة ألم طاغ... ألم طاغ مريز
بين فخذيه... أخوها الأكبر يجول فيه... اطعنوه بسكين
حتى يدر لكم دماء... أنهار من الدماء...

ثقل يعلو جسدها تعوي مثل ذئبة تموت... يشرق وجهها
على وجه ناصر... ياربي من لا تتمناه زوجًا... ياربي...
طيب... شقوق... عطوف...

أقدام تعلقو الدرج... ونيس يصرخ بعمر... حميدة ينظر
إليهما في غضب من أخيه عمر:

- يا أخي، انتظر حتى الصباح... يا أخي هي تسمع فينا توا... أنت
إيش بيك إيش دخلك... هادي زوجة ناصر مو زوجتك...

قال عمر: نعم أنا نبيها تسمع... إذا في أذنيها سمع أنا نبيها
تسمع...

قال ونيس: ليش أنت ما عندك ضمير يا أخي، هادي
مريضة تي العناية مو السفالة.

- هادي القحبة في حوشي أنا... زوجة زيد... زوجة
عبيد... هادي شرموطة... وأنا نزميها بره كيف الكلاب... ما
تظل عندي حتى الصباح... بنغازي تحترم الحوش هذا تخاف
منه... أقابل حدًا عينه تقول لي في حوشك شرموطة... ابعده
عن طريقي يا ونيس... أبعده يا قواد... توا نطردها ونعدي بيها
حوش بوها...

يجذب ونيس ذراع عمر... يدفعه صاعدًا... تصرخ النسوة
خوفًا من اشتباك الأخوين... يجري حميدة يمسك بونيس...
يقول له:

- اتركه... هذا حوشه، أنا ما نبي في فيه يوم واحد بعد اليوم...

تسمع درية خطوات الأقدام على السلم... ها هو عمر
بوزوي أغنى رجال بنغازي وأقواهم سلطة ونفوذ... والذي
تحدث بنغازي كلها عن قصص بغية وطغيانه ومغامراته

النسائية مع المراهقات... لن أسلم نفسي- له، لن أجعله يعبر
بي أمام كل هؤلاء ملطخة بالعار... نسوة عجائز شبان فتيات
أطفال... لن أرى شوارع بنغازي وحواريها وحوانياتها
وشواطئها بعد الآن.

عبر خاطرها كل شيء مشاهد متتالية... اندفعت إلى
الحمام... لن يراني حوش أبي بعد الآن... لن يسألني أحد ابن
من هذا الذي في بطنك... جذبت خرطوم أنبوبة الغاز
فاندفع الغاز كثيفاً يملأ الحمام...

يجب أن أموت وسري معي لا يعلمه أحد... ابتعدت عن
الحمام تبحث عن عود ثقاب فكرت بشدة وكان عمر
ينتصب أمامها على عتبة السلم وقف لحظة ينظر كل منهما
إلى الآخر... اندفعت باتجاهه فتراجع... خطفت قداحة
السجائر الذهبية الموضوععة على المنضدة.

نظر إليها في دهشة تبتعد عنه بسرعة إلى الداخل...
باغتنه رائحة الغاز... صرخ وهو يراها تختفي بالداخل ثم
توقف... كان فكره يعمل بسرعة البرق... لم يجرؤ على
الدخول... لقد سمره في مكانه الماضي الذي بناه... أمواله
المودعة في البنوك المحلية والأجنبية، مشاريعه المتناثرة
على طول الساحل الشرقي وتلك التي يعتزم إقامتها في القاهرة
هرباً من التأميم... شبابه الذي تنلهف له النسوة...
المستقبل العريض الذي ينتظره... لم يفكر في امرأته أو ابنته
أو أخوته...

دفعت باب غرفة الحمام... لم تجرؤ على الدخول رغم شعورها أنه سوف يطاردها... ضغطت على الزناد مرة فلم يشتعل... أعادت القدح فخرج شرر... كانت بعيدة عن الغاز الذي لم ينتشر- بعد... اقتربت خطوة... مدت القداحة على طول ذراعها الاثنتين... أغمضت عينيها... ضغطت على الزناد... وهلة... ثم وهلة... دوي انفجار هائل دفع بعمر لأسفل... تابع الهبوط مسرعاً... صرخت ثرياً: حريق... حريق...

اندفع ونيس ناحية عمر: شنو يجري...

هتف به: القحبة حرقت نفسها... القردة أشعلت الغاز المجنونة... لا تصعد أخرجوا جميعاً.

حاول ونيس الصعود... لكن أمه تشبثت به في قوة وأمسكه عمر... لمحت ثريا حميدة يتململ... شعرت بما يخالجه اندفعت تمسك به هو الآخر... صرخ ونيس:

- اتركوني... درية فوق... المسكينة فوق... اتركوني... اتركوني يا كلاب... لن أصعد... نبي نطفي الحريق... اخرجوا جميعاً... اتصلوا بالمطافي...

عشر- دقائق مرت مسرعة، الكل في هرج شديد وونيس يحاول الاتصال بالمطافي... شق الفضاء صرخة مدوية... نظروا تجاه الصوت... كانت ثريا فاغرة فاها والرعب يملأ وجهها، تشير يداها أعلى السلم... نظروا هناك... كانت درية

تقف مشتعلة بالنيران... راح عنها شعرها وملابسها... تدور يداها في الفضاء... امتلأ المكان برائحة الشواء المحروق... لحظتان وقفتهما... يتطلع الجميع إلى وجهها المشوه المخيف... تهاوت على الأرض... امتلأت القاعة بالصراخ.

رعي ونيس بالتليفون من يده وقبل أن ينتبه إليه أحد ويمنعه كان يحمل سجادة الحائط الكبيرة، اندفع يطفى كتلة الجسد المحترقة... نظرت ثريا خلفها... كانت صباح تطل من الباب اندفعت إليها تبكي بكاء محموم... لقد قتلها عمر... قتلها عمر... واستمرت في بكاء عنيف... كانت تبكي نفسها... لو كانت لديها الشجاعة لفعلت مثلها...

كانت على منتصف السلم تنظر إليه في دهشة ميتة... بكى ثم غطاها... تركها ثم اندفع صاعداً لأعلى ومن خلفه الجميع... كانت النيران متناثرة ضعيفة في الجناح الذي خصص للعروسين، وقد امتلأ الطابق بالدخان، فتح الجناح الآخر، واندفعت النسوة تحمل منه الماء، وأخذ عمر وونيس وحميدة يطفئون النيران بالسجاد والمياه حتى تلاشى الحريق.

في أسفل الفيلا... دخل ناصر مندفعاً وقد لاح في واجهتها آثار الحريق والدخان المتصاعد... على باب القاعة السفلية تمهل... أمسكت به امرأتان تمنعاه من الدخول... دفعهما من طريقه... على السلم لمح الكومة المغطاة... شعر

بالغصة تملأه... وأقدامه ترتعش من تحته لا تقوى على
حمله قدميه... ماذا جرى لدرية؟ هل هي؟!

صعد... رفع الغطاء لم يستطع أن يتبين وجهها فصرخ:

- منو هذه؟

جاءه صوت من أسفل: هاذي هي.

عاد ناحيتها، رفع الغطاء ثانية... سالت الدموع من عينيه
غمغم:

- ليش يا ربي؟ كنا سرحل من هنا... كان كل شيء سيصبح
طبيعياً... لماذا؟ كنت أريد أن أعرفك بأن هناك بشر... بكي...

لمحه حميدة فتراجع عنه والعجز يملؤه... في أعلى كان
عمر يصرخ:

أنا نجيب أبيها القواد. وكل شيء... المهر وحليب الأم
والذهب... حتى يدفع تعويضاً، على لي صار في الحوش
بسبب القردة الملعونة بنته... نشهد الله أنا نحطه في
الحديد... نقلته.

اقتربت ثريا من ناصر تبكي هي الأخرى، أخذته من
ذراعيه... كانت تخشى... أن يجن... خافت أن يقاومها... لكنه
استسلم لها... هبطت به إلى أسفل... أخذته إلى مقعد لكنه
قاومها... رفض... خطأ إلى خارج الفيلا...

كانت أضواء الفجر الأولى تتسلل إلى مكان فتشيع فيه
ضوءاً شاحباً... غمغم: بالأمس كان هنا عرس... عرس...
خطا هابطا درجتين وأمامه أخذ ينظر إلى المكان...

بقايا دخان متصاعد... شظايا الزجاج المكسور...
وساحات متسخة عليها بقايا أوراق ومأكولات وزجاجات
الشراب والمثلجات متناثرة... كانت أضواء الطريق تخبو أمام
الصباح القادم، وقد هبط ضباب كثيف... تابعته ثريا
بنظراتها بقلق.

سار متمهلاً جهة الحديقة... كان العشب مملوءاً بقايا
العرس متسخاً... تناثرت عليه قصاصات الورق البيضاء
والملونة وعلب السجائر الفارغة وأعقاب السجائر وبقايا
الزجاجات الفارغة... وتباعدت المناضد ومن حولها الكراسي
في غير ترتيب... داس بقدمه الأعشاب الخضراء... عبر
المناضد إلى الجهة الأخرى وعلى كرسي بعيد جلس...

كانت أشعة الصباح تتسلل تزيح أمامها غلائل الفجر
الرهيفة... بعد قليل سيأتي الأهل والأصدقاء ليهنئوا
العروسين بالصباحية...

تمت



لم تنطق سوى بكلمات قليلة: عم أحمد يخدم المؤسسة..
 ذلك أنه تجاهلها ومال إلى الرجل يصرخ به: شنو تبى
 يا تيس.. عدى لمكتب العمل يا قواد.
 لم ينبس الرجل سوى بجملة: تشتم راجل فى عمر
 والدك يا عمر؟

كأنه كان ينتظرها فقد هبط بكفه على وجه العجوز
 مهتاجا، فدار الرجل حول نفسه وقد قذفت به اللطمة
 إلى الجدار، حاول الهروب لكن عمر تابعه بركلة فى
 مؤخرته وهو يسبه ويهينه.

- دينك ودين عويلتك.. هيا بره يا تيس.. عدى لمكتب
 العمل غادى واستدار إلى مريم قانلا:
 - القوال هذا ما يأخذ من حقه درهم واحد فهمتى والا..
 لا.

هزت رأسها موافقة فى سرعة.. لا تفهم كيف أن رعبا
 مستطيرا حل بها، ترى القوة الغاشمة قريبة منها بمثل
 هذا القرب، تكاد تلامسها، تطيح بها، كيف أنها لأول
 مرة فى حياتها داخلها الخوف والضعف أمام قسوة
 الآخرين، لقد أهينت كرامتها، كانت تظن نفسها القوية،
 لكن البغى غير الإنسانى الذى حل بالعجوز جعلها
 تنكمش وتصمت وتنحنى.



ميريت